الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس
Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

اولت « الاداب » و « دار الاداب » ، منذ نشأتهما ، الكاتب الفرنسي جان بول سارتر اهتماما كبيرا تجلى في ترجمة أهم مؤلفاته ، ونشر دراسات مستفيضة عنه ، والعناية بالحديث عن مواقفه المختلفة .

ولم يكن مصدر هذه العناية وذلك الاهتمام الا الايمان بان هذا المفكر الكبير هو اعظم المفكرين الاحرار في هذا القرن العشرين . وان دفاعه الصادق عن قضايا الحرية في العالم ، ولا سيما قضية استقلال الجزائر ، جدير به ان يفوز بكل حبنا واعجابنا . وانه لكسب لنا ، نحن العرب ، ان يتجند اكبر مفكر حر في عصرنا للدفاع عن قضيتنا في الجزائر ، كما انه كسب للبشرية كلها ان يضع سارتر كل عبقريته واخلاصه في خدمة الحرية ، والدفاع عن حقوق المضطهدين ، وفضح اساليب الاستعمار ، بشكليه القديم والجديد .

على ان ما يزيد اهمية سارتر في نظرنا ، هو ان مواقفه هذه صادرة عن نظام فلسفي متكامل استطاع ان يجعل منه واحدا من اكبر الفلاسفة المحدثين .

نحن وسارتر

بقلم الدكتور سهيل ادريس

ولا ريب عندنا في ان اقبال القراء العرب على مطالعة اثار سارتر يترجم خير ترجمة عما وجدوا في مؤلفاته من زاد وغذاء ضروريين لهم في سعيهم لخلق حضارتهم الجديدة وتحقيق شخصيتهم المستقلة .

لقد كان الادب الوجودي الذي يمثله سارتر افضل تمثيل يعبر تعبيرا عميقا عما عاناه الجيل الفرنسي منذ كارثة الهزيمة الفرنسية في اثناء الحرب وبعدها . ولعل شيوع هذا الادب في وطننا العربي معزو الى ان الاجيال العربية الجديدة تجد فيه ما يشبه التعبير عما تعانيه منذ كارثة فلسطين . لقد كان من المفروض ان ينشأ لدينا بعد هذه الكارثة ادب يعكس اوضاعنا وهمومنا ويعبر عن اشواقنا لمحو هذه اللطخة من تاريخنا ، ولكن اجيالنا الجديدة حين افتقدت هذا الادب ، الذي ربما كان بوسعنا ان نلتمس لعدم نشوئه بعض التبريرات ، راحت تبحث في الاداب الاجنبية عما يعبر عن قلقها وتمزقها وضياعها ، وآمالها كذلك ، فوجدت هذا كله في الادب الوجودي عامة ، وفي اثار سارتر خاصة .

ان جماع فلسفة سارتر يتجه الى ان الانسان ينبغي ان يكتسب جوهره بالحياة والعمل . فهو ليس شيئا اخر

غير ما يكونه بنفسه ، وهو مطلق الحرية بان يصنع بنفسه ما يريد ان يكونه ، او بالاحرى ما « ينزع » الى ان يكونه . وهذا تكون غاية هذهالفسفه ، بكلمة مختصره قد تؤدي الى تشويه غناها الحقيقي ، خلق الانسان خلقا جديدا يقوم على الحرية والمسؤولية .

وليس من شك في ان حاجتنا القصوى ، نحن العرب، في هذه المرحله الدقيقه من تاريخنا ، هي ان نكتسب الحرية ، وان نضطلع بالمسؤوليه .

وهاتان الفكرتان ، الحرية والمسؤولية ، هما قطبا الفلسفة السارتريه كلها . وقد اصيبت هذه الفلسفة بتحريف وتمويه عندما اختطفها جيل من الضائعين في فرنسا اثناء الحرب وبعدها ليجعلوا منها مرتكزهم السلوكي، فاذا هم يقتطعون من قطبيها القطب الاول الذي هو الحريه ليمارسوها وفق امزجتهم واهوائهم ، ويسقطون المسؤوليه التي هي الضابط والرقيب لكل حرية انسانية.

وليس في الفلسفات القديمة والحديثة فلسفة كالوجودية تحفظ للانسان ـ كفرد ـ كل قيمته ، لانها تربط هذه القيمة بالعمل الانساني ، والعمل الانساني وحده ، ولا تلقي المسؤوليه الا على هذا العمل ، بحيث يكون الفرد هو خالق نفسه اولا واخيرا ، فمنه تنبع كل قيمة ، وفيه تصب .

واذا كان الانسان ، عند سارتر ، بلا جذر ، فلانه هو جذر نفسه ، واذا لم يكن ثمة في الخارج ما يكسبه قيمة ، فلانه هو قيمة نفسه، ولئن كان متروكا ، فلانه حر. ان حركاته لا يمليها عليه لا نظام الهي ، ولا نظام عقلاني يجده في ذاته او في الاشياء ، ورد فعله الاول هو دوار قلق امام هوة حريته : ولكن من هذه الحرية يولد معنى حياته . الحرية : تلك هي الكلمه العظيمة الخصبة التي تتيح لنا أن نواجه الحياة .

وليس من قصد هذه الكلمة أن تستعرض فلسفة سارتر ، ولكن يهمنا هنا ان نرد التهمة الخاطئة التي يحلو للبعض ، ولا سيما عندنا ، أن يلصقوها بهذه الفلسفة حين يدعون انها لا اخلاقية . والواقع أن هؤلاء انما يعتبرون الاخلاق قيما قبلية قائمة وناجزة ، ويقيسون بها كل المواقف . اما سارتر ، فان « اخلاقيته » تريد أن تكون خلقا دائما ، ما دام العالم لا ينفك يكشف عن اوضاع جديدة. ليست هناك « حكمة » قائمة ينبغي العودة اليها والحرص عليها ، كما انه ليست هناك قيم عالمية . والحق ان سارتر انما يهاجم هذا « العالمي » ، لانه يؤمن بان ليس ثمة « جوهر » متجمد علينا ان نحترمه ، وانما هناك «وجود» جديد دائما علينا أن نبرره ابدا وبلا انقطاع . ان سارتر هو كاتب عصر ينفصل عن فكرة التقاليد ، ليجعل من الحضارة تجددا ، لا حفاظا للقوانين ومراعاة ، ومن الحياة مغامرة لا نظاما قائما . وهو يريد العمل الاخلاقي ان يكون اختيارا لا مجرد طاعة .

ويهمنا هنا كذلك أن ننبه قارىء سارتر الى ان عليه أن يأخذ آثاره ومؤلفاته كوحدة لا تنفصم عراها اذا شاء ان يفهم فسفته واتجاهه . اما اذا جزأها ، ووقف عند هذه الاجزاء المتناثرة ، فسيجد فيها كثيرا من المظاهر السلبية التي قد تحمله على الاعتقاد بان سارتر عدمي تشاؤمي . والحق ان اثار الكاتب الوجودي تبدو اشبه بسلسلة تكمل حلقاتها بعضها بعضا . فاهميتها صادرة عن انها تعرض علينا رؤية للعالم والانسان تجمع وتنظم معطيات الضمير المعاصر المتفرقة ، وهي تريد ان تكون توكيدا لموقف : فضح العالم في لوحة لا هوادة فيها لما هو الانسان . ولكن غاية سارتر تتجاوز ذلك : فهو لا يواجهنا بجميع الاسباب التي تدعونا الى اليأس الا لنعرف اذا كنا سنجد فيما وراء ذلك تبريرا للحياة . ان كل بطل سارتري يعيش تجربة حريته ، وليس الابطال السارتريون كائنات تجريدية تعوم في الفضاء ، ولكنهم جميعا متموضعون في واقع دقيق ، تاريخي واجتماعي ونفسي وفكري . غير ان التوضع ليس تحديدا ، وانما هو مجال الاختيار الحر . صحيح ان الانسان يشعر بـ « الغثيان » امام الواقع الذي لا شكل له ، الواقع اللامعقول ، العبثي ، الذي يغمر انطوان روكانتان . ولكن في الصفحات الاخيرة من رواية «الغثيان» موسيقى اسطوانة يشرق منها امل في التحرر . ان اللحن لا يوجد كالاشياء او كالانسان ، وانما هو دقة وضرورة ، افلا يمكن لنا ان نكون على شاكلته : لا ان نوجد ، بل ان « نكون » بان نخلق اشياء تكون فوق الوجود وتفلت من عبثيته وعرضيته : كالكتب واللوحات ؟ اجل ، يكفي تجاوز « الغثيان » وتثبيت العرضية ورؤية ما تقتضيه ، حتى تكتشف « دروب الحرية » . وصحيح اننا حين نقرأ «سن الرشد» و « وقف التنفيذ » نغرق في عالم مختلط ، اعتباطي ، يحمل الاشمئزاز واليأس ، وتنبعث منه رائحة مغثية خانقة . ولئن كنا نجد صفحات كثيرة من الوصف الجنسي والبذاءة ، فلن نعتقد لحظة ان سارتر يقدمها للاثارة والامتاع ، وانما هي في نظره صورة الوجود ، الوجود الاولى المعطى غير المتميز ، والذي لا بد ان يتغير ويتحول ويعوض عنه . والحرية هي العامل الرئيسي الجوهر الذي يصنع الواقع البشري . ان الجوهر يصنع ويكتسب بالعمل ، بالالتزام الحر .

اننا في « دروب الحرية » نجدنا امام ابطال بعيدين عن ان ينظموا اعمالهم وتصرفاتهم وفق خط مصمم مختار، بل هم يتناثرون في اعمال مجانية او تصرفات لا تفسر ، تنكر التصميم والتقرير ، وتناقض البساطة ،اعمال لامعقولة او عابثة او كريهة : كأن يزرع احد الابطال سكينا في يده، او يثمل ، او يسرق مالا من امرأة ، او كتابا من واجهة مكتبة . ولكن يجب ان ندرك أن هذه الاعمال انما هي **توكيدات سيئة** للحرية او للشجاعة . انها حرية سلبية لدى ماتيو . غير اننا نراه في الجزء الثالث وفي الفصول التي نشرت من الجزء الرابع يسير نحو حرية ايجابية اذ يحس انه مسؤول ومتضامن مع جميع الاخرين . لقد

أكتشف ان الحرية لا قيمة لها الا بما تستعمل له ، وانها تتطلب التزاما ومسؤولية ، كما تتطلب عملا دقيقا واضحا في وضع معين ، في حين انها لم تكن تبدو له في « سن الرشد » الا كفرصة للتحرر . انه يسعى الى ادراك الواقع المحسوس حيث يعمل الانسان ، هذا الواقع الذي كان يتحاشاه دائما . لقد اراد ان يؤكد نفسه بعد ان غرق في الوحشة والخجل اثناء الهزيمة ، وادرك ان خاصة الوضع الانساني هي ان يدخل تغييرات وتبديلات على معنى العالم، هي ان يعمل . ومن اعلى البرج، اخذ يطلق رصاص بندقيته ضد مدافع الجيش الالماني ومصفحاته ، وبهذا كان ينكر جميع التحفظات الناعمة في حياته ، ويؤكد ان على من اراد الحياة حقا ان يجازف . وقد كانت حرية مزيفة تلك التي كانت تقوم في « سن الرشد » على تأمل العالم من غير الانخراط فيه . وانما تتخذ الحرية معناها الصحيح لماتيو في العمل .

وهكذا اورست في مسرحية « الذباب » . لقد استطاع ان يقول وهو في وضع مشابه : « لقد قمت « بعملي » يا الكتر ... وسأحمله على كتفي كما يحمل عابر الماء المسافرين ، فاوصله الى الشاطىء الاخر واكون مسؤولا عنه . وستزداد فرحتي ما ازداد ثقلا على الحمل، لان حريتي هي اياه . حتى الامس ، كنت اضرب في الارض على غير هدى ، وكانت الوف الطرق تفر تحت قدمي ، لانها كانت تخص اخرين ... اما اليوم ، فليس هناك الا طريق واحد ، والله يعلم الى اين يفضي : ولكنه « طريقي » (1) .

واذا استعرضنا سائر مؤلفات سارتر ، الدراسية والقصصية والمسرحية ، من « الوجود والعدم » حتى « نقد العقل الديالكتي » مرورا بـ « جلسة سرية » و « موتى بلا قبور » و « البغي الفاضلة » و « الشيطان والرحمن » و « أسرى التونا » وسواها ، ظللنا امام الهم نفسه : هم الانسان الذي يبحث عن حريته عبر التزامه ومسؤوليته.

فاذا كنا قد اقبلنا على قراءة سارتر وترجمته ودراسته ، فلاننا كنا وما نزال نجد في اثاره دروسا نتعلمها في الحرية والعمل والخلق ، ولاننا وجدنا هذه الدروس في قالب فني ممتاز بعيد عن الدعاية والتقريرية والوعظ ، ولان فيها تعبيرا عما نعانيه من الوان القلق والتمزق واليأس احيانا ، ولكن فيها كذلك املا بالنجاة والتحرر بالعمل والاضطلاع بالمسؤولية .

ثم اننا كنا وما نزال نجد تجسيدا لهذه الفلسفة في المواقف الرائعة التي وقفها صاحبها من قضايا الحرية في العالم . اننا لا نستطيع ان ننسى مقالاته وخطبه وبياناته في الدفاع عن حق الشعب الجزائري بالاستقلال، ولا ننسى انه سار في عدة مظاهرات تأييدا لهذا الحق واستنكارا لسياسة الارهاب الفاشية التي كان يتبعها المسؤولون الفرنسيون في الجزائر وفي فرنسا . ونحن نذكر ابدا تحريضه الجنود الفرنسيين على التمرد والعصيان وعدم الذهاب الى الجزائر ، حتى لقد اتهم بخيانة فرنسا . ونذكر بيان المئة والواحد والعشرين مفكرا فرنسيا الذي اشرف على وضعه ، وحرمانه من كل نشاط رسمي، ونسف بيته في باريس ، ومحاولات الاغتيال المتعددة التي تعرض لها من قبل منظمة الجيش السرية ، هو وشريكته سيمون دو بوفوار .

ونحن نذكر موقفه المشرف الصادق من حوادث المجر ، يوم استنكر تدخل القوات السوفياتية ، هو الذي كان وما يزال من اكبر المتعاطفين مع الفكر الماركسي والشيوعي ، وكذلك موقفه من التمييز العنصري في اميركا، وتأييده للثورة الكوبية ضد الاستعمار الاقتصادي الاميركي، كما عبر عن ذلك في « عاصفة على السكر » . وقد صدر له اخيرا كتاب خطير جمع فيه عددا من المقالات والخطب والمقدمات التي كتبها دفاعا عن حقوق الشعوب المضطهدة، وفيها دراسة من اعمق الدراسات التحليلية عن سياسة لومومبا والاستعمار الجديد .

***

ولا شك في ان منح سارتر جائزة نوبل قد جاء متأخرا جدا عن اوانه . ولكننا نعتقد ان سارتر كان سيرفض هذه الجائزة ايضا لو منحها في اوانها ، لان ذلك وثيق الارتباط بمواقفه كلها ، تلك المواقف التي اراد فيها دائما ان يثبت حريته وايمانه بالكرامة وزهده بالاغراء المادي .

و « الاداب » التي بدأت منذ عددها الاول ، الذي صدر قبل اثني عشر عاما ، تتحدث عن سارتر ، ترى من حقها ، ومن واجبها كذلك ، ان تخصه بصفحات اخرى في هذا العدد ، وتبعث اليه بتحية اكبار وتقدير .

سهيل ادريس

(1) لمزيد من التوضيح والاستشهاد ، يراجع كتاب « سارتر والوجودية » لالبيريس .

سارتر بين الوجودية والماركسية

بقلم مطاع صفدي

لقد رفض سارتر ان يكون اسطورة ، وكافح باستمرار لكي يكون الانسان ، الذي يتحرر من نفسه باستمرار . ومع ذلك ، فان عالما ما ، هو بين المجتمع والثقافة ، قد فرض عليه الوجود الاسطوري .

بعض هذا العالم ينطلق من كون سارتر المفكر. وبعضه الاخر يعلي منه النموذج الادبي . وبعضه الاخر ، وليس الاخير ، يفضل سارتر الشاهد ، والشاهد الى الاعنف والاقسى . ومن هذه الزاوية فان انتاج سارتر ، هو تبكيت دائم لوجدان الانسان في هذا العصر .

ان سارتر المفكر ، سارتر الاديب ، سارتر الشاهد ، لا يمكن ان يكونوا الا شخصية واحدة ، مهما تفاوت حكم النقاد على انتاج كل وجه على حدة ، من وجوه هذه الشخصية .

والحقيقة ان تفرد سارتر يأتي من كونه قد شحن النماذج الثلاثة عن الكاتب والمفكر والشاهد ، المعروفة تقليديا ، شحنها بحيوية جديدة نادرة . هذه الحيوية هي الجوهر الاساسي لشخصية سارتر . وهي المفتاح الاول ، الذي يجب ان يستخدمه كل فهم مسؤول وشامل ، لهذه الظاهرة الفريدة في الثقافة والعمل الانسانيين المعاصرين اليوم ، ظاهرة جان بول سارتر ، طفل البورجوازية الفرنسية على الحدود الالمانية ، والقميء بدون صفه ، والاحول دون خطأ في الرؤية الحقيقية .

هذا الشاب ، المندفع من اعماق باريس في حقبة ما بين الحربين ، وحش الكتب والمعاناة ، المتطلع من فوق اكتاف العمالقة في زمانه ، الى السر العظيم الخبيء ، الذي تتحول بموجبه طاقات الفكر البشري ، من خلال تصفيات رهيبة لقواعد العقل والحس والعلاقات الانسانية ، المتراكمة في اقبية المكاتب العتيقة ، والبشر والشوارع ، والمؤسسات ، وكنائس العقائد والمفاهيم . ان سارتر ، في تلك الحقبة العجيبة من القرن العشرين ، كان عاصفة حبيسة الجسد الضئيل ، والفكر المضطرب بين الثقافات كلها . يأتيها من مصادرها الاساسية ، في الفلسفة اولا . ويتحسسها انفعاليا من خلال انتاجات ادبية متناثرة ، لم يكتشفها احد قبله . وكان عليه هو ، فيما بعد ، أن يبرزها على أنها هي « الحالة » الاساسية لانسان الوقت. وان انتاجها هي الاعراض . وكان عليه ان ينبه المثقفين اليها ، وان يجعل حتى بلادها الاولى ، تكتشفها .

لقد خرج « فولكنر » و « شتاينبك » و « دوس باسوس » من امريكا ، شبه مجهولين ، ثم عاد انتاجهم من اوروبا ، ليتبوأ مكانه ، في النصف الثاني من هذا القرن ، كاعلى ما كتب في امريكا ، وشهد على امريكا .

ولم يكن الجو الفكري الذي خلقه « جان بول سارتر » حول اعمال هؤلاء الكتاب ، باقل العوامل التي ساعدت على اعتبارهم روادا اوائل ، لاعمال الادب الملتزم الحديث .

ومثلما اكتشف سارتر الطليعة في قافلة الروائيين ، كذلك اكتشف الطليعة في قافلة الفلاسفة . لقد بنى سارتر ثقافته الفلسفية الحديثة ، على مصدرين كبيرين ، هما « ادموند هوسرل » ، و « مارتان هيدجر » . الاول مؤسس الفينومنولوجيا ، والثاني مؤسس الوجودية ، او فلسفة (الكينونة) كما يحب أن يدعو مذهبه .

وعندما التقى سارتر ، عبر رحلته الكثيفة في الفكر والعمل والشهادة ، بكارل ماركس ، كانت شخصيته الفلسفية قد اوجدت لنفسها هيكلها الاساسي . ومع ذلك فان الماركسية لم تعرف فكرا ، استطاع ان يهزها من الصميم ، وان يحاورها من داخلها ، ويمد سلطانها الى قلب الثقافة العصرية ، كالفكر السارتري نفسه .

ولسوف تبقى المسافة فارغة ما بين كتاب « الرأسمال » لكارل ماركس ، وكتاب « نقد العقل الديالكتي » لجان بول سارتر ، دون ان يملأها اي كتاب اخر وسيط .

ولعل اغرب ما في القصة كلها ، قصة سارتر الصميمية ، هي هذا اللقاء المبدع الكبير ، بين اقصى ما وصلت اليه الفلسفة المثالية ، العدوة الاولى للماركسية ، عن طريق الفينومنولوجيا والوجودية ، وبين الفكر الماركسي كما خلفه وراءه كارل ماركس نفسه ، دون اي تعديل او زيادة اساسية ، قبل حوالي ثلاثة ارباع القرن .

والذين شدههم هذا اللقاء ، ما زالوا يعتبرون ان سارتر قد انتقل من النقيض الى النقيض . وان العقل الذي كتب « الوجود والعدم » خلال الحرب العالمية الثانية ، والعقل الذي كتب « نقد العقل الديالكتي » عام ١٩٦٠ ، لا شك انهما عقلان متنافضان كل التناقض ، ان لم يكن كل منهما يمت الى شخص ، يختلف كليا عن شخص اخر ، يمت اليه العقل الثاني .

ولهؤلاء تساؤلات تؤدي الى رفض التسوية . فكيف يتم المزج بين التجربة الفردية التي انبثقت عنها كل فلسفة سارتر الوجودية ، وبين الفكر الجماعي الذي تصدر عنه الماركسية ؟ كيف نوفق بين ميتافيزيقا العدم ، وبين تجريبية المادة ؟ . كيف تفهم الحرية الوجودية ، من خلال الحتمية الماركسية ؟ وكيف ينتقل سارتر من التزام الرفض الى التزام القبول ؟ وكيف يعود سارتر الى العقل – ولو ديالكتيا – وهو الذي كرس كتابه الاول ، لتهديم أي نوع من التحليل ، الا الوصف المباشر والداخلي للمعاناة ؟

ولكن كيما نضع البحث في حقله الطبيعي ، علينا أن نتساءل اولا : الى اي مدى كان سارتر وجوديا ، وما هو نمط وجوديته . وكيف هو اليوم اضحى ماركسيا ، وما هي خصائص ماركسيته الجديدة ؟

وقد يكون غريبا ان نجيب منذ الان ، بقولنا : ان وجودية سارتر لم تذهب الى الماركسية ، وان ماركسيته الحالية لم تلعب دور النقيض لوجوديته . ولكن الفكر السارتري الجديد اليوم ، هو شيء اخر غير الوجودية ، باطارها الاساسي ، وغير الماركسية في متونها الاساسية ، وحتى في بعض تطوراتها الحديثة .

والحقيقة ان الخلية الاولى ، التي نسجت فيما بعد كل الظاهرة السارترية ، كفكر وموقف حياتي ، كانت تنطلق من هذه المسلمة الاولية : وجود – الانسان – في – العالم .

صحيح ان سارتر ، قد ورث هذه الفكرة عن « هوسرل » في مذهبه الفينومنولوجي ، كما ورثها عن « مارتان هيدجر » ، الا ان سارتر قد جعلها الموضوع الاول والاخير للفهم والتحليل ، والتوجيه الموقفي . لقد كان الكشف الاكبر الذي طلع به « هوسرل » على الفلسفة ، منذ اوائل هذا القرن ، يتلخص في نظرية (الاحالة) L'intentionnalité ويعني بها تحويلا حاسما للمشكلة التقليدية في (نظرية المعرفة) . وهي المشكلة التي تسأل : ايسبق الفكر موضوعه ، ام ان الموضوع يسبق

الفكر ؟ ويتوقف على الجواب ان تعطى الاولوية الوجودية للذات ، او للموضو عاو العالم الخارجي . وعندئذ اما ان يصبح الفيلسوف مثاليا او عقليا ، ان قال بالحالة الاولى (اسبقية الذات او الفكر علىالموضوع او العالم) ، اوواقعيا او ماديا ، ان قال بالحالة الثانية (اسبقية الموضوع او العالم الماديعلىالذات او الفكر) .

لقد أراد « هوسرل » أن يحسم هذه المشكلة ، التي قسمتالفلسفة منذ القديم الى التيار العقلي ،والتيار المادي ، بان اعتبر العلاقة بين الوعي والعالم علاقة احالة او تكامل ، بحيث ان الوعي أن لم يمتلىء بموضوع له ، لا معنىله، وكذلك فان الموضوع في العالم الخارجي ، ان لم ينره الوعي ، فكأنه غير موجود . واطلق « هوسرل » عبارته المشهورة (كل وعي ، انما هو وعي بشيء ما) .

ولكن«هوسرل» بالرغم من تقريره لاولوية هذا المبدأ ، على كل من الذات والموضوع معا ، الا ان نمو فلسفته المنطقية الكثيفة ، جعله بالتدريج يعود الى الموقع المثالي ، المعهود عن الفلسفة الالمانية منذ ايام « كنت » و « فيخته »و « هيجل » .

فهو اراد من هذه الاحالة ، ان تصيب الموضوع في نقائه التام . فالوعي لا يهمه ان يحوز علىالموضوع ، الا في حقيقته . ولكن حقيقته تلك لا توجد في الوعي،بصورة سابقة على التجربة apriori كما يقول الفلاسفة العقليون التقليديون . انما تكمن هذه الحقيقة في عملية الاحالة نفسها ، عندما تستطيع ان تتحرر من المظاهر الخادعة الكاذبة التي تحيط بالموضوع الاصلي ، الذي يدعوه هوسرل بالظاهرة . لان عملية الاحالة نفسها ، عندما تأخذ طريقها نحو حقيقة الظاهرة ، انما تحيل هذه الحقيقة الى ظاهرة ايضا . وليست هذه الظاهرة فيالنهاية phénoméne الا الماهية ، اي الـ nouméne . وللماهيات وجود موضوعي،مستقلعن الذات والموضوع معا. ولعله وجود عقليمحض اعلى من طرفي عملية الاحالة نفسها . ولذلك اعتبر النقاد « هوسرل » فيلسوفا افلاطوني النزعة ، لانه يعود الى فكرة عالم (المثل) او (الماهيات) المعروف في الفلسفة الافلاطونية ، بطريقة حديثة اخرى .

ولكي تتم عملية الاحالة من الظاهرة المشوهة ، الى الماهية الصافية، فان « هوسرل » يقترح اسلوبا للتعرية والتنقية ، يسميه تعليقالظاهرة، L'époché .

ويقصد بالتعليق ، نوعا من الرفض — ولننتبه الى هذه الموضوعة منذ الان — . وهو ان ترفض الاحالة ، الشكل المباشر ، او البنية الوجودية المباشرة للظاهرة. اذ ان هذه البنية الوجودية المباشرة ، انما هي (مواصفات) التصقت بها من الخارج . وعملت علىاخفاء الظاهرة الاساسية ، تحت قشور عديدة ، من المعلومات الشائعة ، والافكار المغلوطة . ولا يهم ان تكون الثقافة نفسها ، وحتى الفلسفة ، قد ساهمت في أخفاء حقائق الظاهرات . ولذلك وجب (تعليق) الظاهرة ، اي رفض اعتبار جوهرها الصورة المعطاة عنها عادة .

ولا بد هنا ان نلاحظ ان « هوسرل » ، لا يقدم ، في الواقع ،طريقة جديدة ،الوصولالىالمعرفة ، او ادراك الماهيات ، تختلف عن التقليد الفلسفي المتوارث ، منذ ان نادى سقراط بضرورة اهمال الحقائق المتداولة ، لانها (ادعاءات) ، عن طريق البدء من هذه النقطة (اعرف نفسك) ، ايحاولانتبدأ انشاء الحقيقة من الصفر .

ولكن اهمية الطريقة الفينومنولوجية ، تنبع في الاصل ، عن ضرورة اعادة هذا الاحتكاك النادر بين الوعي والعالم ، للكشف عن برادة الطرفين معا ، من خلق جميع ادوات التراث ومحصولاته الوثوقية dogmatiques . حتى ان هوسرل نفسه ، قد اعتبر منهجه الجديد هذا ديكارتية حديثة، نسبة الى المنهج التحليلي الذي اتى به ديكارتمن قبل . على اعتبار ، ان الحقيقة ، وبالتالي الفلسفة ، تبدأ اولا من المنهج ، لا من الثوابت التي يصلها اي منهج اخر .

ومع ذلك فان المنهجالذي يكشف — عن — الحقيقة ، لا بد ان يعطي نوعا من الحقيقة ،تماثل نوع منهجه . فالمنهج العقلي الذي يزدرد الاشياء من العالم الخارجي ، ويقضي على « شيئيتها » ، ويحيلها الى مجرد افكار ، انما يعتبر الحقيقة عبارة عن تطابق العقل مع ذاته . واما المنهج الذي يرفض ان يحيل الحقيقة الى مجرد فكرة ، فانه سوفيسعى الى اللحاق بالاشياء في العالم الخارجي ، ليحيا قبالنها كما هو ، وكما هي . ليوجد ، وتوجد .وعند ذلك تتحول الحقيقة الى معاناة .

وذلك لان هناك سبلا متعددة لان نعرف اشياء العالم الخارجي . وان اخصب هذه السبل ، هي ان نوجد بينها ، وبين الاخرين منامثالنا. لا ان نرتد الى انفسنا ، ونجتر تصوراتجوفاء.فان منهج الاحالة ، ليس هو منهج معرفة بالمعنى التقليدي الفلسفي للكلمة . ولكنه منهج وجود . ولعل « هيدجر » هو الذي استطاع في الواقع ان يعمق المضمونالعميق لمنهج الاحالة ، كما اتى به هوسرل .

ان معرفة العقل للعالم ، لا تكون بتوسط المنطق والفكرة . وانما للمعرفة طرق كثيرة . منها ان نحب وان نكره والا نخاف في العالم ، وتلقاء اشياء العالم ، والاخرين ، من اندادنا .

ان العالم .. لاشيء ، وان الذات .. لا شيء ، ايضا ، وذلك قبل عملية الاحالة .انالاحالة تعمل على انبثاق الذات والعالم معا ، في لحظة واحدة ، وضمن عملية وجودية واحدة . هكذا يشرح سارتر الشاب الصغير في الثلاثينات ، وقبيل الحرب العالمية الثانية ، فهمه العميق لمبدأ الاحالة . ولكن « سارتر » لا يقول لنا في مقالة مقتضبة كتبها عام ١٩٣٩ ، ما هي الثروة الرائعة من الفكر والوجود معا ، التي كشفها في منهج الاحالة ،عند هوسرل ، وعند « هيدجر » . ولا يقول لنا عن التحليل الفني الاصيل، الذي سوف يحصل عليه من تطبيق هذا المبدأ ، فيما بعد ، وخلال ثلاث او اربع سنين فقط ، على الصورة الاولى لفهمه للانسان والعالم ،في كتابه الكبير الاول « الوجود والعدم » ،الذي صدر عام ١٩٤٣ ، وتحت ظلام الحرب نفسها .

لقد بدأ سارتر بان حاول ، ان يطبق فكرة الاحالة على بعض الموضوعات السيكولوجية التقليدية ، كالمتخيلة والهيجان . وكانتنظريته في الهيجان خاصة ، أول اشارة للطريق الذي سيسلكه تفكيره ، منذ مطلع الثلاثينات . وحول مسألة الهيجان ، كان للفلسفة بتياريها التقليديين ، العقلي المثالي والواقعي التجريبي ، تصالب نموذجي .

ودون ان ندخل نحن في تفاصيل هاتين النظريتين ، يكفي اننقول ان العقليين ربطوا بين حدوث الهيجان والادراك العقلي للمنبه الباعث على الهيجان ، وجعلوا التغيرات الفيزيولوجية صدى لهذا الادراك . بينما جعل التجريبيون الشعور بالهيجان حادثا ثانويا ، لان الاصل هو هذه التغيرات الفيزيولوجية التي تشمل اجهزة الجسد كلها .

ولكن سارتر ، وانطلاقا من فكرة الوجود — في — العالم ، اعتبر اولا ان الهيجان ، مثل اية حادثة نفسية اخرى ، انما هي نوع من علاقة الانسان بالعالم من حوله . وعندما تخيل هذه العلاقة ،ويعجز الانسان عن استخدام امكانياته للسيطرة عليها ، فانه يرتد الى نوع من السلوك الابتدائي ، الذي يحاول ان يدمر الانسان فيه وعيه ، مستسلما الى نوع من السلوك السحري الذي يرفض مواجهة العالم ، يرفض مواجهة الخطر ، مثلا في حالة هيجان الخوف ، فيصيح او يتجمد في مكانه ، او يغمى عليه . وكل هذه السلوكيات ، انما هي انحدار بالعلاقة الاساسية : الوجود — في — العالم ، الى سلوك الفرار والتغطية الابتدائية ، بما يشبه السحر . ومن خلال نظرية سارتر هذه في الهيجان ، تتضح اسس المنهج الجديد ، الذي سيرتبط به الفكر السارتري عبر مفاصل رحلته الطويلة من الفينومنولوجيا الى الوجودية، والماركسية اخيرا .

ان سارتر ، سوف يظل ينشد هذا الاحتكاك البريء بين الانسان والعالم . وهو في الوقت الذي سيرفض فيه استقلال طرف عن الاخر ، فانه يرفض كذلك تجزئة الذات الى عقل وارادة وانفعال . ومن خلال العلاقة البريئة بين الذات والعالم ، فان كلية اساسية تفرض نفسها على المفكر والاديب .. والانسان العادي .وان كل تحديد خارج هذه

العلاقة ، سيؤدي اما الى تجريد فارغ ، او الى مادية عمياء .

لقد حاول الفينومنولوجيون ، ان ينطلقوا من (علم النفس) اولا ، ليحولوه من علم وصفي آلي ، الى علم (ماهوي) ، اي يبحث عن الماهيات باعتبارها هي الظاهرات الحقيقية ، بعد تعليقها وتعريتها من الاوهـــام الخارجية . وان سارتر فيما بعد ، سوف يرسي تقليد اختيار المعنى ، من كل تحليل ، يبدأ من احد حالات : الوجود ـ في ـ العالم ، ويظـل داخلها ليكتشف في النهاية معناها .

ولكن سارتر لم يتابع طريقه هذه في ميدان الارجاع الماهوي ـ كما يصطلح عليه الفينومنولوجيون ـ ضمن الظاهرات النفسية . وترك هذا لصديقه الكبير « ميرلو بونتي » ، الذي انطلق في كتاب فاصل ، هــو « فينومنولوجيا الادراك » ليحلل لنا مختلف العمليات النفسية علـى اساس اكتشاف معناها بالنسبة لموقع الانساني الاولي ، من تلك العلاقة : الوجود ـ في ـ العالم .

بينما كان سارتر يعد نفسه ، :من اجل تجاوز المستوى السيكولوجي فكتب فينومنولوجيا انطولوجية ، دعاها « الوجود والعدم » .

فكتب فينمنولوجيا انطولوجية ، دعاها « الوجود والعدم » .

لقد كان كتابه ذاك ، فاتحة عصر ثقافي كامل في اوروبا الغربيـة . لقد كتب سارتر في هذا المؤلف ، كل اصل لما سينتشر فيما بعد . فـي الاداب والفنون والسياسة والفكر . وما زالت فرنسا تعيش حتى اليوم ضمن المرحلة السارترية ، او الموجة السارترية . حتى الذين يرفضون هذا الانتماء للسارترية ، فانما يفعلون ذلك من داخل تطوراتها ذاتها .

ومع ذلك فان هذا الكتاب ، لا يعتبره بعض الفلاسفة انه عمل فكري كبير . خاصة وان مختلف موضوعاته الاساسية ، انما هي موضوعات او تطويرات عن موضوعات معروفة في الهيكل الاصلي لفلسفة « مارتان هيدجر » ، المعروضة خاصة في كتابه الكبير « الوجود والزمان » .

ولكن قيمة « الوجود والعدم » ، تأتي من كون هذا الكتاب نوع من اعادة صياغة الهيدجرية ، فيما يشبه الكشف الجديد . لقد اكتشـف سارتر الهيدجرية ، ومن خلال اكتشافه هذا ، ادخلها في بنية الحيـاة الفكرية ، المضطربة ، خلال نهاية الحرب العالمية ، وما بعدها .

لقد التقى الفكر السارتري بالفكر الهيدجري ، خاصة في مرحلـة كتاب « الوجود والزمان » ، عند هذا الاهتمام الاصيل بالعلاقة البدئية : الوجود ـ في ـ العالم .

وكما ابتدأ «هيدجر » بان اعلن ان كل الميتافيزيقا السابقة ، حتى ايام اليونان ، رجوعا الى الوراء ، انما هي ميتافيزيقا تشتغل علـى مصطلحات والفاظ ، اضاعت كل احتكاك حقيقي بالكينونة (l'être) كذلك فان سارتر ، سوف يخصص هذا الحكم ، ويقوم بعملية دحــض شاملة للفلسفات التقليدية ، على اعتبار ان هذه الفلسفات كان همهـا تناسي الوجود العقلي .

وكذلك ، مثلما اوضح « هيدجر » انه للكشف عن الكينونة ، لا بد من تحليل ظاهرة الوجود ، الموجود مباشرة ، وهو الانسان ، فان سارتر سارع الى نتيجة حاسمة ، ربما لا يرضى عنها هيدجر ، وهــي ان الكينونة لا يمكن ان تكون وجودا اعلى . ولكن هيدجر ، الذي جســم مثل هذه المشكلة من قبل،عندما اعتبر ان كل وجود ، انما هو وجــود في العالم ، ولا شيء ـ بالطبع ـ خارج العالم ، لم يعط للانسان اكثر من قيمة الواسطة ، او الحارس للكينونة ـ كما اوضح ذلك في محاضرة متاخرة بالنسبة لتاريخ صدور كتابه الاول الاساسي .

ثم تتضح اللقاءات والتطورات اكثر ، عندما يشرع كل من الفيلسوفين في تحليل العلاقة : الوجود ـ في ـ العالم ، والكشف عن بنياتهــا الوجودية المختلفة . ان هيدجر ، يبني منهجه كله على السؤال . ويقيم للسؤال فلسفة خاصة ، تكاد تكون فريدة .وكذلك يفعل سارتر .ولكـن بينما يستخدم هيدجر منهج السؤال ، دون ان يفصل البحث في بنيته الوجودية ، عن بنية الموضوعات التي يوجهه الى الاستفهام عنها ، فـان سارتر ، يحاول ان يكتشف في الاستفهام ذاته عن اهم كشف فـي الوجود ، الهيدجرية والسارترية ، كلاهما ، وهو : مشكلة العدم .

وخلال بحث غني مبتكر ، يحاول سارتر ، في مدخل كتابه «الوجود والعدم» ، ان يحلل الاستفهام ، على انه يقوم على مشكلة الوجود والعدم، وليس على المعرفة والجهل .

ان الانسان الذي يسأل ، انما هو في حالة من التوجه الى الوجود، وانتظار الجواب . فالانسان اذن عندما يسأل ، يكون في حال من عـدم التحديد ، وان وجوده في تلك اللحظة انما هو معنى الانتظار اي نوع من اللاوجود . وكذلك فان الوجود الذي يتوجه اليه السائل ، لو كــان محددا ، لما كان بحاجة الى الاستفهام. فهو اذن لامحدود ، او لاموجود . وبذلك ينبثق السؤال من خلال حال من العدم . واذا ما اتى الجواب ، فانه سوف يعدم تلك الحال ايضا ، من اجل تحديد موقت ، لا يلبث هو نفسه ان يؤدي الى دوار جديد في العدم (1) .

ان سارتر ، من خلال هذا التحليل ، يسعى الى نقض مختلـف النظريات المنطقية السابقة عن طبيعة العدم . فهو يحاول ان يحـرره اولا من النفي المنطقي ، الذي ينصب علي نفي علاقة بين موضوع ومحمول، ليثبت علاقة اخرى بينهما ، وبذلك يكون العدم ينصب على احكام، فهو من طبيعة مجرده ومنطقية ، وهو موقت ، لان الاصل في المنطق الايجاب.

ان حالة النفي المنطقية ، تقابلها وجوديا ، حالة الفقدان ، وعـدم الاكتفاء ، والانتظار ، والخوف من اللاشيء ..

والعدم في الوجودية فعالية . وان كان ذلك تناقضا في حد ذاته. ولكن العدم علاقة اساسية تدخل في بنية الوجود ـ في ـ العالـم ، وذلك لان هذه البنية ، ليستنوعا من الاستقرار . ان هيدجر يسمـي حالة الاستقرار هذه بالـ (هم) (le on) . وان سارتر يدعوهـــا بالوجود ـ في ـ ذاته . وكلا الفيلسوفين يعتبران هذه الصيغة ، بمثابة العدو الحقيقي للوجود الصحيح .

ان الهم عند هيدجر هي نفي الوجود والعدم معا ، لانها تحيــل الانسان الى اداة من بين الادوات الاخرى للاستعمال . وكذلك اعتبرها سارتر (تشييئا) للانسان ، اي تحويله الى اشياء .

فموضوعة العدم ، كوجود ،اساسية لدى فكر الفيلسوفين . ومن خلالها يبني كل التحليل الذي يتعلق بفكرة الزمانية ، والامكانية ،ومعنى الحرية ، والكشف عن الوجود المشروع .

لقد قسم هيدجر الوجود الانساني الى بنيتين : احداهما بنيـة الوجود المشروع ، والاخرى بنية الوجود غير المشروع .

الاولى ، وهي التي يدخلها العدم كعامل مؤسس لكيانها ذاته،باعتبار ان الانسان يمكن وصفه بانه موجود ـ ليس ـ بعد . وذلك لان وجــود الانسان ليس مكانيا ، اي شيئا بين الاشياء . ولكنه زماني .. لانه ممتد بين لحظات الزمان الثلاث : الماضي ، الحاضر ، المستقبل .

الماضي ، هو ما كانه الانسان بالنسبة لامكانية تحققت وانقضت . والحاضر ، هو تحرر من امكانية تحولت الى وجود محدود في الماضي ، واختيار لامكانية جديدة ، لم توجد بعد . والمستقبل هو خط الافـق ، بالنسبة لعملية تحقيق الامكانية التي اختارها الان ، وابدأ في تنفيذها .

وما دام الانسان منخرطا في هذه اللحظات الثلاث ، في عملياتهــا الثلاث ، فهو كائن معلق وجوده دائما ، بصورة ، لا يمكن الانتهاء منهــا الى استقرار ، الا عندما يقبل الانسان بالتنازل عن حريته ، ويتحول الى شيء بين الاشياء ، لا زمان له ولا شخصية .

وكلا الفيلسوفين ، وضمن مصطلحات مختلفة ذات مضامين فكرية واحدة ، قد صورا الحالة المشروعة للوجود ـ في ـ العالم ، والحالة اللامشروعة . الاولى هي قذف للذات في بحران الامكانيات المتناقضة ، وفي ازمات الاختيار ، وعدو مستمر وراء ظل لن يتحقق ابدا . وفيهـا تنبثق كل الايقاعات التي شاعت عن الوجودية فيما بعد كالهم والقلــق والضياع . ولكن مع الفارق ، وهي انها ايقاعات في منتهى الايجابيــة

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

---

(1) انظر كتاب « فلسفة القلق » للكاتب ، فصل « مشكلة العدم » .

سارتر او ثمن الكلمات !

بقلم كلود روي

كانت له طريقة خاصة في ملء قدحه بالخمر ، وفي شد حزامه ، وفي ان يقول : « ونحن، الفروج المساكين ... » (١) : كان الجميع في الفرقة يعرفون ان الجندي جان بول سارتر انما كان اميرا ، مجندا باسم مستعار في « الفرقة » . ولكنهم كانوا يحترمون تنكره ، فكانوا يدعونه في سلام ، ويتركونه دائما في الصف الاخير عند المناداة على الاسماء او الدعوة للاستعراض ، وكان هو دائما اول من يأخذ النوبة لدى تغيب رفيق واول من يعطي اناءه لجاره . ولكن حدث يوما ان ارادوا اخراجه من الصفوف ، وان ينصبوه،هكذا بلا تمهيد ، مارشالا ، مع وسام ضخم ورانب من يحمل خمسة نجوم، وسرد لجميع سنوات الخدمة واستعراض عسكري عند « قوس النصر » لمنحه قبعته . وليتكم رأيتم كيف افرنقع ، شبيها بحمار وحشي ، ولم يقف الا لحظة قصيرة ريثما يقول لهم بكل لطف انه لم يكن يريد انيكون مارشالا ، لا في الادب ولا في اي شيء اخر ، وانما يريد انيكون مجرد انسان « انسان مصنوع من جميع الناس ، وهو يسواهم جميعا ، ويسواه اي واحد منهم » (٢) .

ومهما كان رفض سارتر لجائزة نوبل مدعوما باسباب معقولة ولطف في الاعتذار هو غاية الرقة ، فان هذا الرفض يذكرنا ببدهية اساسية : ان ثمن الكلمة لدى كاتب ، حتى ولو كان يكسب حياته من قلمه، لا يمكن قط ان يحسب بكورونات نوبل ، او فرنكات غونكور ، او دولارات بوليتزر، او روبلات لنين . ان قيمة الكاتب الحقيقية هي التي يمكن اعطاؤه اياها حين نكون بعد في الوحل ، وحين يساعدنا بالكلمات ــ وهي كل ما يستطيع ان يعطي ــ على الخروج منه . ان هناك دائما لحظة يتساءل فيها مالرو ، في قاعات « متحفه » الخيالي ، اية لوحة تستطيع ان تصمد في جبهة قتال ، ويقرر فيها سارتر ان « الغثيان لا وزن له تجاه طفل يموت » . ان الجائزة الادبية الوحيدة التي اجدها غير قابلة حقا للنقاش هي التي اكتشفها صديق منفي ، على غير علم منه ، مع احد رفاقه ، صباح كل يوم في « بوشانوالد » : لقد كان الرجلان ينشدان الشعر في البرد . وكان في تلك القصائد ما يحفظانه عن ظهر قلب ، ولكنها كانت تبدو لهما مضحكة ، فيدعانها تسقط . وكانت ثمة قصائد تصمد . وذلك هو ثمن الكلمات .

واذن ! فقد كان سارتر على حق في الا يقبل جائزة نوبل ، ومع ذلك فقد كان سادة الاكاديمية السويدية على حق كذلك في ان يريدوا منحه اياها . لان جائزة نوبل الوحيدة التي تحمل قيمة ، تلك التي يمنحها انسان يعاني صعوبة كونه انسانا الى من ينقذه من ضيق او قلق ، او من اغراء جبن ، او من وسادة بذخ ــ ان هذه الجائزة قد منحت الى سارتر ملايين المرات من قبل الوف البشر في العالم .

وصحيح ان ما يصنع اكبر قدر من الخير ، ليس هو الكلمات الطيبة . وليس سارتر اخصائي الكلمة الطيبة ، ولا نموذج الكاتب الذي يضع يده على كتفك وهو يقول في شغف : « ان الامور ستسوى ، يا عزيزي » وليس هو كذلك من يريك ان السماء زرقاء ، وان الشمس تسطع ، وليس هو واحدا من اولئك النافخين في البوق الذي لا ينتهون من النفخ في بوقهم لاعلان ساعة « اليقظة » او ساعة « الاشمئزاز » . فان النص الاول الذي نشره سارتر،وهو في الثامنة عشرة ، في « المجلة التي لا عنوان لها » والتي اسسها مع « نيزان » في الصف الاعلى الثانوي ، بعنوان « ملاك المريض » يروي لنا قصة كاتب شديد التفاؤل وشديد الخوف من ان يصاب بالعدوى في غرامياته مع امرأة مسلولة ، الى حد ان « يتزوج امرأة الزراسية ، شقراء ، متوردة ، بليدة ومكتملة الصحة . وقد كف عن الكتابة ، ومنح وهو في الخامسة والخمسين وسام جوقة الشرف الذي هو شهادة للبورجوازية غير مشكوك فيها » . وهكذا نرى ان سارتر يهرب ، وهو ما زال في الثامنة عشرة ، من السعادة ومن الوان التكريم . وفي السادسة والعشرين ، بعد ان كتب رواية بعنوان « هزيمة » لم يجد لها ناشرا ، نشر مقاله الثاني في « بيفور » ، وهو مقطع من كتاب رفضه الجميع واضاعه سارتر وهو بعنوان « خرافة الحقيقة » .

ولم يجد الكاتب في هذا الكتاب اسلوبه ، فاخذ اسلوب « الان » ولكنه كان يمتلك منذ ذلك الحين نواة جميع افكاره وهذا الغضب المليء بالطيبة الذي يزهد الناس بان يصدقوا بسرعة وان يؤملوا ببلادة . وهذه الاوراق الست عشرة شبيهة بعرض لنظرية سوف يعمقها سارتر طوال اربعة وثلاثين عاما . ويجد القارىء فيها اصل بسيكولوجيته عن المتخيل (« ان لافكار الانسان فعلا سحريا .. ») واصل مفهومه للطبيعة (« ان الطبيعة لا تقول نعم ولا تقول لا ») وللاطبيعة الانسان وحريته : (« انني حر في ان افكر بما اريد ») وللالحاده (« ان الخلود مفروغ منه ، ما دام خجل الانسان يمنعه من ان يرى بوضوح : فهو يعتقد انه يكتشف فقط ما يخترعه اختراعا ») . وكذلك نجد فيه ، عبر كلمات قليلة ، بدء فلسفة تنص على ان الوجود يسبق الجوهر : (« ان الحقيقة لا تولد اولا ») وبدء النزعة الماركسية (« ان الحقيقة تنطلق من التجارة : وقد رافقت الى السوق الحاجات الاولى المنوعة ») وعلم الكائنات السارتري (« ها هم اولاء البشر المجردون ، وحيدين مع اجسامهم ، ومحتقرين اجسامهم ») وسياسته الديموقراطية (« ان كل انسان يستطيع ان يحل محل انسان اخر ») وحتى الكفاح ضد الاستعمار : « تقولون ان الافريقيين يعانون من الاستعمار ؟ ولكن عجبا ، لو كان هذا صحيحا لتكلموا ، ولثاروا . والواقع ان بوسعكم ان تروهم في كل لحظة جادين هادئين . انهم اشد عقوقا من ان يتبادلوا علنا التهاني بحمايتنا ، ولكنهم لا يقولون شيئا ، مما يجعل الامرين سواء »

في عام ١٩٢٣ رفض سارتر وسام « جوقة الشرف » ، وفي عام ١٩٣١ رفض الخلود والقيم الخالدة ، ورفض ان يرى الحياة بلون زاهر ، وان يرى الانسان هادئا وان يقبل بشرا يضطهدهم البشر . ولم يكن لينرفا الصبية الديموقراطية القابلة للموت والتي كانت تخرج كاملة السلاح من ذلك الرأس غير الجميل ، ولكن المصنوع باتقان ــ لم يكن لها مما تعد به اشباهها الا ما كان تشرشل يعد به الانكليز عام ٤٠ : « من العرق والدم والدموع » .

لقد عاد كبير ابنائي من الليسيه وهو يقول :

ــ هل تعلم اننا قررنا ان سارتر هو اجدر الناس بالاعجاب ؟

كان سارتر يطلب اولا الا يؤمن الناس ببابا نويل . فهو ليس اذن

---

(١) « كان اليسار قد دخل هذا الاحتضار الذي لا يلتوي ، وكنا نحن الفروج المساكين نجده في صحة جيدة . » (اوضاع ، الجزء الرابع) .

(٢) العبارة الاخيرة في سيرته الذاتية : « الكلمات » .

بابا نويل ، ولكنه من يضيع البشر فيه اعظم ثقتهم ، انه سقراطنا الـذي لا يقطع السم كلامه ، لانه رضعه من ثدي امه « الطبيعة » ، فاصبح منذ ذلك الحين معتادا على السم ، وعود الناس عليه . وسعداء هم الشبان الذين سيشربون في الصباح هذه القهوة السوداء المرة ، القوية ، التي تبث الشجاعة والجرأة : « الجدار » ، « الغثيان » ، « الوجود والعدم » ، « جلسة سرية » ، « القديس جينيه » ، « الكلمات » .

لقد انقضى ربع قرن وآباء الحقائق الموضوعة ، المحترمون الهادئون يتهمون سارتر ، في غير هوادة ، بانه مسمم : يتهمه اليسوعيون بانـه ملحد ، واتباع « كانابا » بانه جرذ دبق ، وامثال سيسيل سان ـ لوران بانه جاد ، وحواريو جاك هودار بانه متناقض ، ويتهمه اليسار بانـه يميني ، واليمينيون بانه يساري . انه دائما في موقف خطر لان له ذهنا مستقيما . والواقع ان سارتر قد عاش وضع الحي كما صوره : وضع كائن بلا قيمة لا يستطيع ان يعيش بلا قيم ، وضع مهزلة يجب ان تمثل تمثيلا جيدا جدا الى حدان تبلغ اخيرا الصدق والاخلاص ، وضع عاطفة مهووسة (ولكن غير مجدية) تتطلب المطلق (ولكنها تعرفه نسبيا) .ولقد وسع بعبقريته فنومنولوجية عالم قليل الاغراء بالالزام ، مضيفا الـى ذلك بان على المرء ان يلتزم ، وانتهى الى القول بان الامر سواء ،فلسفيا، « ان يسكر المرء متوحدا او ان يقود الشعوب » ، وارتمى في الوقـت نفسه في المعركة من اجل الشعوب ، وشرح في دقة ضارية لماذا « الحب في جوهره خدعة ورد الى اللانهاية » ولكن من اجله هو ، استطاعـت أمرأة ان تكتب اجمل كلمات الحب العصرية : « كنت اعرف ان ايةمصيبة لن تأتيني ابدا منه ، الا ان يموت قبلي » .

ولم يكف عن ان يشرح لنا اننا كنا معتقلين متشبثين بالمستحيل ، وانه لم يكن ثمة مخرج نختاره ، وانه ينبغي اذن ان نخترع مخرجا اخر . وحين كان يوكد نفسه ماركسيا ولكنه كان يهدم بلا هوادةنظرية«الانعكاس» وحين كان يقول ويثبت للشيوعيين انه كان معهم ، ولكنه يمتنع عنالترديد معهم بانه لم يكن في الاتحاد السوفياتي معسكرات اعتقال ، وحينيقول ، فيما هو يمضي في تأليف كتب في عالم متسمم بان « الادب ، كالاخلاق ، في حاجة الى انيكون عالميا » ، فانه لا يدلل بان فكره فكر متناقض ،لان كل اثاره كفيلسوف وكاتب تقوم على بدهية : تناقض الفكر الذي هـو ما ليس هو ، وليس هو ما هو .

وسارتر الذي يملك ذكاء صابرا ونكتة حية ، هو دائما اول مـن يضحك حين اذكره بالتناقضات الظاهرة في علاقاتنا الشخصية : حـين اسمعه ، عام ١٩٤٣ ، في اثناء احدى المناقشات ، ينصح بعدم مزج ادب النضال بالصراع المسلح ، وينصح الكتاب المقاومين بالا يعتبروا انفسهم « جنودا صفارا » بحجة انهم يكتبون « مقالات ملتزمة » ثم يقترح علينا يوم ٢٠ اب ١٩٤٤ ،بان نجند في ثورة باريس « ميليشيا وطنية مـن الكتاب » (وقد أعترضت بان كل كاتب يود ان يكون في هذه الميليشيا كولونيلا على الاقل) .وحين صاح بي ، ليل ٨ اب ١٩٥٦ ، بعد عشـاء تناولناه في «دلف» وناقشنا طوال السهرة قضية استحالة ان يكـون احدنا شيوعيا واستحالة الا يكون شيوعيا ، صاح بي من تحت شجـر الزيتون : « حاول خصوصا الا تجعلهم يطردوننا ! » وحين تلفن لي صباح ٥ تشرين الثاني التالي ليطلعني على البيان بشأن تدخل الروس فـي المجر ويطلب مني ان اوقع البيان ، فوقعته ، ثم صرح بعد ثلاثة ايام انه لن يجلس بعد اليوم ابدا ، طيلة حياته ، على طاولة واحدة مـع كـاتب سوفياتي ، ثم اجده بعد عامين مع اهرنبورغ ، ثم يدعوني منذ بضعـة اشهر الى قضاء السهرة معافتوشنكو وفوزنسنسكي .

لا شك في ان التناقض هو غالبا حركة الحقيقة الاكثر فعالية الى الحقيقة ، وان الحبل الصلب هو غالبا الدرب الوحيد الذي يسمـح بالانتقال من هوة الى هوة . وينبغي الا نعترف فقط بان سارتر قـد اضطلع في شجاعة بتناقض جنسنا وتناقض زمننا ، بل اود كذلـك ان امدحه مدحا سلبيا ، ولكنه صادق : فهو واحد من اندر الرجال الذين لم ارهم قط يقولون او يكتبون حماقات او خبائث الا بدافع من غضب. وليس قط بحساب وتدبير . وهو حين يظن أن ما يحبه قد اهين ، سـواء كان فكرة ام كائنا ام مبدأ ، فهو جدير بان يعمد الى الطعن بالخنجر ، وان يصبح متوحشا حقيقيا . اما حين يريد ان يكون خبيثا ، محتالا ، سياسيا كبيرا ، فانما يكون كذلك دائما بدافع من سخاء ، وباكبر قـدر من الخرق والارتباك : قارنوا مثلا السطور الخمسة عشر التي رثى بها موريس توريز ، والصفحات الخمس عشرة التي كتبها عن موت تولياتي . انه لصحيح ما قاله في واحدة من الصيغ المسطحة النادرة ، المسطحة كما تكون البديهيات : « ان وظيفة الكاتب هي ان يسمي القطة قطة » .

لقد احببت أن تكون جائزة نوبل هذه المرفوضة ، والتـي كانـوا سيؤاخذونه لو قبلها ، والتي يؤاخذونه كذلك لانه رفضها ، قد وضعت سارتر مرة اخرى في موقف الخطر . واني احب روح النكتة السارترية التي تهمس في اذان منفذي وصية مخترع الديناميت بفكرةمكافأة الكاتب العالمي الوحيد الذي يمنع الناس من اليأس من الاشتراكية ، فيما هـو يتهم ، وفق عبارته الشهيرة « بانه يثبط بيلانكور » . لم يكن ثمة مخرج لسارتر : فاخترع مخرجا.

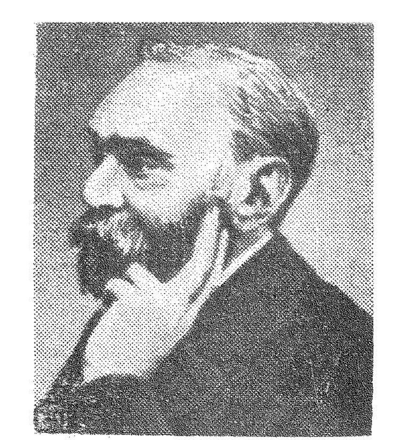
لقد كتب في اخر « الكلمات » : « اننا جميعا متشابهون فيمهنتنا: كلنا محكومون بالاشغال الشاقة ، وكلنا موشومون » . وقد علمنا ايضا اننا كلنا متشابهون في مهنتنا كبشر ، واننا لسنا وحيدين في كون كلمنا وحيدا ، وان علينا انتكون من اجل جميع الاخرين . ويقول سارتر انـه اختار دائما ان ينسب لنفسه الخطأ ، وهو يصف نفسه بانه ابن زنى ، وانه خائن ، وانه جرذ دبق . « لانني لم احب نفسي بما فيه الكفاية ، فررت الى امام ، وكانت النتيجة انني ازددت كرها لنفسي » . هـذا ممكن . ولكن النتيجة هي اني اعتقد ان ثمة كثيرين من الشبان ، علـى غرار ابني ، يعتقدونان سارتر « هو اجدر الناس بالاعجاب » . وهو في نظرنا نحن اندر الرجال العظماء ، وهو بلا شك اعظم العظماء : وليس هو معلما ، ولا ساحرا ،ولا صديقا ، ولا رفيقا ، وانما هو بين الكتـاب الاحياء ذلك الذينود لو نستطيع ان نعيد اختراع الكلمة الاكثر ازعاجا في اللغة الفرنسية ، وان نقول : انه اخ .

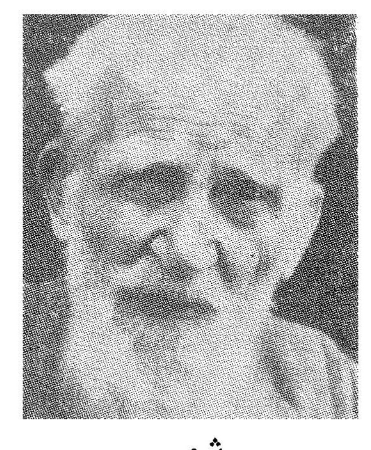
كلود روي

ترجمة « الاداب »

جائزة نوبل بين سارتر وشو

بقلم رجاء النقاش


نوبل


شو

تمثل جائزة نوبل نموذجا للضمير في اطار الرأسمالية الاوروبية . انها صورة مثالية لاقصى درجات الخير في المجتمع الرأسمالي ، وهي في اساسها احتجاج من جانب احد كبار الرأسماليين ، وهو الفرد نوبل ، على الرأسمالية نفسها . لقد جمع نوبل ثروته من اختراع الديناميت والاتجار فيه ، وفي اواخر حياته ادرك - بطبيعته النفسية الراقية - ان وظيفة « المال » في المجتمعات الرأسمالية ليست وظيفة انسانية مثالية ، انها لا تقدم خيرا للناس ، ولا تضمن اي نوع من انواع الجمال على هذه الارض، ومن هنا قرر قبل ان يموت ان يجعل من ثروته قوة نافعة للانسان . وهو في موقفه هذا يذكرنا بشخصية « روبرت اوين » الاشتراكي الانجليزي المعروف . فلقد كان اوين رأسماليا كبيرا ، ولكنه اكتشف بعقله ووجدانه النبيل ان ثروته - في نطاق المجتمع الرأسمالي - لا تخدم الانسان بل على العكس تستغله اسوأ استغلال ، ولذلك قرر ان يقف الى جانب العمال ويحقق بعض المصالح الاولية مما يمكن ان نسميه باسم « الاشتراكية الاصلاحية المثالية » اذا صح مثل هذا التعبير في نطاق العلوم السياسية . واوين لم يضع حلا جذريا لمشاكل العمال ، انه بالاحرى قد وضع حلا لمشكلته النفسية الخاصة ، فقد كان واقعا تحت ثقل ضميره ، واحساسه الصادق بمشاكل العمال ، فتخلص من ازمة ضميره باجراءاته الاشتراكية التي كانت عملا من الاعمال العظيمة في وقتها - اوائل القرن التاسع عشر - ... ولكن اوين باشتراكيته المثالية الهادئة الوديعة ظل بعيدا عن ان يلمس الجرح الكبير في النظام الرأسمالي .

ويذكرنا موقف نوبل ايضا بموقف تولستوي ، الفنان الروسي العظيم . لقد تنازل تولستوي عن املاكه ايضا في ازمة روحية ضخمة عذبت وجدان هذا الفنان الكبير . ولقد ادرك في مجتمعه الروسي الاقطاعي أن ثروته ليست في خدمة الانسان ، بل هي العكس سبب من اسباب العذاب الذي يعانيه الانسان . ولانه فنان كبير ، ولانه قادر على ادراك آلام الاخرين ، ولانه مفتوح الوجدان على العالم الخارجي اقدم تولستوي على تنازله عن ثروته ... واذا كان تولستوي قد سجل بهذا الموقف يقظة ضمير عظيم فهو في الوقت نفسه لم يستطع ان يضع حلا للمشكلة الاساسية في المجتمع الاقطاعي ، وهي مشكلة بؤس الفلاحين . ان المسألة لا يمكن ان تحل عن طريق التبرع حتى لو كان حجم هذا التبرع بحجم اراضي الكونت تولستوي الواسعة الشاسعة .

وجاء نوبل في اواخر القرن الماضي ليسجل موقفا من هذه المواقف التي تدل على ان وراءها ضميرا عظيما دون ان تحل المشكلة الاساسية التي انزعج نوبل نفسه بسبب بعض مظاهرها ، هذه المشكلة هي ما في هذا العالم من بؤس كبير يعانيه الانسان . وكما كان الامر مع اوين وتولستوي كان موقف نوبل ايضا حلا لازمة ضميره الخاص اكثر منه حلا لالوان البؤس التي يعانيها العالم . ان هذا الموقف لم يخرج عن الدائرة الحديدية للرأسمالية الاوروبية . صحيح انه يمثل هذه الرأسمالية عندما تعتريها لحظات معينة قليلة ينتفض فيها ضميرها ويهتز ... الا انه ابدا لا يمثل انكارا للرأسمالية او دعوة الى تغييرها تغييرا جذريا . وقد يقول قائل وكيف كان يمكن لنوبل ان يجعل من جائزته رفضا واحتجاجا على الرأسمالية الاوروبية ؟ ... وهناك - فيما اعتقد اجابة بسيطة على هذا السؤال ، فلو ان نوبل قرر منح قسم من جائزته للنابغين في قيادة حركات التحرر العمالية او للنابغين في قيادة حركات التحرر بالنسبة للطبقات الفقيرة في مجتمعات العالم . ربما لو فعل هذا لاعطى لجائزته لمسة اشتراكية . ولكان موقفه دليلا على ايمانه بان استقلال الشعوب الخاضعة للاستعمار هو خطوة هامة نحو السلام ، وان تحرر الطبقات الخاضعة للظلم الاجتماعي خطوة اخرى هامة في سبيل سعادة البشر .

ولكن نوبل لم يطلب شيئا من هذا في وصيته . وبالطبع كان من الصعب ان يطلب هذا في اواخر القرن الماضي ، حيث كانت الفكرة الاشتراكية نفسها ما تزال في كفاح عنيف من اجل بعض المكاسب الاولية، وحيث كان نوبل نفسه يعيش في طقس رأسمالي عريق في الفكر والعمل والنظام الاجتماعي .

على ان موقف نوبل وطريقته في التفكير ونوع الازمة التي مر بها ، كل هذا قد اثر في شخصية جائزة نوبل حتى اليوم تأثيرا كبيرا واساسيا . وهذا ما يفسر لنا كثيرا من المواقف الغريبة التي التزمت بها جائزة نوبل .

فجائزة نوبل لا يمكن - بطبيعتها التي حددها صاحب الجائزة منذ البداية - ان تكون متعاطفة مع الاشتراكيين في اي ميدان من الميادين. وعلينا ان نتذكر هنا ان الجائزة تصرف حتى اليوم من ارباح ثروة الفرد نوبل ، وهذه الثروة تجني ارباحها من استثمارها في شركات تامين رأسمالية مائة في المائة ، اي ان جائزة نوبل بكل اقسامها الخمس هي نفسها ثمرة من ثمرات العمل بالاسلوب الرأسمالي . والعمل بالاسلوب الرأسمالي هو اختيار كامل من جانب صاحب الثروة - الفرد نوبل - نفسه . ولم يخطر على بال نوبل اطلاقا شك في هذا الاسلوب من اساليب الاستثمار المالي. لقد كان مطمئنا لهذا الاسلوب كل الاطمئنان. ومن البديهي بعد ذلك ان جائزة نوبل لا يمكن ان تخرج عن طريقة استثمار رأسمالية ، ثم تدخل في الوقت نفسه في حرب صريحة مع الفكر الرأسمالي والمجتمع الرأسمالي . انها في حقيقتها مثل التبرعات التي يدفعها اي رأسمالي كبير لتشجيع النابغين وما الى ذلك ، مثل هذه التبرعات هي في ذاتها خير وفضيلة ، ولكنها لا يمكن ان تهدف بحال من الاحوال الى تقويض الاساس الذي يقف عليه دافع هذا التبرع . على العكس ... أن التبرع يصبح - بقصد او بغير قصد - نوعا من الدعاية لصاحب رأس المال ، ونوعا من اضفاء غلالة انسانية على وجهه الحقيقي . اي ان هذا التبرع في النهاية ينبغي ان يفيد ولو في المدى البعيد الجهة التي يصدر عنها . وهذا هو الامر في جائزة نوبل ... انها ثمرة استثمار رأسمالي ، فلا يمكن ان تكون ضد الاستثمار الرأسمالي.

وفي نص وصية نوبل امر اخر يفرض على الجائزة طبيعة خاصة .

ان الفرد نوبل يستمد ـ في وصيته ـ تصورا خاصا للعبقرية الانسانية. وهذا التصور في مظهره العام تصور انساني ليس مرتبطا بمذهب او اتجاه ، وهو تصور يوافق عليه الرأسماليون والاشتراكيون على السواء ، ولكنه من وجهة نظر الاشتراكيين يعتبر تصورا ناقصا الى حد بعيد . ولنعد الى نص الوصية حيث يقول نوبل (ص ١٢٢ من كتاب الفرد نوبل ترجمة بهجت عبد الفتاح) :

« انا الموقع ادناه الفرد نوبل اعلن بعد تفكير ناضج مكتمل وصيتي الاخيرة فيما يتعلق بالممتلكات التي يمكن ان اتركها بعد موتي : ان كل ما يتبقى لي سوف يعالج على النحو التالي ، اما رأس المال فسوف يستمر على يد الذين اوصيتهم بالتنفيذ في شركات التأمين وسوف يتم تشكيل صندوق توزع ارباحه سنويا على شكل جوائز للذين قدموا ـ في العام الاسبق ـ خدمة للانسانية ، وهذه الارباح تقسم الى خمسة اجزاء متساوية تقسم على النحو التالي : احدها للشخص الذي يكون قد خرج باختراع هام او اكتشاف في ميدان الطبيعيات ، وجزء للشخص الذي يخرج باهم اكتشاف في الكيمياء او تطور في هذا الميدان، والثالث لمن يكون قد قام باكتشاف في مجال الفسيولوجيا او الطب ، والرابع للشخص الذي ينتج في ميدان الادب ابرز عمل ذي اتجاه مثالي، والجزء الخامس لمن يكون قد قدم اكبر الاعمال والخدمات لتحقيق الود والصداقة بين الدول من اجل تخفيض الجيوش او ازالتها ومن اجل العمل على اشاعة السلام ونصرته . واني لآمل الا يوضع اي اعتبار ـ عند تقديم الجوائز ـ لجنسية المرشحين لها » واذا دققنا النظر في هذه الوصية وجدنا انها تتصور العبقرية تصورا محدودا بالمجتمع الاوروبي الصناعي المتقدم ، فالابداع الاساسي في نظر صاحب الوصية هو الابداع العلمي وما يتصل به من اكتشافات واختراعات . ولكن صاحب الوصية لم يضع في اعتباره ان ثلاثة ارباع العالم كانت في اواخر القرن الماضي ـ عندما صدرت الوصية ـ تشكو من التأخر والاستعمار ، وان مقاومة التأخر والاستعمار تحتاج الى قيادات تمتاز بالنبوغ والعبقرية ، وربما لا يستطيع شعب انهكه الاستعمار الانجليزي مثل الشعب الهندي ان يقدم اختراعات جديدة في ميدان العلم ، لان حياته العلمية ولا شك هي حياة متخلفة نتيجة لجهود الانجليز في قتل الوعي العلمي عند الهنود . ولكن هل معنى ذلك ان ميدان العبقرية الانسانية في الهند قد الغي تماما ما دامت الهند متخلفة في العلوم ؟ ... ان العلوم نفسها هي وسيلة من الوسائل الهامة التي يستعين بها الانسان في السيطرة على الطبيعة وفي التخلص من مشاكله ، والعلوم من هذه الناحية تلتقي مع اي جهد انساني اخر في سبيل ازالة العقبات المختلفة القائمة امام الانسان . ولذلك تجلت عبقرية الشعب الهندي في وسائله المبتكرة في مقاومة الاستعمار الانجليزي ، والاصرار على النهوض والقضاء على التخلف ، ولقد تجسدت هذه العبقرية الهندية في شخصية غاندي الذي ابتكر الاسلوب الهندي المعروف في المقاومة السلمية ، والمقاطعة السلمية للانجليز . وقد انتصر هذا الاسلوب الفذ ، واثبت ان الهنود المتخلفين لديهم من الثقافة الروحية ما هو ارقى الاف المرات مما نجده عند الانجليز المتقدمين في العلم والحضارة . ولقد كان هذا الابتكار العظيم الذي توصل اليه غاندي ، وقاد الشعب الهندي الى تطبيقه ، نوعا من العبقرية الفذة التي كانت جديرة بان تكافأ اعلى المكافآت في هذا العالم ، ولكن نوبل لم يكن يتخيل ابدا هذا النوع من انواع العبقرية ، لان موضوع هذه العبقرية الجديدة ليس الكيمياء ولا الطبيعة ولا مقاومة المرض وانما موضوعها هو مرض اخر لم يفهمه نوبل ولم يتصوره ، ذلك المرض الخطير هو « الاستعمار » . ولناخذ نموذجا اخر من العبقريات الانسانية ، نموذجا قريبا منا نحن العرب هو نموذج السد العالي . ان المهندس الاول الذي اشرف على تنفيذ هذا المشروع وهو « كومزين » الروسي يستحق التكريم الى اقصى درجة . انه يقود عملا من الاعمال الانسانية الخلاقة التي تحمل وراءها الخير العميم للانسان . انه عمل يزيد مساحة الارض المزروعة اكثر من مليوني فدان . مثل هذه الاعمال الانشائية الرائعة لماذا لم تجد صدى لها في تصورات نوبل للعبقرية الانسانية ؟ ... ان ذلك لم يحدث لان نوبل لم يكن يدرك ايضا مرض « التخلف » اذا كان صحيحا . انه اوروبي يعيش في مجتمعات متقدمة ... تعبيرها الرئيسي عن العبقرية هو الكشف والاختراع والتقدم العلمي.

وهذا ما اعنيه بان تصور نوبل للعبقرية كان تصورا اوروبيا ، نابعا من عقل اوروبي ، يعيش في اوروبا الصناعية المتقدمة ، ولم يكن تصورا انسانيا شاملا مبنيا على رؤية كل وجوه الصورة الانسانية في هذا العالم ، حتى يمكن على ضوء هذه الرؤية ان يتصور نوبل العبقرية الانسانية تصورا كاملا ناضجا .

على اننا اذا قلنا ان نوبل قد ترك في اساس وصيته تحديدا اوروبيا للعبقرية الانسانية ، فان مما لا شك فيه ان الوصية لا تتيح فرصة لمكافاة المتمردين في داخل المجتمع الاوروبي نفسه . ان الثورة على المجتمع في اوروبا الصناعية المتقدمة لا يمكن ان يكون لها مكان مستقر بالنسبة لجائزة نوبل . لقد استبعدت هذه الجائزة كما رأينا ـ منذ البداية ـ المتعاطفين مع الحركة الاشتراكية او الممثلين لهذه الحركة . ولكن لجنة الجائزة توسعت في هذا المعنى فوقفت موقفا واضحا من المتمردين اصحاب العبقرية الناقدة التي تهدم وتعترض . فالجائزة لم تعط لابسن ، الكاتب المسرحي النرويجي المشهور ، ولقد كان ابسن سنة ١٩٠١ عندما بدأت هذه الجائزة علما بارزا من اعلام العبقرية الانسانية الراقية ، ومع ذلك فقد استبعد من قائمة الصالحين لنيل الجائزة . ولا شك ان الاعتبار الاساسي الذي لم تذكره لجنة الجائزة ، هو ان ابسن كان احد ادباء التمرد في المجتمع الاوروبي في ذلك الوقت، لقد قاد ابسن بمسرحه حركة تحرير المرأة الاوروبية تحريرا عميقا يتصل بوضعها الاجتماعي والروحي معا . ولم يكن مثل هذا المتمرد مرغوبا فيه ، لانه يمثل وجها متطرفا من وجوه اوروبا .

كذلك لم ينل هذه الجائزة تولستوي اديب روسيا الاعظم ، وقد مات تولستوي سنة ١٩١٠ ، اي بعد عشر سنوات متتالية من جوائز نوبل ، ومع ذلك لم يجد تولستوي فرصة في هذه الجوائز العشر. واذا كان ابسن اديبا متمردا ، فان صورة التمرد تزداد عند تولستوي عشرات المرات ، ان تولستوي اكثر من متمرد ، انه عاصفة من التمرد والرفض والانكار للاوضاع الانسانية التي تخل بحقوق الانسان وكرامته . ولا شك ان لجنة جائزة نوبل قد نظرت الى تولستوي على انه رجل فوضوي مثير للشغب لا يستحق التكريم .

بعد هذا كله نستطيع ان نفهم لماذا رفض برنارد شو سنة ١٩٢٥ جائزة نوبل ، ثم رفضها من بعده باربعين سنة تقريبا جان بول سارتر . ان الموقف مع برنارد شو وسارتر يختلف قليلا . انهما هما اللذان رفضا الجائزة هذه المرة . ولكن الاساس في حقيقته لا يختلف ، فلجنة الجائزة في الواقع قد ترددت كثيرا في اعطاء الجائزة للكاتبين الكبيرين ، وهو تردد يشبه الرفض تماما ... ولذلك كان رفض الجائزة من جانب شو وسارتر اشبه بالاعتذار عن قبول هدية ، يقدمها صاحبها ـ كما يقول التعبير العامي في مصر ـ « من غير نفس » . ان هذا الرفض هو تعبير عن كرامة الرافض للجائزة في جانب من جوانب هذه المشكلة ، ولكن الكرامة ليست العنصر الوحيد في الموضوع ، فهناك ما هو اخطر وابعد اثرا من ذلك .

ان برنارد شو وسارتر وجهان من الوجوه الثائرة المتمردة في اوروبا ، ولذلك ترددت لجنة الجائزة طويلا في تقديم الجائزة اليهما . وردا هما اليها الصفعة عندما رأت اللجنة ان تتغلب على ترددها اخيرا وتقدم الجائزة .

على ان الشبه بين سارتر وبرنارد شو يتعدى كونهما متمردين فقط . فهما اديبان ملتزمان الى اقصى حدود الالتزام الادبي . انهما بمعنى من المعاني سياسيان يكتبان في الادب . فما من قضية سياسية كانت تفوتهما ، وما من موقف تحرري كان يمر بهما دون ان يشتركا فيه ويساهما في نجاحه سواء كان ذلك في اوروبا او خارج اوروبا . بحيث نستطيع ان نقول بلا مبالغة ان الذي ورث برنارد شو في اوروبا هو سارتر ، ولست اعني بذلك انهما يتشابهان في ادبهما ، فهناك فوارق ادبية كبيرة بين الاثنين ، ولكني اعني التشابه الكامل في الوظيفة الاجتماعية والانسانية ، التي اختارها الكاتبان لادبهما ، فادبهما ادب مواقف ، انه ادب يعادي شيئا ويناصر شيئا اخر ، وليس ادبا منفصلا عن القضايا الانسانية الراهنة . وفي هذا الميدان نستطيع ان نذكر

مواقف برنارد شو في تأييد مصر والهند ضد الاستعمار الانجليزي وفي تأييد نضال بلاده : ايرلندة . وفي الوقت نفسه نذكر المناصرة القوية الفعالة – في موقف سارتر – لمعظم القضايا التحررية في عالم ما بعد الحرب الثانية . لقد ناصر قضية الجزائر ، وقضية كوبا ، وقضية الكونغو وشهيده لومومبا وغير ذلك من القضايا الكبرى . ويشترك سارتر وبرنارد شو ايضا في انهما يميلان بوضوح الى الاشتراكية والاشتراكيين. وقد كانت هذه الصفة واضحة عند برنارد شو منذ البداية في انتاجه الادبي والفكري ، اما بالنسبة لسارتر فقد كانت بدايته من هذه الناحية غامضة ، بل لقد حاول كثير من المفكرين الغربيين ان يجعلوا من ادب سارتر وفكره سدا منيعا يقف ضد الاشتراكية ويقف ضد الشيوعية على وجه الخصوص . ولكن سارتر التقى شيئا فشيئا مع الاشتراكيين على اختلاف مدارسهم . لقد التقى بهم اولا من خلال التجارب العملية ثم بعد ذلك اقترب منهم فكريا ، وبذلك تبدد وهم هؤلاء المفكرين الذين تطلعوا الى فكر سارتر وادبه كملاذين هائلين من امواج الاشتراكية التي ابتلعت كل ما امامها من افكار رجعية مترددة او معادية لتطور التاريخ . لقد كانت قوة سارتر املا ضخما لمفكري الغرب الرأسمالي . لان سارتر كاتب كبير متعدد المواهب : فهو فيلسوف وروائي ومسرحي وصحفي . وهو صاحب نفوذ هائل على جماهير القراء في العالم . ولو استطاعت القوى المعادية للاشتراكية ان تكسب سارتر الى صفها لكان ذلك بلا شك نصرا من اعظم انتصارات هذه القوى لا يقل عن النصر العسكري في اقسى الحروب واعنفها .

ولكن سارتر افلت بضميره وقلمه من هذه المصيدة ... ووقف في صف الاشتراكية موقفا لا تردد فيه .

ومن اوجه التشابه الكبيرة بين سارتر وبرنارد شو ، انهما ليسا مفكرين وحسب وانما هما من رجال العمل ايضا . انهما لم يحبسا نفسيهما في ابراج من العاج بعيدا عن مشاكل الحياة العملية ، بل دخلا ميدان العمل بكل قوة . لقد كان برنارد شو خطيبا جماهيريا ومحرضا كبيرا ، وكان عضوا عاملا في الجمعيه الفابية التي كانت اساسا لحزب العمال البريطاني . وهذا هو نفسه ما نجده في شخصية سارتر. انه يشترك بلا تردد في المؤتمرات السياسية المحلية والعالمية ، وكان مشتركا في نشاط الحزب الشيوعي الفرنسي ثم انفصل عنه ، واخيرا اسس لنفسه مع بعض اصدقائه حزبا . ثم حل هذا الحزب لاسباب كثيرة من بينها ان الحزب الجديد لم يستطع ان يوفر لنفسه قاعدة جماهيرية كافية في اوساط العمال .

كل هذه الصفات والخصائص المشتركة تبرر تردد لجنة جائزة نوبل في تقديم الجائزة الى الاديبين الكبيرين لمدة طويلة ، ثم تبرر بعد ذلك رفض الاديبين الكبيرين للجائزة ، كل منهما باسلوبه الخاص ، فبرنارد شو رفضها باسلوبه الساخر الجريء ، وسارتر رفضها باسلوبه المهذب المحدد .

ولم يكن ممكنا غير ذلك ... لم يكن ممكنا الا تتردد لجنة الجائزة امام شو وسارتر ، فهما متمردان اشتراكيات يوظفان ادبهما توظيفا مقلقا لكل الاجهزة الرأسمالية في العالم ، ولكنهما في النهاية اصبحا حقيقتين كبيرتين بحيث لم تستطع اللجنة تجاهلهما ، كذلك احست اللجنة انهما يمتازان بصفة باقية هي انهما لم ينضما علنا الى الشيوعيين ، وهذا في حساب اللجنة يستحق التقدير ، لان اللجنة اذا كانت تعادي الاشتراكيين فهي تحارب الشيوعيين حربا لا هوادة فيها .

ولم يكن من الممكن ايضا الا يرفض شو وسارتر الجائزة وهذه هي طبيعتها المحددة بحدود النظام الرأسمالي وحدود العقلية الاوروبية في فهمها للعبقرية الانسانية وحدود الميول المحافظة التي تسيطر على لجنة الجائزة وتجعلها تكره التمرد والمتمردين حتى ولو كان التمرد قائما ضد وضع سيىء ونظام لا يستقيم مع حقوق الانسان .

لقد كانت جائزة نوبل وفية لرسالتها وطبيعتها الاساسية ...وكان شو وسارتر وفيين ايضا لرسالتهما وطبيعتهما الاساسية .

القاهرة — رجاء النقاش

قضايا الأدب والأدباء

سارتر وجائزة نوبل

نشرت الصحف السويدية نص مقابلة صحفية ادلى بها جان بول سارتر بعد رفضه جائزة نوبل للاداب لعام ١٩٦٤ ، وهذا هو نص حديثه الذي يفسر فيه اسباب رفضه الجائزة :

« انني آسف ان تكون القضية قد اتخذت مظهر فضيحة : لقد منحت جائزة فرفضتها . وكل ما في الامر انني لم ابلغ في وقت مبكر ما كان يهيأ . وحين رأيت في جريدة « الفيغارو ليتيرير » بتاريخ ١٥ تشرين الاول ، بتوقيع مراسل الجريدة في السويد ، ان اختيار الاكاديمية السويدية كان متجها نحوي ، ولكنه لم يؤكد بعد ، تصورت انني اذا كتبت رسالة للاكاديمية ، كان بامكاني ان اضع النقاط على الحروف وان الحديث عن هذا ينقطع نهائيا . وهكذا فعلت ، وارسلت رسالتي في اليوم التالي .

وكنت أجهل آنذاك ان جائزة نوبل تمنح من غير اخذ رأي المعني ، وكنت اعتقد ان الاوان قد آن لمنع ذلك . ولكني افهم الا تتمكن الاكاديمية السويدية ، حين تختار شخصا ، من ان تتراجع عن ذلك .

والاسباب التي من اجلها اعتذر عن قبول الجائزة لا تتعلق لا بالاكاديمية السويدية ، ولا بجائزة نوبل نفسها ، كما شرحت الامر في الرسالة الموجهة الى الاكاديمية . وقد شرحت فيها طائفتين من الاسباب: اسباب شخصية واسباب موضوعية .

اما الاسباب الشخصية فهي التالية : ان رفضي ليس عملا مرتجلا، فقد سبق ان رفضت دائما التكريمات الرسمية . فحين عرض علي بعد الحرب ، عام ١٩٤٥ ، وسام جوقة الشرف ، رفضت بالرغم من انه كان لي اصدقاء من الوزراء .وكذلك لم ارغب يوما في دخول « كولج دو فرانس » كما اوحى لي بعض اصدقائي انافعل .

وهذا الموقف قائم على مفهومي لعمل الكاتب . ان الكاتب الذي يتخذ مواقف سياسية واجتماعية او ادبية ينبغي الا يعمل الا بوسائله ، اي الكلمة المكتوبة . وجميع التكريمات والامتيازات التي يمكن انيتلقاها تعرض قراءه لضغط لا اعتبره مرغوبا فيه . وليس الامر سواء اذا وقعت « جان بول سارتر » واذا وقعت « جان بول سارتر ، الحائز على جائزة نوبل » .

ان الكاتب الذي يقبل اكراما من هذا النوع ، يلزم الجمعية او المؤسسة التي كرمته : فان تعاطفي مع رجال المقاومة الفنزويليين مثلا لا يلزم سواي ، بينما اذا انحاز الحائز على جائزة نوبل جان بول سارتر الى المقاومة الفنزويلية ، فانه يجر معه جائزة نوبل برمتها ، بصفتها مؤسسة .

وعلى هذا ، فانه ينبغي للكاتب ان يرفض ان يتحول الى مؤسسة، حتى ولو تم ذلك بأفضل الاشكال تشريفا وتكريما ، كما هو الحال .

وهذا الموقف هو بالطبع موقفي وحدي ، ولا يحتمل اي نقد للذين سبق ان توجوا بالجائزة ، وانا اكن كثيرا من الاحترام والاعجاب لعدد من الفائزين الذين تشرفت بمعرفتهم .

واما اسبابي الموضوعية فهي التالية :

ان المعركة الوحيدة الممكنة حاليا في الجبهة الثقافية هي من اجل التعايش السلمي بين الثقافتين ، ثقافة الشرق وثقافة الغرب . وانا لا اقصد ان من الواجب ان تتعانق الثقافتان ، فانا اعرف جيدا أن المجابهة بينهما يجب بالضرورة ان تتخذ شكل صراع ، ولكن يجب أن تقوم بين البشر والثقافات ، من غير تدخل المؤسسات .

وانا شخصيا اعاني معاناة عميقة من التناقض بين الثقافتين : وانا مصنوع من هذه التناقضات . ان ميلي يتجه من غير شك الى الاشتراكية والى ما يسمى كتلة الشرق ، ولكني ولدت وربيت في اسرة بورجوازية وثقافة بورجوازية . وهذا يتيح لي ان اتعاون مع جميع الذين يريدون تقريب الثقافتين . على اني ارجو طبعاً ان « يربح الافضل » ، اي الاشتراكية .

من اجل هذا لا يسعني أن اقبل اي تكريم توزعه المحاكم الثقافية العليا ، لا في الشرق ولا في الغرب ، حتى ولو كنت ادرك تماما سبب وجودها . وبالرغم من ان ميولي واضحة الاتجاه نحو الاشتراكية فاني لا يسعني كذلك ان اقبل مثلا جائزة لينين اذا اراد احد ان يمنحني اياها، وهذا ليس هو الحال .

وانا اعلم جيدا ان جائزة نوبل في ذاتها ليست جائزة ادبية للكتلة الغربية ، ولكنها تصبح ما يفعل بها ، ويمكن ان تقع احداث ليس اعضاء الاكاديمية السويدية هم الذين يقررونها .

من اجل هذا ، تبدو جائزة نوبل ، في الوضع الراهن ، اشبه بتكريم مخصص لكتاب الغرب ولعصاة الشرق . فمثلا لم يظفر بها نيرودا الذي هو احد كبار شعراء اميركا الجنوبية . ولم يتحدث ما نحو الجائزة اي حديث جدي عن لويس اراغون الذي يستحقها مع ذلك كل الاستحقاق . ومن المؤسف ان تعطى الجائزة لباسترناك قبل ان تعطى لشولوخوف ، وان يكون الاثر السوفياتي الوحيد الذي توجته اثرا قد طبع في الخارج ومنع في بلد المؤلف الاصلي . وقد كان بالامكان اقامة توازن ببادرة مشابهة في الاتجاه الاخر . وفي حرب الجزائر ، حين وقعنا « بيان الـ ١٢١ » كنت اقبل الجائزة بعرفان الجميل لو منحتها ، لانها آنذاك لن تكون مشرفة لي وحدي بل للحرية التي كنا نناضل من اجلها . ولكن هذا لم يحدث ، وانا لا اعطى الجائزة الا بعد انتهاء المعركة .

ان في تعليل اسباب الاكاديمية السويدية لمنح الجائزة اشارة الى الحرية : وهذه كلمة تدعو الى تفسيرات عديدة . فليس المقصود بها في الغرب الا حرية عامة : اما انا فأفهم بها حرية محسوسة تتلخص بحق المرء في ان يملك اكثر من زوج جرابات وان يأكل حتى الشبع . ويبدو لي اقل خطرا ان ارفض الجائزة من ان اقبلها . فاذا قبلتها ، اعرض نفسي لما اسميه « استردادا موضوعيا » . وقد قرأت في مقال « الفيغارو ليتيرير » انني « لن أحاسب على ماض سياسي هو موضع جدال ونقاش » وانا اعلم أن هذا المقال لا يعبر عن رأي الاكاديمية ، ولكنه يظهر في وضوح الاتجاه الذي سيفسر به قبولي للجائزة في بعض اوساط اليمين . وانا اعتبر هذا « الماضي السياسي الذي هو موضع جدال ونقاش » ما يزال صالحا ، حتى ولو كنت مستعداً ان اعترف ببضعة اخطاء ارتكبت وسط رفاقي .

ولست اقصد بهذا ان جائزة نوبل هي جائزة « بورجوازية » ، ولكن هذا هو التفسير البورجوازي الذي ستقدمه بلا ريب اوساط اعرفها جيدا .

واخيرا ، اتطرق الى موضوع المال : وهو شيء ثقيل جدا تضعه الاكاديمية على كتفي الفائز حين ترفق التكريم بمبلغ ضخم ، وقد بلبلتني هذه القضية . فاما أن يقبل المرء الجائزة ويستطيع بالمبلغ ان يساعد منظمات او حركات يعتبرها هامة : وقد فكرت شخصيا بلجنة « ابارتيد » في لندن .

واما ان يرفض الجائزة بسبب مبادىء عامة ، فيحرم هذه الحركة من مساعدة هي محتاجة اليها . ولكني اعتقد ان هذا اشكال مزيف . انني ارفض طبعا مبلغ الـ ٢٥٠ الف كورون لانني لا اريد ان اصبح مؤسسة ، لا في الشرق ولا في الغرب . ولكن ليس بالامكان كذلك ان

يطلب من انسان أن يرفض ، مقابل ٢٥٠ الف كورون ، مباديء ليست هي مبادئه وحده ، وانما يشاركه فيها جميع رفاقه .

وهذا ما جعل منحي الجائزة ورفضي لها في وقت واحد امرين شاقين على حد سواء .

واود أن انهي هذا التصريح بتحية ود الى الجمهور السويدي »

ردود الفعل الاجنبية

هذا هو نص التصريح الذي سلمه الفيلسوف الفرنسي سارتر لناشره السويدي « كارل غوستاف بجورستروم » في السفارة السويدية في باريس ، فنقله هذا الاخير الى الصحف السويدية . وقد قال سارتر انه فضل هذه الصيغة ليتفادى ما قد يحدثه مؤتمر صحفي من سوء التفاهم .

وقد نشرت جريدة « راجانس نيهتر » السويدية نص التصريح ، وخصصت واحدا وعشرين عمودا من صحيفتها لمعالجة « قضية جائزة نوبل وسارتر » . وقد كتب مدير الجريدة مقالا افتتاحيا اثنى فيه على الكاتب الفرنسي وهنأه لانه « لم يميز ولم يفصل بين اعماله واقواله ، ولم يتنازل عن طبعه كـ « ذئب متوحد » ليحضر المادب ويسلي فئة « السنوب » في عالم الادب واضافت الجريدة ان جائزة نوبل تنتسب الى عالم شكلي ، اجوف ، لا معنى له » .

وتعليقا على مبلغ الجائزة ، قالت الجريدة : « ان المال ، بالنسبة لسارتر ليس اكثر من حبات رمل ينثرها على « سيمون » الجميلة (وتقصد سيمون دوبوفوار !) اما ردود فعل اعضاء الاكاديمية السويدية فلم تظهر حتى الان . غير ان السكرتير الدائم قد اوضح ان المبلغ (الذي يعادل ما يزيد عن ٥٣ الف دولار) فسيعود الى مؤسسة نوبل ، وفق قوانينها الجارية .

وصرحت جريدة « ستوكهلم تيدنينجن » في ستوكهلم بانها تقر تماما رفض سارتر للتكريمات وطرحه كل ما هو « على الموضة » . وقالت: « ان موقفه تعبير عن ايمان بهذه الجموع المغفلة التي ناضل من اجل حريتها . وليس غريبا ان يرى في جائزة نوبل للادب تعريفا غير صحيح لنفسه » .

اما صحيفة « سفانسكا داغبلاديت » السويدية فقد عبرت عن قلقها « للسابقة الخطرة » التي خلقها سارتر ، وقالت : « اذا عمد كتاب اخرون من وزن سارتر واهميته الى رفض الجائزة في المستقبل ، فستجد الاكاديمية السويدية نفسها في وضع مرتبك » .

وكتبت جريدة « التايمس » اللندنية المحافظة تقول : « ان منح جائزة رسمية يعني غالبا ان المؤلف قد كتب خير كتبه ، وان عظمة هادئة تحل عنده محل التمرد ... ولا شك في أن رفض سارتر يشير الى ان مؤلف « الكلمات » يخشى أن يوصف قبل الاوان بأنه شيخ الادب المسن » .

وقالت « الديلي تلغراف » اللندنية : « اذا كان الاسلوب قد اتخذ مقياسا ، فان جان بول سارتر لن يكون فائزا متميزا بالنسبة للذين فازوا بجائزة نوبل » .

وخصصت الصحف الفرنسية مكانا بارزا للتحدث عن مواقف سارتر السياسية والادبية ولم يصدر معظمها حكما على قرار مؤلف « دروب الحرية » برفض الجائزة . غير ان بيار هنري سيمون الناقد المعروف كتب يقول :

« ان اي وسواس من وساوس الصدق والامانة لا يجبر سارتر على رفض هذا الغار . فلقد توجت الاكاديمية السويدية كتابا وعلماء من الشيوعيين ، بل من السوفيات ، ونعتقد ان سارتر الذي لا ينتمي الى الحزب الشيوعي لم يوفق في ان يعطيهم درسا في الثبات وعدم التغير . فهل يمكن لهذا النجاح الجديد أن يقنع سارتر بان المرء لا يستطيع تماما ان يتموضع خارج النظام الحضاري الذي ولد فيه ، وانه ليس ثمة في الحقيقة اي نظام ينتمي كل الانتماء الى الشر ؟ »

واما « الاومانيتيه » جريدة الشيوعيين الفرنسيين فقد اكتفت بأيراد تصريح سارتر الى الصحافة السويدية بلا ادنى تعليق . ولكن « اتحاد الكتاب السوفيات » في موسكو قد عبر بواسطة الناطقة باسمه السيدة « ادغوردنيكوفا » عن دهشته للرفض : « اننا لا نعرف الاسباب التي دفعت سارتر الى هذا ، ولكن دهشتنا كبيرة ! »

وعقب اعلان منح الجائزة ، ظل الصحفيون الفرنسيون ساعات يطاردون سارتر من غير ان ينجحوا في لقائه . ولكن احد مذيعي الراديو تمكن من مقابلته وحصل منه على هذه العبارة : « لا شيء في اليد ، لا شيء في الجيب » هذا هو شعاري الذي ينبغي ان يحمله كل اديب ملتزم » .

ردود الفعل العربية

وكتب صلاح عبد الصبور في « الاهرام » يقول ان الجائزة تأخرت عن اوانها سنوات طويلة ، حين نالها من هم دون سارتر مكانة في عالم الادب والفكر ، وسارتر هو عبقري العصر الذي يتقدم اسمه اسم جميع الذين نالوا الجائزة منذ عشر سنوات . واضاف الكاتب يقول : « ان سارتر الى مكانته الادبية رجل مواقف يضع كل وزنه الادبي في كفة قضية الحرية والحق اينما كانت » وانهى مقاله بقوله : « لقد كان مخلصا حين رفض الجائزة » .

وفي جريدة « الجمهورية » القاهرية ، قال محمود تيمور ان سارتر قد اخطأ خطأ كبيرا برفضه لجائزة نوبل ، لانه قابل مجاملة وتقديرا « بسلوك لا مجاملة فيه ولا تقدير » .

وقال نجيب محفوظ : « لو كنت في منزلة سارتر ومستوى فكره وعبقريته وتأثيره الشامل في العالم ، فاني كنت ارفض الجائزة بالطبع ، لانه لا يجوز ان ياخذها قبلي في تلك الحال ادباء كشتاينبك والبير كامو ونستون تشرشل ... » .

وقال الدكتور لويس عوض ان موقف سارتر من جائزة نوبل لا يمكن الحكم عليه بالصواب والخطأ وانما يمكن فقط الوقوف عند دلالاته . فمن الناحية العملية لم يفقد سارتر شيئا الا مبلغ ٢٠ الف جنيه استرليني. اما الجائزة ذاتها فسيذكر التاريخ انها عرضت عليه ثم رفضها ... وهذا الرفض يؤكد كرامة الاديب في كل بلد من بلاد العالم ، ويؤكد ان القرن العشرين فيه قيادات لا تخضع لاغراء المال .. وقد اثبت سارتر انه « رجل مواقف » بحق ، بل هو رجل مواقف القرن العشرين . ومنبع هذا هو نفس الفلسفة الوجودية التي يؤمن بها ، والتي تقوم على فكرة تحمل الانسان ـ الجدير بصفة الانسانية ـ للمسؤولية عن كافة ابناء الجنس البشري .

وقال الدكتور مصطفى محمود تعليقا على رفض سارتر الجائزة : يبدو ان المسألة كلها حركة دعاية لا اكثر ولا اقل ! ...

اما انيس منصور فقال : ان رفض سارتر هو موقف صائب مئة بالمئة من وجهة نظر فلسفته . فسارتر يؤمن اولا بانه حر ، وانه تبعا لذلك مسؤول عن كل فعل يقوم به ، وهو لا يريد من احد ان يشترك معه في تحمل مسؤولية افعاله . وقد اصاب عندما رفض ان يربط اسمه باسم مؤسسة نوبل التي يدمغها ويدينها بانها وقفت دائما ضد فلسفات التحرر والتقدم .

لماذا رفض سارتر الجائزة ؟

بقلم عبد الفتاح الديدي

يشعر المتابع لصحافتنا الادبية هذه الايام بأن مشكلة رفض الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر لجائزة نوبل تشغل حيزا كبيرا من المقالات . ويتساءل اكثر الكتاب : لماذا رفض سارتر الجائزة ؟ وماذا يعني رفض سارتر للجائزة ؟ وانقسم الكتاب الى طائفتين : احداهما تنعي عليه رفض الجائزة . وثانيتهما تقر موقفه وتؤيد رفضه لها . وكلا الطائفتين يحاول ان يجد اسبابا وجودية او غير وجودية لموقف سارتر من الجائزة . وبعضهم يرجعها الى حالة من الحالات النفسية المرضية التي تحتاج الى علاج .

ولا شك انني شخصيا اجد طرافة في التعليقات الادبية والصحفية التي كتبت بهذا الصدد . فهي فعلا تعليقات غاية في الطرافة . انظر مثلا الى ما قاله محمد عفيفي في مجلة المصور : « لم تكن جائزة نوبل لتضيف شيئا الى سارتر . فهل كان يمكنها ان تسلب منه شيئا ؟ هل كان سارتر لينزل في عيني لو انني رأيته ماشيا وفي جيبه دفتر الشيكات ؟ اعتقد انها حالة من حالات المازوكية المتنكرة في صورة كبرياء . وليت سارتر قبض ذلك المبلغ لكي يعينه على دفع اتعاب الطبيب النفسي . »

وقال فكري اباظة في نفس العدد من مجلة المصور : « لم افهم لماذا أعتذر الفيلسوف سارتر الفرنسي عن عدم قبوله جائزة نوبل . حاولت ان افهم فلم استطع . ولم تقنعني فلسفته ولا شهرته بل اعتبرت الاعتذار تقليعة فلسفية لا طعم لها ولا ذوق فيها » .

وتعددت الملاحظات التي ابداها كتابنا حول مسألة رفض سارتر لجائزة نوبل . ولا شك ان لهذه الملاحظات طرافة كبيرة لانها تعكس فهم ادبائنا لامثال هذه المواقف وتكشف عن اساليبنا في ادراك هذه الامور . بل انها تفضح اسلوب تفكيرنا ازاء مثل هذه الاحداث التي تعد في الواقع من صلب الاوضاع الروحية والفنية في العالم .

وقد كثرت تعليقات الصحف حول هذا الموضوع . ولكن احدا لم ينفذ الى قلب المشكلة الحقيقي . لم يحاول احد ان يستطلع حقيقة الامر داخل سياقها الوجودي . كذلك لم يحاول احد ان يبين اهمية الحدث بالنسبة الى الوضع الفكري العام الذي تصرف سارتر على ضوئه هذا التصرف . فمن اليسير جدا على اي كاتب ان يجري قلمه ببعض عبارات الثناء او الخدش لسلوك سارتر ازاء هذه الجائزة . ولكن المهم هو ان نفطن الى الابعاد التي تساند موقفه والى الاطار الذي تتجلى داخله عملية رفض الجائزة بوضوح .

ولننظر اولا فيما اذا كان تصرف سارتر ذاك مبنيا على عقيدة سياسية معينة . الواقع ان شهرة سارتر السياسية قد طبقت الافاق . انه الانسان الذي يؤمن بواقع اشتراكي انساني مزود بكل وسائل التحرير الحقيقي للفرد ، وانسانية واقعه الاشتراكي هي التي تجعله اليوم مثلا فريدا في الايمان بالنظرية الاشتراكية ذاتها . ذلك ان سارتر يندهش اساسا امام الموقف الوصفي الماركسي الذي يهتم بمقتضات الادوات الصناعية . انه يبدي اندهاشه امام التعبيرات الماركسية التي تلتفت التفاتا خاصا الى الضرورات التي تفرضها وسائل التصنيع . ويثبت سارتر نظريته الجديدة في هذا الموقف مشيرا الى ان المسألة ليست مسألة خضوع لما تقتضيه الادوات الصناعية بقدر ما هي مسألة مبادلة مع هذه المقتضيات .

لقد استطاع ماركس واخرون من بعده ان يكشفوا عن مظاهر خضوع الانسان للمادة خلال عرضهم لمشاكل الصناعة في مجتمع القرن التاسع عشر . فهذا المجتمع يقوم كله على عملية الارتباط بالفحم والحديد . فالفحم بوصفه مصدرا للطاقة يحدد بنفسه الوسائل التي تتيح لهذه الطاقة ان تكون ذات فاعلية . واذ يقوم الفحم بتحديد هذه الوسائل والادوات الصناعية الجديدة يقوم ايضا بتحديد مناهج واساليب جديدة لمصنعة الحديد . وابتداء من هنا تظهر القاطرات البخارية والسكك الحديدية والاضاءة بالغاز وخلاف ذلك من الصناعات . ويتطلب هذا التعقيد المادي والالي تقسيما للاعمال في التو . او بتعبير اخر يقضي ظهور المناجم والمصانع بظهور اصحاب رؤوس الاموال والفنيين الصناعيين والعمال .

ولا شك ان ماركس واتباعه قد لاحظوا كيف كان بزوغ الفحم والحديد داخل المجتمع شرطا من شروط الاخلال بالنظام الطبقي واعادة تنظيمه من جديد . وكان ذلك سببا أيضا في ابتكار مشغوليات وهيئات جديدة كما ادى الى تنويع شديد والى اختلافات جوهرية في نظام الملكية وغيره من النظم . كلنا يعلم ذلك . اما ما يبدو محيرا في هذا الامر فهو ان زوال الصناعات القديمة وبروليتارية الفلاحين قد ظهرت ونمت ابتداء من الغنى الاسطوري الذي

صارت تتمتع به الانسانية وابتداء من تقدمها الهائل في وسائلها الفنية الصناعية .

وهذا هو ما يشير اليه سارتر خاصة في نظريته السياسية . فالتقدم الاجتماعي الذي اصبح اساس العصر الحاضر يتمتع به انما جاء نتيجة لهذه الظروف . لا بد ان نفهم في راي سارتر كيف امكن ان تصبح هذه الواقعة الايجابية مصدرا للانقسامات الحاسمة داخل المجتمع المشتغل بالعمل ؟ ينبغي ان نفهم مؤديات هذا الوضع في جميع صوره الطبقية والاستغلالية والمادية والاجتماعية .

سيكون من الاصوب بلا شك في رأي سارتر ان التصنيع كعملية ارتباط انساني بالعمل وان نلقي بذلك ضوءا جديدا على كل الاوضاع التي تعرض لها التاريخ . فأسير الحرب مثلا في الحروب القديمة كان يتحول الى عبد . وهذا نوع من التقدم بلا شك لان تحويل الاسير الى عبد قد تم على اساس ارتباط هذا الاسير بنوع من العمل. وهذا أمر محير فعلا ولكنه واقع واضح بذاته . لقد اضفت طبيعة الارتباط بالعمل لونا جديدا على مشكلة العبودية نفسها . ذلك اننا اذا نظرنا الى مشكلة الرق في ذاتها بوصفها مشكلة تحويل الانسان من أسير الى عامل اصبح هناك في التو نوع من التقييم للعمل الى جانب التقدير للانسان كامكانية العمل . وبهذا نكتشف ايجابية الحدث من حيث هو نوع من طرح الانسانية والطابع الانساني على الحروب .

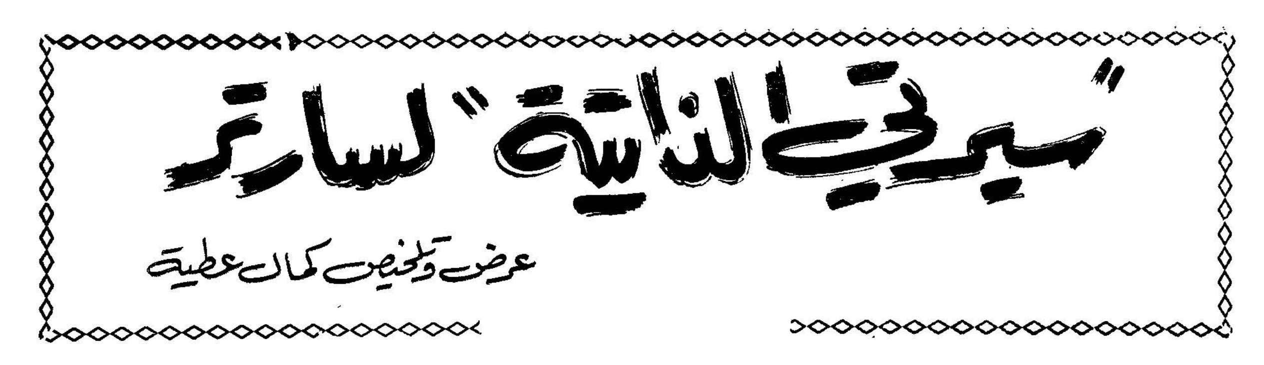
هناك اذن في رأي سارتر حركة ديالكتيكية وعلاقة ديالكتيكية داخل عملية تصنيع الحقيقة المادية . وهذه الحركة تنشأ بين الفعل بوصفه عملية نفي للمادة في نظامها الحاضر وعند اعادة تنظيمها مستقبلا وبين المادة كمساند حقيقي طيع للتنظيم الجديد الذي نحن بصدده بوصفها نفيا للفعل . ولا يمكن التعبير عن هذا النفي للفعل خلال حدوثه الا بعبارات من طبيعة الفعل ذاته . اعني — او يعني سارتر على وجه التحديد — ان نتائجه الايجابية كما تتبدى في تشكيلات الاشياء تتحول ضد نفسها وفي نفسها على صورة مقتضيات موضوعية وسلبية على السواء .

ولم تعد هناك اية غرابة في هذا كله اليوم . فنحن ندرك تماما ضرورة التغيير الاجتماعي وفقا لملابسات التعقيد المادي وصناعاته الفنية . اننا نستطيع اليوم ان نفهم كيف تحدد الالة ببنائها ووظائفها نماذج خاصة لمن يقومون على خدمتها من بين الناس وتخلق بذلك ايضا هؤلاء الناس . واذا كان هذا صحيحا فان عملية تصنيع الحقيقة المادية من شأنها ان تضم الاشياء التي لا حياة فيها داخل وحدة شبه عضوية . واذا كانت هذه الوحدة كلية شاملة فهي ايضا اجتماعية وانسانية .

هنا نكتشف في الديالكتيك السارتري نوعا من العودة الى عنصر الفاعلية الذي اشتمل عليه الديالكتيك عند هيجل . وهذا العنصر هو الذي افتقده الديالكتيك الماركسي . وهو الذي جعل موقف سارتر نوعا من الجنوح بالديالكتيك الى حقيقته البشرية في وضعيتها . ومن هنا ارتكزت اشتراكية سارتر على التبادل الذي يتم بين الانسان وبين معطيات المادة في حقيقتها وفي صناعاتها .

هذا هو جوهر التفكير السياسي عند سارتر . وليس فيه ما يحتم على سارتر رفض جائزة مادية اعطيت اليه كنوع من التشجيع على العمل . وليس فيه ايضا رفض للتقييم الذي يحدث على مستوى انساني في اطار العمل الايجابي المفيد . ولكن الحقيقة هي ان سارتر لم يرد ان يضع نفسه في الوضع الذي يجعل رفضه الجائزة ذا بعد سياسي . لان اختلافه الجوهري عن منطوق الديالكتيك الماركسي واضح . ولان اي ارجاع لموقفه ذاك الى محاباة سياسية سيؤدي الى افساد مفهومه الاشتراكي المبني على مقومات فاعلية مختلفة . اعني اننا لو توخينا متابعة موقف سارتر سياسيا فقط لجعلنا من تصرفه ذاك افسادا لحقيقة مفهومه الجديد . وعلى الرغم مما ذاع من الاسباب

ـ التتمة على الصفحة ٦٦ ـ



« كنت مسافرا سريا ، فنمت على مقعد القطار ، وكان المراقب يهزني : تذكرتك ! وكان علي ان اعترف باني لا املك تذكرة ، ولا مالا لادفع فورا اجرة السفر .وكنت قد بدأت ارافع على اني مذنب : كنت قد نسيت هويتي في البيت ، بل لم اكد اذكر بعد كيف خدعت رقابة قاطع التذاكر ، ولكن كنت اقر اني دخلت القاطرة بصورة مغشوشة ».

« سارتر »

***

مع بداية هذا العام اصدرت دار « الاداب » ترجمة عربية لاحدث ما خطه قلم الفيلسوف والاديب الفرنسي « جان بول سارتر » ، وهو الجزء الاول من كتاب «سيرتي الذاتية » الذي يحمل عنوان « الكلمات » (١) .. ولقد استطاعت « دار الاداب » ان تنشر الطبعة العربية ، قبل الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب الرائع الذي يتناول حياة الكاتب الفرنسي منذ ولادته حتى بلوغه الحادية عشرة من عمره .. واذا كان الكتاب يقتصر على فترة زمنية معينة ، فان سارتر يحكي لنا فيه مرحلة طفولته المبكرة وكيف اتيح له ان يتعلم « القراءة » اولا ، ثم الظروف التي دفعته بعد ذلك الى تعلم « الكتابة » ومحاولاته الاولى فيها .. وهو يخضع تلك المرحلة بكل ما فيها من احداث وملابسات لتجارب الشيخ الذي تجاوز الخمسين ولافكاره واتجاهاته وفلسفته ، حيث يعطي لتلك الاحداث دلالات فلسفية تنبع من نظرة المفكر المكتمل الناضج وليس من نظرة الطفل الذي كانه في تلك الايام البعيدة ..

فنحن نستطيع أن نرى من خلال سطور الكتاب كل ما يتضمنه الفكر الوجودي السارتري من مثالية ذاتية مقنعة ، وكل ما يحتويه القاموس الوجودي من معاني اليأس والتوتر والفزع والالحاد والعدمية واللاجدوى واللاغاية ، ثم نستطيع ان نرى الخطوط العامة لقضية الوجودية الاساسية وهي حرية الانسان .. حريته في ان ييأس ويلحد ويتوهم ويختار طريقه ويحدد قيمه على أساس من سلوكه الفردي وحده ، وحريته في الا يتقيد باية مبادىء او افكار سابقة على تجربته الذاتية ، وانما عليه ان « يختار » وينطلق فيما اختار الى اخر الشوط لكي يحقق وجوده وذاته ..

وسارتر لا ينسى ان يرسم لنا من خلال سيرته الذاتية ، صورة حية للمجتمع الفرنسي في بداية هذا القرن ، والمناخ الثقافي والاجتماعي الذي نشأ وتربى في احضانه بحيث نلمح بوضوح انعكاسات ذلك المناخ وتأثيره في تشكيل الطفل الذي اصبح فيما بعد مفكرا حاول طوال حياته ان يفلسف الادب وان يؤدب الفلسفة .. الطفل الذي بدأ حياته يتيم الاب محررا من السلطة ، ثم كان عليه بعد ذلك ان يكافح طويلا من اجل ان « يختار » طريقه ومن اجل « خلاصه » ...

ففي عام ١٩٠٤ التقت في مدينة « برست » الفتاة الجميلة « آن ماري » صغرى ابناء « شارل شوايتزر » معلم اللغة الالمانية في الالزاس، بضابط البحرية الشاب « جان باتيست » الذي كان قد عاد الى وطنه بعدما اصابته الحمى في الهند الصينية .. وتزوجت الفتاة الجميلة التي كانت اسرتها المتزمتة تحرمها من الاحساس بجمالها من الضابط المحموم الذي انحدر من طبيب ريفي ، وانتج هذا الزواج طفلا ، كان هو «جان بول سارتر» الذي استقبل اولى نسمات حياته في عام ١٩٠٥..

وظل الزوج يعاني وطأة المرض والامه حتى مات بين يدي زوجته الصغيرة بعد بضعة اشهر من مولد طفلهما ..

« وعادت الارملة الشابة لتصبح قاصرة : عذراء ذات لطخة » .. عادت الى اسرتها لتواصل حياتها الاولى ، مهملة مجهولة ، لا احد يهتم بها ، وليس في مقدورها الا ان تلزم الهدوء والصمت وان تتقبل قسوة ابيها وتزمته ..

ولقد كان موت جان باتيست هو القضية الكبرى في حياة الطفل « ذلك انها ردت امي الى اغلالها ، ومنحتني الحرية .. » ولكنه مع ذلك يتساءل « أكان ذلك خيرا ام شرا ؟ لست ادري ، ولكني اقر طوعا حكم عالم نفس تحليلي باني : ليس لي « انا فوقية » .

وعلى الرغم من ان الموت الخاطف لم يتح للطفل ان يتعرف الى الرجل الذي منحه شعاعة الحياة على هذه الارض ، الا انه يعطينا صورة سريعة لهذا الاب الذي مضى بغير استئذان ، حيث يقول « وقد استطعت طوال عدة سنوات ان ارى فوق سريري صورة ضابط قصير ذي عينين بريئتين ، ورأس مستدير اصلع ، وشاربين كثيفين ، وحين تزوجت امي للمرة الثانية اختفت الصورة .. »

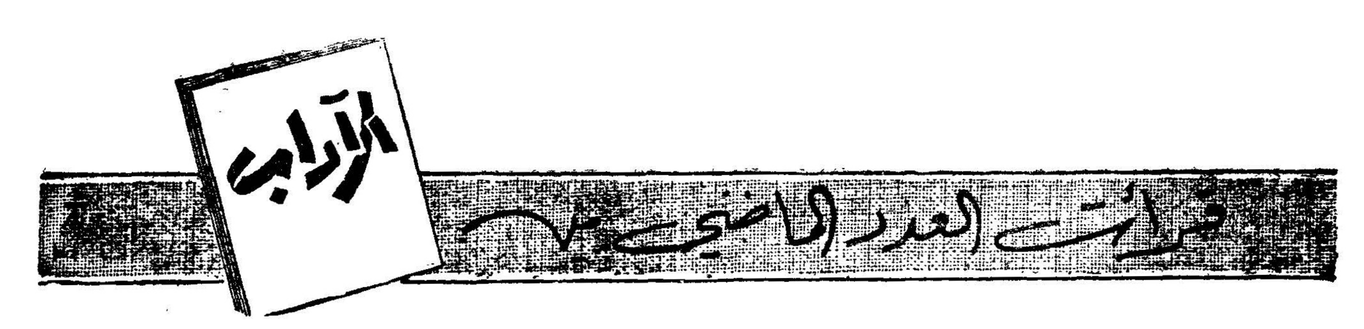
واذن فقد عاد الطفل مع امه الشابة الجميلة ، ليرقبها وهي تنام وحدها ثم تستيقظ بطهارة لتأخذ حمامها ، وليتساءل بينه وبين نفسه .. كيف اكون قد ولدت منها ؟ .. بينما كانت هي تنظر اليه في حنان وتهمس .. سيكون حبيبي الصغير لطيفا ، وعاقلا ، وسيتركني اقطر له في انفه بكل لطف .. اما جده شارل شوايتزر فقد كان عجوزا يبالغ في طلب النبالة ، ويحسب نفسه فكتور هوجو ، وكان يحنو كثيرا عليه ويحس بانه الشيء الهام الذي « يملكه » وانه « اعجوبته » الذي يملأ حضوره بالبهجة والحيوية .. وكان يحرص دائما على ان « يلقنني واجباتي المدنية ويروي لي التاريخ البرجوازي ، لقد كان ثمة ملوك واباطرة ، وكانوا شريرين جدا ، وكانوا قد طردوا ، وكان كل شيء يجري على ما يرام » ..

وفي ذلك الجو الاسري الهادىء الرتيب الذي كانت تمضي فيه حياة الطفل ، لم يعرف معنى الحقد ولا العنف ولا الحسد ، فعلى الرغم من انه لم تكن له « انا فوقية » الا انه لم يكن مع ذلك يسلك سلوكا عدوانيا.. كان الموت قد انقذه من الخضوع للسلطة الوالدية ، وكانت امه ملكا خالصا له ولا احد ينكر عليه امتلاكها ، وكان جده « يعبده » ويعطيه من الحب والاهتمام ما يفيض على حاجته « فعلى من ، وضد من ، كان عساي ان اتمرد ؟.. انه لم يحدث قط ان انتصب هوى انسان اخر قانونا لي » .

ولعل ذلك هو المصدر الذي نبع منه نفور سارتر فيما بعد من السلطة المدنية ومحاولته الدائمة للابتعاد عنها وتحديد مكانه منها « فلا تحت ، ولا فوق ، بل في مكان اخر » ..

— التتمة على الصفحة ٥٩ —

(١) ترجمة الدكتور سهيل ادريس .



الأبحاث

بقلم الدكتور فؤاد زكريا

***

تضمن العدد الماضي ردين على مقال سابق كنت قد نقدت فيه بحثين ، احدهما بعنوان : « عندما يصبح الوجود اداة زور » للاستاذ جميل المناف ، والاخر بعنوان : « الحاجة الى فلسفة » ، للاستاذ غالب هلسا . وكل من الردين يمثل نمطا خاصا في استجابة الكاتب للناقد . فالرد الاول ، اعني رد الاستاذ جميل المناف ، انموذج للهدوء وضبط النفس والروح العلمية الصحيحة . وفيه حاول الكاتب ان يوضح فقرة طويلة ضربت بها مثلا لغموض اسلوب الكتابة عنده ، وعند بعض الكتاب الاخرين . وانا اعترف ، بيني وبين نفسي ، ان شرحه لم يجل كل غوامض هذه الفقرة، ولكن ليس هذا هو الذي يعنيني في الموضوع ، وانما الذي يعنيني هو تلك الروح الموضوعية التي تقبل بها النقد ، وصاغ بها رده عليه ، وهي روح لا يملك معها المرء الا اكبار صاحبها وامتداح موقفه.

اما رد الاستاذ غالب هلسا فقد سار في الاتجاه المضاد ، وهو الاتجاه الذي يمكن ان يوصف بانه شخصي عنيف الى حد ما . ففيه اشارة الى « سوء الفهم المتعمد » ، والى ان سوء الفهم ان لم يكن متعمدا « فالكارثة اكبر » ، والى انني « امزح » ، والى ان الكاتب لا يريد ان يظلم ذكائي ، الى اخر هذه التعبيرات التي تبعد باية مناقشة عن الطابع العلمي المحض . ومن المؤكد ان من حق الناقد - اي ناقد - ان يشعر بالدهشة عندما يجد ان ما يكتبه باسلوب موضوعي لا اثر فيه لاي عنصر شخصي ، يقابل بردود شخصية ، وكأن بينه وبين الكاتب شيء . وربما كان للسيد الكاتب بعض العذر اذا ادركنا ان بعض النقاد يستخدمون النقد سلاحا لارضاء حاجات شخصية ، او لمجرد اظهار العلم بلا داع ، او للانتقام من خصوم شخصيين . ولكن الامر حين يكون متعلقا بمسائل فلسفية ، كموضوع المقال الذي يدور حوله الكلام الان ، فان اختلاف وجهات النظر يغدو امرا طبيعيا ، ولا يمكن ان يعد تعبيرا عن اتهام شخصي من الناقد للكاتب ، لا سيما اذا لم يكن احدهما يعرف الاخر !

وعلى الرغم من انني افضل الاكتفاء بهذه الملاحظة العامة ، فانني استأذن الكاتب الفاضل في اقتباس انموذج من رده ، لكي استخلص منه ما يكشف عنه هذا الانموذج من دلالة على طريقته الخاصة في النظر الى النقد . فهو يقول : « ... ويرى الناقد انه كان علي ان اذكر اسباب تشاؤمي واعددها ، ثم انتقل الى دواعي تفاؤلي واعددها ، « وبذلك يستطيع القارىء ان يتتبع حجته ... بوضوح من البداية الى النهاية » . ثم يعلق على ذلك بقوله « هل يمكن للكاتب ان ينطلق في دراسته لاية قضية من احساسه بالتفاؤل او التشاؤم ؟ وكيف يتصور الدكتور ان يقوم بحث على تبرير احاسيسنا بالغضب او الرضا ؟ ربما كان هذا منهج الدكتور في البحث ، ولكنني افضل ... اعطاء اقل قدر ممكن لنزواتنا في التأثير » . كل هذه النتائج يستخلصها الكاتب من استخدامي للفظي « التفاؤل والتشاؤم » ، (وهما لفظان وردا في مقاله الاصلي بالفعل) ، مع ان سياق الكلام يدل بوضوح على ان من الممكن الاستعاضة عن عبارة « دواعي التفاؤل والتشاؤم » بعبارة « نقاط القوة والضعف » او « النواحي الايجابية والسلبية » ، وغير ذلك من التعبيرات التي تؤدي نفس المعنى . فلا نزوات هناك ، ولا احاسيس شخصية .

واذن ، فليس النقد مزاحا ، وليس خصومة ولا عداوة ، وانما هو محاولة لاستجلاء الحقيقة من خلال تقابل الاراء وتباين وجهات النظر . وآمل ان ينظر اليه كل كاتب على هذا النحو وحده ، حتى ترتفع كتاباتنا على الدوام الى مستوى الموضوعية العلمية ، ونستطيع ان نقدم الى شعوبنا تلك الافكار الحية التي تتعطش اليها ، بدلا من ان نقدم اليها مجادلات شخصية لا يفيد منها احد.

***

وسأبدأ تعليقي اليوم بمقال الاستاذ غالب هلسا (ايضا) في العدد الماضي ، وعنوانه « معركة حول الموقف والادب » . وقد تضمن المقال تحليلا ، من وجهة نظر الكاتب الخاصة ، لمواقف فئات هامة من الكتاب من تلك القضية الاساسية ، واعني بها : « وظيفة الادب في مجتمع متغير متفاعل » . وسوف أتعرض بعد قليل لمسألة انطباق الاوصاف التي قدمها على كل كاتب اختاره انموذجا لها ، ولكن المهم في الامر ان صاحب المقال قسم الكتاب الى فئتين : فئة الكتاب الملتزمين ، الذين يذهبون في التزامهم الى حد الدعوة الى تكريس جهود الادب كلها لتشجيع الجوانب البناءة في نشاط المجتمع ، مع تجاهل كل هدف اخر للادب - وفئة الكتاب « المنتفعين » الذين يشعرون بالضياع لانهم فقدوا وظيفتهم الاصلية بوصفهم كتابا يشاركون في توجيه حركة المجتمع . وهذه الفئة الاخيرة ، في رأي كاتب المقال ، ترى ان « الفن لا علاقة له بالوضع على الاطلاق . فالفنان يعبر عما في داخله ولا يتعرض لما هو خارج عنه . ولا شأن للفن ، فيما يرى هذا الطرف ، بالمجتمع او بالظروف السياسية او الاجتماعية . » واقول في هذا الصدد انني لا اؤمن بان النماذج التي اختارها تندرج بالفعل تحت هاتين الفئتين ، ولكن المهم في الامر ان تحديد خصائص الفئتين يفتقر الى الدقة : اذ ان الكاتب الملتزم هو ، تبعا لتعريف الالتزام ، كاتب ذو ضمير حي ، لا يجد لزاما عليه ان يتخذ دور « التابع » على طول الخط ، بل انه قد ينتقد ويخالف اذا وجد ان حركة التقدم الاجتماعي تقتضي ذلك - واذا كان يتخذ دور « التابع » فترة معينة ، فليس معنى ذلك انه سيظل هكذا على الدوام . ومن جهة اخرى فان الكاتب «المنتفع» - بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة - لا يشعر بالضياع ، ولا يأسف على شيء ، لان من طبيعة المنتفع ان يحرص على دوام انتفاعه قبل كل شيء ولن يأبه لفقدانه الوظيفة الاصلية « للكاتب » ، لانه لو كان يؤمن بهذه الوظيفة لما كان قد اختار ذلك الطريق.

ولعل من الظواهر الهامة التي يكشف عنها المقال موضوع البحث ، تلك الاهمية الكبرى التي اصبح النقد الادبي يحتلها في حياتنا الفكرية المعاصرة . ذلك لان الجزء الاكبر من طاقة عدد كبير من مفكرينا ، يبذل من اجل موضوعات ترتبط بطريق مباشر او غير مباشر - بمشكلات النقد الادبي . ومن هؤلاء المفكرين من لهم مواقف سياسية واضحة ، واراء صريحة في الاصلاح الاجتماعي ، بل ان منهم العلماء في بعض الاحيان . وقد يجد القارىء نفسه احيانا مضطرا الى التساؤل : هل للقضايا الادبية كل هذه الاهمية حتى تصبح محورا لنشاط هذه المجموعة الكبيرة

من مفكرينا ؟ ان للادب اهميته الخاصة لدى المشتغلين به ، ولكن هل تصل هذه الاهمية الى حد امتصاصه لجهود المشتغلين بفروع اخرى تبدو بعيدة عنه كل البعد ؟ وهل تضاءلت مشكلاتنا الى حد انها تقلصت في تلك المجموعة من المشكلات التي يعالجها نقاد الادب مرارا وتكرارا - كمشكلة الادب الخالص والادب الملتزم ، والادب القديم والحديث ، والادب العامي والفصيح ؟ هذه اسئلة لا بد ان تطرأ على ذهن المتتبع لاتجاهاتنا الفكرية المعاصرة ، ولكن الرد عليها يصبح واضحا عندما يدرك الحقيقة الاساسية الاتية : وهي ان القضايا الادبية تلعب في عصرنا دورا مشابها الى حد بعيد للدور الذي كانت تلعبه القضايا اللاهوتية في اوائل العصر الحديث للفكر الاوروبي . ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت تدور مناقشات مستفيضة بين المفكرين حول مسائل مثل آلية العالم او غائيته ، وحول طبيعة فعل الخلق ، وحول الارادة الالهية ، وهل هي متمشية مع القوانين الطبيعية ام قادرة على مخالفتها . وكانت هذه المناقشات تبدو في ظاهرها لاهوتية خالصة ، بحيث كان الباحث السطحي في فلسفة ذلك العصر خليقا بان يتساءل : ما شأن الفكر الحديث بهذه المسائل ، ولم تشغل الفلسفة نفسها بهذه الامور ؟ ولكن الواقع ان الفلاسفة كانوا يعبرون ، من خلال هذه المسائل اللاهوتية ، عن مواقفهم الحقيقية من مشكلات العالم المحيط بهم ، وكانوا يتخذون من هذا البحث الذي يبدو بعيدا عن الواقع ، وسيلة للادلاء بارائهم في اكثر الامور واقعية . وهكذا الحال في قضايا الادب في بلادنا : فهي تبدو في ظاهرها منتمية الى ذلك المجال الذي يصنعه خيال الانسان ، ولكنها في حقيقتها وسيلة للتعبير عن اوضح المواقف السياسية. وحول خلافاتها الاساسية تتبلور اشد المواقف تعارضا بالنسبة الى قضايانا الاجتماعية الهامة . فالمنازعات الادبية هي في واقع الامر ستار يخفي وراءه صراعا ايديولوجيا اساسيا ، وهي قد اصبحت اليوم قياسا يدرك بواسطته موقع المفكر بالنسبة الى المعسكرات الفكرية الرئيسية التي تتجاذب عقل الانسان المعاصر . ومن هنا كانت تلك الاهمية التي تحتلها مناقشات النقد الادبي في حياتنا العقلية ، والتي قد تبدو لاول وهلة غير متناسبة مع المركز الذي يمكن ان يحتله الادب عامة في مجتمع له مشاكل اخرى اشد الحاحا وأعظم تأثيرا في حياته الواقعية.

***

وقد استلفت نظري في العدد الماضي ندوة نشرت بعنوان «التراث العربي ، كيف نعمل على احيائه» ، واشترك فيها الاستاذان امين الخولي وابراهيم الابياري والدكتور محمد القصاص . وكان من الطبيعي ان اقبل على قراءة ما نشر من هذه الندوة بشغف ، لانها تمس موضوعا حيويا يدور حوله جدل محتدم في هذه الايام . ولكني اعترف ان نتيجة القراءة كانت مخيبة للامال . ذلك لان الندوة تحولت ، منذ بدايتها ، الى بحث لاليات عملية نشر المخطوطات ، والصعوبات المادية التي تواجه الناشر ، وكيفية جمع المخطوطات ، الى اخر هذه الموضوعات التي نستطيع ان نعدها موضوعات « تكنيكية » لا تمس جوهر المشكلة موضوع البحث . ولست اعتقد أن اهم ما ينبغي ان يناقش ، عندما نكون بصدد موضوع احياء التراث العربي هو ضرورة تصوير المخطوطات او عدم ضرورته ، وسهولة الفهرسة أو صعوبتها . ذلك لان هذه كلها معلومات « ببيلوجرافية » كان يمكن ان تكون موضوعا لندوة يشترك فيها امناء مكتبات . ومع اعترافنا باهمية الاساس « الببيليوجرافي » في نشر المخطوطات ، فان في احياء التراث العربي مشكلات ذات طابع اعم واهم من هذه بكثير . هناك المشكلات الفلسفية والفكرية والعقائدية المتعلقة بنشر هذا التراث . وهناك المشكلات المتعلقة بنوع المنهج الذي يطبق في عملية الاحياء ، ومدى الاستعانة باصول المنهج التاريخي في تفسير التراث . وقد حاول السادة المشتركون في الندوة ان يمسوا نقطة قريبة من هذه ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد اثيرت مشكلات مثل : هل نسمح لنفسنا بحذف فقرات « تجرح حياء العذارى او الشبان » و«هل يجوز للمحقق ان يصحح خطأ لغويا وقع فيه المؤلف او لا ؟ » . وهذه كلها مسائل متعلقة بآليات عملية التحقيق . وربما لم تكن عملية التحقيق

باسرها هي العملية التي تعني قارىء مثل هذه الندوة او سامعها في الاذاعة ، وانما هي تعني الدارسين المتخصصين الذين يقومون هم انفسهم بنشر التراث ، وهم قلة . اما جمهور القراء والمستمعين ، وضمنهم المثقفون انفسهم ، فهم يريدون اجابات على اسئلة يرونها اهم من هذه كثيرا . مثال ذلك ان الصحف المصرية قد اثارت اخيرا موضوع « الاختيار » في نشر التراث ، نظرا الى ما لوحظ من اهتمام بنشر مخطوطات صوفية ، على حين ان بعض الكتاب آثروا ابداء المزيد من الاهتمام بالتراث العقلي العلمي . وهذا موضوع كان يستحق مناقشة اطول كثيرا من تلك الوقفة القصيرة عند مسألة نشر التراث العلمي والادبي . وفضلا عن ذلك ، فكيف ننتفع من التراث : ايكون انتفاعنا بالنشر وحده ، أم بالتعليقات والدراسات المقارنة ؟ واذا اعترفنا باهمية الدراسات المقارنة ، فهل ستتم المقارنة في هذه الحالة مع اتجاهات معاصرة للبحث المنشور او قريبة منه ، ام مع الاتجاهات الحديثة ؟ اعني هل نطبق المنهج التاريخي الصرف ، فنعيد احياء النص في جوه الاصلي على قدر ما في وسعنا ، ام نطبق المنهج التفسيري ، فنبعث في النصوص القديمة حياة متجددة عن طريق مقارنته بافكارنا المعاصرة ، على نحو ما يفعل الغربيون في الفلسفة اليونانية ، التي يعيدون تفسيرها في كل عصر تبعا للقيم السائدة فيه والاتجاهات العقلية الغالبة عليه ؟ وهل نقف من التراث موقف التبجيل ، ام موقف النقد والاختيار ، ام موقف التحدي ؟ في اعتقادي ان هذه اسئلة اساسية كان ينبغي على السادة المشتركين في الندوة ان يواجهوها صراحة ، اذ ان عملية احياء التراث العربي ستظل متخبطة ما لم نصل الى حلول حاسمة لهذه المشكلات الهامة ، وما لم نحدد بشجاعة موقفنا من الماضي ، وعلاقة هذا الماضي بالحاضر : أهي علاقة قداسة لا تمس ، ام علاقة تفاخر بنسب عريق ، أم علاقة انتفاع بخبرات سابقة في حياتنا الحاضرة ؟

***

وقد تضمن العدد الماضي الحلقة الثانية من سلسلة المقالات التي يكتبها الاستاذ مطاع صفدي بعنوان « الثورية العربية امام الماركسية ». وكان عنوان هذه الحلقة « مشكلة السلوب الانسانية » . ولا سبيل الى نقد هذا المقال الاخير الا اذا ربطناه بالمقال السابق عليه ، لان الاثنين يؤلفان وحدة واحدة . ففي مقال العدد الاخير نقرأ مثلا تعبيرا مثل « الامة البروليتارية » ، وهو تعبير لا يفهم الا في ضوء المقال السابق عليه. فماذا يقول المؤلف عن هذا الموضوع في ذلك العدد ؟ انه يقول :

« ان الانفجار الداخلي للمجتمع الرأسمالي سوف يبقى معطلا مؤجلا الى امد بعيد ، ما دامت البروليتاريا في هذا المجتمع تؤلف هي نفسها طبقة مستقلة ، وجزءا من المجتمع المستقل ككل بالنسبة للمجتمعات النامية الاخرى . وهذا ما يجعل استراتيجية المعركة بين الرأسمالية والبروليتاريا تتحول من النطاق الاجتماعي الى صراع « قومي » بين دول استعمارية وشعوب جديدة ناهضة ... وهكذا انتقلت المعركة الطبقية داخل المجتمع الواحد ، الى صراع عالمي بين قوميات رأسمالية استعمارية ، وقوميات شعبية مناضلة ، يمكن وصفها بانها قوميات بروليتارية .

« وبدلا من أن يقوم اتحاد البروليتاريا العالمية ، متجاوزة انظمتها الرأسمالية في مجتمعاتها ، فان الاتحاد يتحقق اليوم بالتدريج ، بين القوميات البروليتارية الجديدة ، كما في منظمة الوحدة الافريقية ، ومؤتمرات دول عدم الانحياز ، وغيرها من وسائل التقارب بين الدول النامية المتحررة من الاستعمار القديم ، والمناضلة ضد الاستعمار الجديد . وهكذا فان مصير البروليتاريا الاجتماعية ، بالمعنى الماركسي ، اصبح مرتبطا بمصير نضال القوميات البروليتارية عبر العالم كله » » .

واضح اذن ان الكاتب يريد ، عن طريق استخدام تعبير « القومية البروليتارية » ، الذي ورد مرارا في مقال العدد الماضي ومقال العدد السابق عليه ، ان يشير الى مفهوم جديد يحاول به ان يتجاوز التعارض بين الفلسفة الطبقية والفلسفة القومية ، وذلك عن طريق الجمع بينهما في مركب واحد ، وبذلك تظهر « القومية البروليتارية » ، و « القومية

الرأسمالية الاستعمارية » ، اي بالاختصار ، « القومية الطبقية » .ولكن هل يستطيع المرء ان يحسم النزاع بين الفلسفات القومية والفلسفات الطبقية بهذه الطريقة الهينه السريعة ، طريقة الجمع بين الاثنين في « قومية طبقية » ؟ وهل قدم المؤلف من الحجج ما يبرر دعوته الخطيرة هذه ؟

فلنحاول اولا أن نحلل المسلمات التي ينطوي عليها كلام المؤلف ضمنا ، وان لم تكن قد وردت فيه صراحة . أنه يسلم ضمنا بالامور الاتية :

١ ــ أن كل دولة تكون ، من الناحية الطبقية ، كلا متجانسا .

٢ ــ أن هذا الكل المتجانس يتحدد شكله الكامل تبعا لنظام الحكم فيه .

٣ ــ ان الدولة باكملها تكون رأسمالية استعمارية اذا كانت حكومتها كذلك ، وتكون بروليتارية اذا كانت قد تخلصت من المرحلة الاستعمارية.

٤ ــ أو ان الدولة باكملها تكون رأسمالية استعمارية اذا كانت غنية مستقلة ، وتكون بروليتارية اذا كانت فقيرة يستغلها الغير .

هذه هي المسلمات الرئيسية التي تنطوي عليها فلسفة « القومية الطبقية » عند الاستاذ مطاع صفدي . وفي اعتقادي ان وضع المسألة على هذا النحو يجعل من اليسير على المرء اصدار حكم على هذه الفلسفة، وادراك مدى تماسكها او عدم تماسكها من وجهة نظر المنطق السليم .

فلنتناول اذن كلا من المسلمات السابقة على حدة بالنقد والتحليل :

١ ــ لست استطيع ان اتصور أن كاتب المقال ينكر فكرة تعدد الطبقات الاجتماعية داخل الامة الواحدة . ولكن اطلاقه اسم طبقة واحدة، كالبروليتارية او الرأسمالية ، على أمم باسرها يفترض هذه المقدمة حتما . وان لم يكن يفترضها ، فقد كان من واجب الكاتب أن يحدد الطريقة التي يوفق بها بين التعدد الطبقي داخل البلد الواحد ، وبين تسمية الدولة كلها باسم طبقة واحدة ، وهو ما لم يفعله في مقاله.وعلى اية حال فان فكرة تعدد الطبقات لا تحتاج الى اثبات ، ويكفي أن الانتقال من مفهوم الاتحاد القومي الىمفهوم الاتحاد الاشتراكي ، في التجربة المصرية ، يعد تأكيدا عمليا لهذا التعدد .

٢ ــ ومن المؤكد ان نظام الحكم في اية دولة ، وما يتخذه هذا النظام من سياسات ،ليس في معظم الاحوال انعكاسا دقيقا لطبيعة الوضع الشعبي القائم في هذه الدولة . فما زالت الحكومات مفروضة على شعوبها في جزء كبير من العالم ، بحيث لا يستطيع احد ان يقول ان الطريقة التي تسلك بها هذه الحكومات تعبر عن الاتجاه القومي في بلادها . وليتذكر الاستاذ مطاع ما حدث اخيرا في الانتخابات الامريكية : فهل يتصور احد ان الشعب الامريكي قد خلا من الرجال حتى لم يعد فيه الا جونسون وجولدووتر ؟ هل أصاب العقم هذا الشعب الى حد انه لم يجد خيرا من هذين ليسلم احدهما مقاليد بلاده ، ويحكمه في مصير العالم ؟ ومع ذلك فقد كان الاختيار حتميا امام الشعب الامريكي : اما جونسون او جولدووتر ، والاختيار الحتمي ليس اختيارا على الاطلاق. والنتيجة معروفة مقدما ، وهي أن يتولى الحكم اناس من طبقة معينة ، لا يمكن ان يقول احد انها تمثل غالبية هذا الشعب . وهكذا يكون من الممكن ، في احوال عديدة، ان تتولى الحكم شخصيات او حكومات لا تمثل بلادها تمثيلا صحيحا ، وبالتالي لا يصح ان تعد تصرفاتها معبرةعن اراء شعبها ومصالحه الحقيقية . وبالاختصار ، فان الهوة القائمة بين نوع الحكومة التي ترسم السياسة ، وبين التكوين الحقيقي للشعوب التي تمثلها ، تجعل من المستحيل وصف الشعب او الامة باسرها بصفات مستمدة من طريقة سلوك حكومته .

٣ و ٤ ــ وبناء على ما قلناه في المسألة السابقة ، فمن الخطأ ان نحكم بان القومية باكملها تكون استعمارية اذا كانت حكومتها كذلك ، او انها بروليتارية لمجرد كونها قد تخلصت من الاستعمار . ولنتأمل مثلا حالة فرنسا اثناء الحرب الجزائرية : فقد كانت منقسمة على نفسها ، وكان فيها قطاع ضخم يناصر الجزائريين ، ويضعف من قدرة النظام الحاكم على البطش بحركة التحرر الجزائرية . وكان بين هذا القطاع وبين المناضلين الجزائريين اتصال وتفاهم معروف . ومن المؤكد أن الحركة الجزائرية كانت ستخسر كثيرا لو كانت قد طبقت فلسفة الاستاذ مطاع صفدي ، ونظرت الى فرنسا باكملها على انها قومية استعمارية . وبعبارة اخرى ففي الاتصال المتبادل بين جبهة التحرير الجزائرية وبين العناصر التقدمية في فرنسا طوال حرب التحرير ، وفي الفوائد الهائلة التي حققها هذا الاتصال لحركة التحرر الجزائرية ، تكذيب عملي صريح لنظرية « القومية الطبقية » كما يقول بها الاستاذ مطاع صفدي .

ومن جهة اخرى ، فليس تجاوز الدولة للمرحلة التي كانت فيها خاضعة للتسلط الاستعماري دليلا على انها قد اصبحت « قومية بروليتارية » ، ولدينا ابلغ دليل على ذلك في المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا ، وغيرها من الدول التي تعد نامية ، فقيرة ، متخلصة من الاستعمار ، ولكنسياستها لا تؤهلها لان تكون « بروليتارية » بأي معنى من المعاني .

وحين يطبق الكاتب فلسفته العامة هذه على الامة العربية ، يطلع علينا برأي خطير ، هو « أن الامة البروليتارية التي تتميز سلوبها بانها سلوب حضارية كيانية اولا ،هي المحرك الحقيقي ، في صراعاتها معالقوى الاجنبية السياسية والاقتصادية ، طيلة مراحل الحضارة العربية الى يومنا هذا » ... هذا حكم خطير كل الخطورة ، ولكن هل يمكن اثباته في ذلك العمود الواحدالذي خصصه له الاستاذ مطاع في مقاله السابق، الذي تضمن اكثر من صفحتين في تحليل « كانت » و « هيجل » واشياع هيجل ؟ هلاستطيعان أقتنع بان « المقياس البروليتاري القومي هو الذي يحل محل المقياس الطبقي ، الاقتصادي الخالص » ، من هذا العرض الخاطف الذي قدمه الكاتب في مقاله ؟

ان الكاتب يريد تنبيه قارئه الى ان نضال الامة العربية في سبيل التحرر يتضمن عنصرا جديدا ، هو تأكيد قوميتها بالقضاء على النفوذ الاجنبي الدخيل ، اذ ان الاستغلال الذي تعاني منه كان استغلالا خارجيا، على حين ان الاستغلال الذي كانت تعاني منه البلاد التي طبقت المنهج الماركسي كان استغلالا داخليا ، من طبقة لطبقة اخرى . وفي وسعنا ان نلاحظ على هذا الرأي ما يأتي :

١ ــ انه ينطبق على كل الشعوب المستعمرة ، لا على الامة العربية وحدها ، لان في كلاستعمار كبتا للعناصر الاصيلةعلىيد عناصر دخيلة.

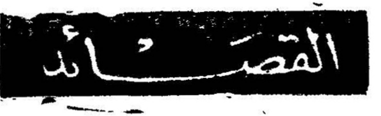
٢ ــ هل يستطيع الكاتب أن يثبت انه لم يكن هناك استغلال داخلي خلال تاريخ الامة العربية ،وهل تكفي لهجة التقرير السريعة التي اكد بها ذلك ، لاثبات قضية خطيرة كهذه ؟

٣ ــ والاهممن ذلك كله ، أن المؤلف يريد ان يقول ان الشعوب التي تستغلها شعوباخرى ، ينبغي ان تكون نقطة انطلاقها هي تأكيد قوميتها ضد القومية الغاصبة ، ويطبق هذا على الامة العربية فيقول ، باسلوبه الذي يروعني تعقيده ، « ان الامة البروليتارية التي تتميز

سلوبها ... » الى اخر العبارة التي اقتبسناها من قبل . ولكن هـذه بديهية لا ينكرها احد ،ولا يوجد اي مذهب سياسي تقدمي ، في عـالم اليوم ، ينكر ان تأكيد قومية الشعب ضد قومية الغاصب هـو نقطـة البداية الاولى في عملية التحرر التي تقوم بها الشعوب المستعمرة (مع عمل حساب التناقض داخل الشعب المغتصب ، والاستفادة منه علـى النحو الذي اشرنا اليه) . ولكن ما الذي يحدث بعد ذلك ؟ ماذا يكون دليلنا في المرحلة التي نتجاوز فيها حالة « الانسلاب » السياسي او القومي ؟ ان التخلص من الاستعمار كاد ان يصبح حقيقة واقعة في العالم العربي ، وفي معظم ارجاء العالم ، فما هي الايديولوجية التي نستعين بها الدول العربية عندما يتم تخلصها فعلا مما يسميه المؤلف « بالسلوب الحضارية الكيانية » ؟ من المؤكد ان فكـرة القومية الطبقيـة ، اي البروليتارية ، لن تعود هي الدليل الهادي لمثل هذه الامم في مرحلة ما بعد الاستعمار ، ولزام علينا ان نلتمس حلا اخر ، او نفكر في المسـألة كلها من جديد .

هذه بعض الملاحظات التي اثارتها فيذهني كتابات الاستاذ مطـاع صفدي في العددين الاخيرين من مجلة « الاداب » ، وارجو أن تكـون هذه الملاحظات حافزاً الى المزيد من التفكير في المشكلات الخطيرة التـي تتعرض لها هذه المقالات .

القاهرة — **فؤاد زكريا**



بقلم الدكتور احمد كمال زكي

***

ايضاح :

الشاعرة وفاء وجدي حزينة جدا ، فلقد رأت عبد العظيم ناجـي يغزوها بقصيدته « ثم مات » وكان نشرها في العدد العاشر من الاداب ونقدتها انا في عدد الشهر الماضي . وقدمت لي قصيدتها التي نشرتهـا في مجلة المجلة في مارس (اذار) سنة ١٩٦٤ بعنوان « العيد » علـى انها المعقل الذي تعرض لغزو عبد العظيم ، وحددت بدقة المواقع التـي ضربت منه في الصميم .

وفي جلسة مع الدكتور سهيل أدريس بالقاهرة وقفته علـى الواقعة فدهش اولا ثم تذكر – وذاكرته لا تخطئه – أن قصيدة عبدالعظيم قديمة عنده ولعلها ارسلت له كما يقول قبل نشرها في العدد العاشـر من الاداب ببضعة اشهر .

اذن فالامر للتوارد ، ولست استبعد باي حال أن يقع شاعـران او اكثر على « فكرة » بعينها ، بل قد يبلغ بهما الامر احيانا الـى ان يتحد بناءهما الفني على موتيفات واحدة . وقديما حدث ذلك ، وهـو لا يزال يحدث وسيظل يحدث حتى تنبت الصلات الانسانية ويمـوت الماضي او يوجد الفن الذي لا يعترف بالموروث !

ان جوهر قصيدتي وفاء وجدي وعبد العظيم ناجي شيخ عـاش ثم مضى ، ولكن ارتباط كل منهما به كان يختلف فاختلفت التجـربة . فوفاء تراه كما يراه الصغار في اوروبا وامريكا بابانويل ، واما عبـد العظيم فالشيخ عنده تجربة حب وان يكن فيه ملامح من شيخ وفاء من حيث هو حان وطيب يشفف بالصغار ويشفف به الصغار .

وفي رأيي ان قصيدة « العيد » جيدة ومن احسن شعر وفـاء ، ولكنها لا تصل الى المستوى الذي حلق فيه عبد العظيم على الرغم مـن انه يكاد يستعمل بعض موتيفاتها . ان هذا قد لا يرضي الشاعرة ، ولكنه يتهم عبد العظيم في شاعريته وهو شيء لا اراني قادرا على توجيهه قط!

وما دام المجال مجال ايضاح فاذكر ايضا ان الشاعر عبده بدوي صاحب قصيدة « انا والعالم » التي نشرت في العدد الماضي خابرنـي بالهاتف – كما يقولون في دمشق – ليؤكد ان يدا امتدت الى قصيدتـه تلك بالعبث . ولما كنت انا الذي ارسلت القصيدة للاداب منقولة بخطي عن نسخة من خطه رديئة الرسم – مع ان قلمه منمنم – فقد حملني وزر العبث وحملته راضيا .

ولكني اعندما عدت للقصيدة بدم بارد كما يقال لم اجد فيهـا ما يؤاخذني عليه الشاعر الا اسقاطي القافية ذات الروي الدالي في قوله :

ستظل غريبا ستعاني
الخوف المجهول .. .. ..

ثم لحظت لاول مرة اختلاط الصوتين في القصيدة بحيث لم استطع ان أتبين – كناقد – اين هو من الاخر . وعندما اقول ذلك لا اعنـي ان «عطاء» الشاعر كان ناقصا مبتورا ، بالعكس فقد عبر عن مأسـاة الضياع الموحش فاجاد ، او قل صور ووصل كما يقول ابركرومبي .

والواقع ان عبده بدوي في هذه المرحلة من حياته الشعرية يقـوم بتجربة درامية داخل الاطار الغنائي للقصيدة العربية ، لانه اكتشف فيما يبدو ان « الحوار » ليس كمثله شيء في رصد الضجر والملل اللذيـن يبدوان كما لو اصبحا جزءا من الكيان الاجتماعي بله الكون كله !

ولكننا حين نمضي في قراءة قصائده ، ولا سيما هذه التي بيـن ايدينا نحس ان اداته لا تزال ثرية في ابعادها الغنائية . وهي تفقـد جزءا ضخما من تراثها في الخروج المباشر الى الدراما كفعل لواقـع متحرك في فراغ . ان فكرة المأساة تبدو مجرد تهويمة وسط زحـام الغناء ، ولا يكشف التشبث بهاعلى هذا النحو الجديد عنعمقها الحقيقي .

انا لا اريد ان احول بين الشاعر وتجربته الفنية ، وانما اريد ان تتباين الاصوات في استقلال واضح . اريد أن تكون كل اعماله كالنصف الثاني من قصيدته « انا والعالم » واضحا يؤكد الفكرة او يبسطها او يعلل لموقف الغربة والخوف والوحدة .

ومع هذا الوضوح نريد ان نسأل : اترى يكتفى اليوم بالانسانالذي يواجه المجهول الصامت بالرفض الخائف ؟ لماذا يبدو تصويره كأنه قدر لا مهرب منه ؟ اهو انهزام ؟ وفيم البحث اذن ، بل فيم بحثه هو كمفكر وككاتب وكشاعر له شوق حقيقي الى المعنى الانساني الكبير .

قد يهتدي عبده بدوي الى ان البحث عقيم ، ولكن ليس معنى ذلك ان يستسلم الى الابد .

معنى المسئولية :

قصيدة « سراب » لمحمد صبري سليم وقصيدة « الاخرون » لمحيي الدين احمد عبد الرحمن من الاعمال التي تثير قضية الفن بصفة عامـة ودواعي الابداع في الشعر مع رصد لمهمته على النحو الذي يختلف فيـه الدارسون ، ولا يمكن بطبيعة الحال تجاهل هذه القضية شاء الادباء ام لم يشاءوا فقديما قيل :

الشعر صعب وطويل سلمه

واليوم يقال مثل هذا وينفذ الى جوهره بكـل الوسائل لاكتشاف عناصره المنطقية والتلقائية على حد سواء . واذا كان الشعراء همالذيـن يحملون « الاجنة » التي تنتفض وتريد ان تعيش وتبـرز وتثور ليجيشوا كما يقول محيي الدين في قصيدته الحلوة فانهم ايضا عبدة الخيـال والوهم والساعون وراء السراب كما يؤكد صبري سليم .

ولكن القضية : هل يكفر الشاعر بشعره اذا عدم الجدوى ؟

اما صبري سليم فهو يعلن افلاسه ، ولكن محيي الدين عبد الرحمن لا يريد ان يفعل مؤكدا ان « الاخرين » هم الذين يجعلون خلق الشعراء مسخا مشوها كخنفساء ! لهذا كان من الطبيعي ان تؤدي هذه الازمة – ازمة الابداع الشعري – الى الكفر والى الثورة والى ان يكون العمل في اخر الامر محض حماسة او مجرد غناء .

وليس يهم الان ان نتوسعفي مناقشة القضية بهذه الكيفية، اللهم الا اذا جعلنا القصيدتين نقطة انطلاق الى غير التقييم الفني لهما .وعلى الرغم من اني اكره دائما ان اصدر الاحكام مكتفيا غالبا بالتفسير فانني ارى ان قصيدة محمد صبري سليم ينقصها اغلب ما لا تفتقده قصيـدة محيي الدين .

لماذا ؟

هل لان محيي الدين اشعر ؟ ام لان صبري سليم لم يبلور فكرته او لم يستكمل اداته الفنية؟

لست ادري على وجه التحقيق ، ولكني احس ان قصيدة الاول ينقصها عنصر الاثارة فضلا عن اتكائها على الكليشهات التي لا مبرر لها :

يا عمري .. يا نجما في التيه تبدد
ماذا يجديك اذا رحت تنادي
محبوبا تاه
اترى ينفع قيس او تغني ليلاه ؟

وعلى النقيض من ذلك يبدو محيي الدين وهو يحاول الا يتحدث الى قارئه مباشرة عن تجربة شخصية برغم مناجاته لحبيبته التي تشبه ان تكون هنا قضيته كانسان له رسالة وعليه تقع مسئولية .

تشرين والغرق .. قصيدة

انا احب شعر حسن النجمي ، ورأيي فيه انه معلم من معالم شعرنا المعاصر . وفي هذه القصيدة التي اهداها الى الذين تثير عودة تشرين الثاني في نفوسهم شيئا من حق فلسطين ، يذكرني بموضوعه المفضل وبموقفه المسدد .

ويتحدث النجمي حديثه المألوف ، وفي هذه المرة داخل عمودية واضحة ، ليقرر عن طريق غير مباشر ان الفارق بين شاعر عادي وشاعر اخر هو مقدار ما فيصياغته من حيوية على الرغم من انه يجول فيحيز ضيق . وتظهر اصالته دائما بما تمثله عباراته من قيم ، فاذا ذكرنا بعد ان من هذه العبارات تتقاطر الايقاعات والمعاني والبساطة والفكرة والايحاء وذلك في تركيز غنائي مؤثر وبلا زخرفة امكننا ان نضع ايدينا بسهولة على طبيعة شاعريته .

ويهمني ان اذكر انه يجيد في احايين كثيرة استخدام العنصر الدرامي الذي يظنه بعضنا دخيلا على الشعر مع انه جزء منه ما تصورنا انالشاعر يحاور شخصا اخر - قد يكون هو نفسه - ويخاطبه ملونا بخطابهالوانا تلقي ضوءها على وعيه الرشيد .

وفي هذه القصيدة يتضخم ذلك العنصر منذ يتوجه الى ساعة الارق مرة والى عابد الثأر مرة اخرى ، فيبدو متوترا متشوقا الى الموت متحديا ويائسا وحاقدا في آن واحد .

كل هذا جميل ، الا ان القبيح سقوطه في هنات عروضية لست ادري كيف يتورط فيها وهو يمتلكالاداة السوية. واذكر هنا ان القصيدة من البحر الكامل وضربها احذ كعروضها ، جاريا على هذا النحو :

متفاعلن متفاعلن فعلن

وقد حرص هو على أن يجعل الضرب بروي القاف في كلالقصيدة متوسعا احيانا في استخدام الحشو على ضوء الرخصة التي يبيحها الشعر المرسل بصدد عدد التفعيلات . غير ان موسيقاه نبت احيانا فافلتت عدة ابيات من قيود الوزن ، الا ان اكون انا عاجزا عن القراءة الصحيحة فيرجع النشاز الموسيقي الي ، وفيما يلي هذه الابياتالنابية :

جندي هنالك خيمته صبرت
يا عابد الثأر احرقهم به احترق
اني نذرت له - غب النزوح - دمي

لم يكف يسوع .. قصيدة

عبد الرحمن غنيم شاعر اخر ممن اعجب بشعرهم وفي قصيدته«لم يكف يسوع» يثير المشكلة التي اثارها النجمي ، ويقرر في سهولة الشاعر القادر ان اليهود اذا كانوا جرموا بصلب المسيح قديما فهم اليوم يجرمون بصلب مليون عربي ...

ولم يمت المسيح فقد عاش فكرة وعقيدة ورأيا ، وله انصاره تغص بهم الكنائس في لندن وباريس وروما . والعجيب ان هؤلاء الانصارالذين كاد لهم اليهود مذ هموا بالمسيح اعانوهم على قتل العرب في فلسطين ، ولم يقتلوا !

هذه هي فكرة القصيدة ، والبيئة الروحية التي يتشوف اليها الشاعر هي ربوعنا السليبة التي بدأت تفقد موضعها على الخريطة . انها بلد الليمون والزيتون ، بلد الشباب الذاهب والمرح الزائل ، وما عساها تكون لو ظن اهلها انهم ماتوا الى الابد ؟

ان القصيدة تقرع ناقوس البعث والحياة ، وفي الفقرات الاولى منها يعرض علينا الشاعر سلسلة من الصور الحسية التي تحدد ابعاد المأساة . فثمة الذئاب السود التي لا ترحم وهم اليهود ، وثمة الصلبان في كل مكان وفوقها العرب، وثمة اقوام قيل انهم قد عرفوا الله وهم المسيحيون .

والجميل ان الشاعر ينقلنا بسرعة عبر استهلال خطابي غير موفق الى الجو الذابل المؤلم ، الا اننا في وسط هذا لا نملك الا التوقفحيث يتصلب جرس الالفاظ على هتافه المؤثر :

ما اجحد قلبك يا انسان
لم يكف يسوع
لم يكف يسوع
مليون من اهل يسوع
قد صلبوا
قد صلبت حتى للرب ربوع !

والصلبان على نقيض الاشياء الحية ، تنتحب ، وقد تتأجج تحتها الحمم فتعمق الكارثة ويعمق الالم .

قصائد اخرى

وتبقى بعد ذلك ثلاثة قصائد اجملها « الروح المغتربة » للشاعر بدر توفيق وتليها قصيدة « اغنية وثنية » للشاعر قيس السامرائي وبعدهما بكثير « خمس اغنيات » للشاعر عبد المنعم الانصاري لا لانها عمودية ، وانما لانها مشوبة بالكثير من الالفاظ التي اصبح استعمالها لا يثير غير الاحساس بالتبلد كالحمام بمعنى الموت والانام بمعنى الخلق ، وفضلا عن ذلك فثمة مظاهر الفتور والتحجر في التعبير نفسه بحيث يفوتنا بسهولة المعنى الشعري الذي يريده حتى لكانه بلا تجربة على الاطلاق .

والواقع ان القصيدة بهذه الصورة التي طلع بها الانصاري علينا لا تعني الا انه لا يرى العالم امامه بوضوح وبفلسفة محددة ، وانما هو يراه من خلال الصور التقليدية التي جمدت شعرنا واوقعت كثيرا من الشعراء في شرك القديم .

انا لا اتهم الشعر العمودي وانما اتهم الانصاري واسأله لماذا لا يريد ان يكون حيا بالقدر الذي يسمح له ان يبلور حسه بلا قيد قافية ؟ افئن رانت عليه البيئة المحافظة يفقد انسانيته ؟

وتقف قصيدة بدر توفيق في الجانب المقابل تماما لقصيدة الانصاري .. متماسكة بعيدة كل البعد عن تجمد القوالب ، وان يكن فيها من روح صلاح عبد الصبور ظلال غير كثيفة . واكبر الظن ان بدر توفيق سيكون واحدا من الذين يقيمونتصورهم على المواقف التي تؤدي بالكثيرين الى التسليم للغربة والى التمسك بالرموز المنتزعة من تصوراتنا الشعبية في مستواها الرفيع .

واما قصيدة قيس السامرائي فلا ادري ماذا اقول فيها لانني لا اتبين فيها منفذا الى التعرف على حقيقة الجزيئات المكونة للبنية الكلية لها . فهي من نوع النماذج المغلقة التي يحسها المتلقي ولا يتبين ماذا وراءها . حقا ان بعض رموزها قد يصلح مفاتيح لفهمها على نحو او اخر، غير انها تظل بعد ذلك باعثة على الحيرة والتساؤل .

ماذا يريد الشاعر ؟

انني قد اقنع بموسيقيته ، وقد تكفيني مهارته وعلاقات صوره بالوانها الملتهبة المفعمة بلهب الجنس . ولكن هل هذا يكفي لازعم انه يشكل « وحدة » متكاملة من خلال الطابع الغنائي العام ؟

ان اي عمل فني يجب ان يمثل تصميما معينا خاصا او يبدي وجوها مختلفة - بالنسبة للمتلقين المختلفين - على ما قد يرى المشاهدون في

لوحة لا تعدم اي مظهر عيني ملموس لبعث الفكرة العامة ، ويوم يعجز العمل عن بعث تلك الفكرة فانما يجب ان يبحث فيه عن وجوه النقص، لا سيما اذا كان الناقد مكتمل الثقافة والادراك .

ومع ذلك فانا لا ازعم اني هذا الناقد ، فما رأي الشاعر قيس السامرائي ؟

القاهرة **احمد كمال زكي**



بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

***

ليكن هذا الحديث لقاء يجتمع فيه الصديق بالصديق . لقاء بلا قضاة او متهمين ، ولا مجاملة او انتقام ، نتبادل فيه تجربة بتجربة ، ونتشاكى هما بهم . ليكن، على قلة تجاربنا وحيائها وسذاجتها في معظم الاحيان ، ظلا يستريح فيه الصدر على الصدر ، ويتعاون الاخوة على شقة الطريق .

القصة الاولى في العدد الماضي للاستاذ سليمان فياض بعنوان « الغريب » . تتناول موضوع عمال التراحيل الزراعيين في وادي النيل، وهو موضوع خصب لا اظن ان في مصر موضوعا اخر عن شقاء البشر يمكن أن يمس القلب كما يمسه . ولا اعتقد ، فيما اعلم ، ان احدا قد طرقه قبل ذلك في روعة واخلاص يحيي حقي في مجموعته « دماء وطين». موضوع زاخر بالامكانيات ، لولا اننا نحبس انفسنا في المدينة ، ويمر الزمن في الانشغال بالتقاليع الفكرية وبهموم اكل العيش فنتبلد ونتجمد، وننسى الجذور التي تربطنا باهلنا المنسيين في القرى والكفور والنجوع، تحت شمس لا ترحم ، بين براثن البلهارسيا والدوسنطاريا ، في اعماق تعاسة طال عليها النسيان فاستسلمت لخالق الارض والسماء .

وسليمان فياض احد الكتاب المرجوين في هذا الجيل . يعرفه القارىء من مجموعته «عطشان يا صبايا» ، ويذكر اخر قصة له ـ او لنقل اخر ملحمة ـ نشرت على صفحات هذه المجلة ، وكان اسمها ان لم تخني الذاكرة هو « الحريق » ، كما يعرف ان احب الموضوعات اليه هو الريف ، وان بلغ به الطموح احيانا ان يتجاوزه الى الصعيد الانساني والعالمي . القارىء يذكر هذا كله ، ويعجب بصبره واصراره ، وان تمنى في بعض الاحيان لو انه اتجه بنفسه الطويل ودقته في سرد التفاصيل الى القصة الطويلة ، او لو انه عمق تجاربه القصصية بتجارب فكرية وعلمية تكبح جماح المبالغة والتهويل (الميلودرامي) الذي لا يخطئه لديه.

والقصة تصور واحدا من عمال التراحيل سماه الغريب ، يجلس مع رفاقه على شاطىء الترعة ينتظرون المقاول الذي تعاقد معهم ولم يحضر ليدفع اجورهم . ويطول بهم الانتظار دون جدوى ، كما يشتد بهم الظمأ والجوع ، ويقطعون اشجار النخيل في ارض مجاورة ليأكلوا ، ويحسون بجريمتهم قبل أن يطلع النهار . وحين يصر الغريب على البقاء وحده لينتقم من المقاول ، ويشفق عليه ابن بلده « امين » فيجبره على الذهاب معهم تقوم بينهما مشادة تنتهي بمقتل الغريب وبقاء امين الشاب ليأخذ بثأرهم .

والقصة تحتشد بالشخصيات ، دون ان تستطيع تمييز واحدة منها تمييزا حقا ، وتموج بالاحداث والوان الصراع ، دون ان تركز على حدث او تختار صراعا ، وتزخر بوصف النهر والشجر والارض ومع ذلك فلا تخرج منها بصورة محددة عن البيئة ، ويختلط فيها الماضي البعيد والحاضر الراهن ، ويتداخل الواقع الغليظ مع الحلم الذي يقترب من حافة الحمى او الجنون ، فلا تعرف أين الخيط الرئيسي الذي يمكنك ان تمسك به من بين الخيوط المتشابكة المعقدة .

ان الكاتب يمعن في الجزئيات الى الحد الذي يكاد يطغى على الكل. انه لا يترك اشارة أو نأمة الا ذكرها ، ولا يدع خلجة او همسة الا وامعن في تحليلها . وكانه يخشى ان هو اغفل جزئية بسيطة ان يغيب عنك الاحساس الشامل ، مع ان اللمحة ـ وبالذات في القصة القصيرة التي تعتمد على الاختيار والتركيز ـ قد تغني عن التفصيل ، واللمسة قد تعفي من كثرة النقاط والخطوط . انه حين يصف القاعة التي وضعت فيها الام وليدها « الغريب » يزحم الصورة بكل ما يتصل بها وما لا يتصل من التفاصيل ، وكانه يأبى الا ان يوفر عليك جهد التصور . فالفار الصغير الذي يحرك ذنبه وذيله موجود هناك . والذكريات التي تدور في ذهن الوالدة او الوالد حاضرة ، وحركات الاجسام مرصودة بعناية ، والكائنات المادية شاخصة امامك وكان يد الكاتب قد لمستها ومسحتها قبل ان تمسك بالقلم . هذا شيء قد يكون محمودا في الرواية الطويلة، اما في القصة القصيرة فربما كان عيبا ، وربما اعانت مداومة النظر في النماذج العالمية المركزة على تلافيه . اقول هذا ولا ابرىء نفسي ، على قلة تجاربي وتواضع حالها ، من الوقوع فيه .

ومثل هذا يقال عن زحام الصور والفقرات التي قسم اليها القصة. ولو كان لهذا التقسيم ما يبرره من التنقلات الزمانية او المكانية او الفكرية لبدا مقنعا . ولكنه على حاله التي عرضها علينا يشتت شمل القصة ، ويثقلها باجزاء لا يفيدها ان تقتطع منها ، ويشرحها الى اعضاء متفرقة لا يكتمل منها جسد حي . فالفقرة الاولى تتحدث عن ولادة الغريب ، وحين نتقدم في قراءة القصة نحس انها غير مرتبطة ارتباطا عضويا حيا بالفقرات التي تليها . خاصة اذا رأينا ان الطفل المولود سيفاجئنا في الفقرة التالية شيخا عمره مائة وعشرون سنة (ولماذا مائة وعشرون على وجه التحديد ؟ الم يكن يكفي ثمانون او تسعون او حتى مائة ؟) وهنا نضع ايدينا على عنصر المبالغة التي تخالطها السذاجة . المبالغة في حشد التفاصيل التي تجني على الانطباع الكلي، والمبالغة في وصف الحركات الظاهرية التي لا تكشف مع ذلك عن الاعماق بل تطمرها، والمبالغة في الحوار الذي يجري على السنة الشخصيات ، بحيث يبدو في النهاية غير مقنع ولا مبرر من فطرة او طبيعة . فهو الى جانب انه فصيح اكثر مما ينبغي ـ وكم كنت اود لو اخذ موقفا وسطا بين العامية والفصحى وقرب التركيب الفصيح من التركيب الشائع على السنة الفلاحين ـ يبعد عن الصدق في معظم الاحيان . انك تسأل نفسك اين هو الاجير المسكين ، الدائخ في بلاد الله لخلق الله ، تحت وهج الشمس وفي دوامة العرق والفقر والتراب، يسافرون به من بلد الى بلد ومن كفر الى كفر ، يشحن في اللوري كما تشحن البهائم الى السلخانه ، يتنقل من مقاول الى مقاول كما تتنقل السلع والعبيد ، اين هو هذا الاجير المسكين الذي يتفلسف كل هذه الفلسفة ؟ والمصيبة انه ليس فيلسوفا فحسب ، انه كذلك ثائر وخطيب وملحد ايضا اذا لزم الامر ، لا يتورع عن أن يرفع قبضته الى السماء لا بل « انه يود لو يبصق عليها ، لو يغرق كل شيء في بصقته » . من حق اجير التراحيل بالطبع ان يفكر على طريقته في الحياة والموت والمصير، وان يحس اكثر من غيره بشقاء الحياة وتعبها . اما ان يتسلل الى كيانه احد المثقفين ليتكلم عن شقائه بلغته ، فهو أمر لا يمكن ان يكون مقنعا . وكيف يقنعني الغريب الذي يتفكر في دورة الزمن الابدية وينطق احيانا بلسان هيراقليطس او نيتشه او يتمرد على لسان كامي او ماركس؟!

انظر الى هذا الخاطر الذي يحدث به نفسه : « المقاول يأكل الانفار . والانفار يأكلون النخلة الصغيرة . والارض تأكل الكل . ولسوف يأتي يوم يؤكل فيه الجميع : الارض والشمس والنجوم . آكل ومأكول . دائن ومدين . دورة دائبة ، لا يعرف متى تنتهي » . او حين يدعو احد الانفار على المقاول المجهول بأن يدخل جهنم لانه سرب عرقهم فيصيح الغريب ـ لاحظ انه شيخ يبلغ مائة وعشرين سنة من عمره ويعيش على ارض الريف الموحد بالله ـ : جهنم ؟ ماذا يفيدنا ذلك ؟ او حين يبلغ به السخط مداه فيصرخ : لا ادري لماذا يسكت الله عن هذا الظلم ؟ » .

خواطر جميلة بغير شك . ولكن كيف تصدر عن نفر من انفار التراحيل ؟ ـ لنكن اذن صادقين . واذا لم نستطع ان نعيش بين الانفار والكادحين ، فلنحاول على الاقل ان نفهمهم على قدر الطاقة ، حتى يأتي

اليوم الذي تواتينا فيه الفرصة او تلهمنا الشجاعة فنخلع عنا - ولو لايام - رداء البرجوازية ، ونعايش الفلاحين والعاملين ونشقى معهم ونكتب عنهم . هذا الحلم الجميل العسير ! (ليت التفرغ الذي تمنحه حكوماتنا مشكورة للادباء والفنانين ان يكون تفرغا للاندماج في السواد الاعظم من جماهيرنا ، نقضيه في عالمهم السفلي الذي آن لنا ان نعود اليه ، بعيدا عن شعارات المذهبيين والمتحذلقين ، بدلا من ان يقضيه اصحابه بين جدران مزدحمة بالكتب والاوراق !) .

***

ومن ارض المجد العربي الذي رواه اكثر من مليون شهيد بدمائهم الدافئة نلتقي بقصة ((بسكرة)) للاستاذ جنيدي خليفة ، وما اعزه واندره من لقاء .. واذا كان السطر الاول من القصة يكشف عن القصاص الاصيل ، فنحن لا نكاد نقرأ السطر الاول من هذه القصة حتى نكتشف اننا امام قصاص اصيل ، تتدفق لغته تدفق النهر الهادىء . ان بطلها ((العيد)) على وشك العودة من غربته الثانية الى اهله وبلده بسكره ، تساوره الشكوك عن امه واسرته ، ويوسوس له قلبه انهم يخفون عنه اشياء كثيرة ، ويطمرون صمتهم برسائلهم ذات العبارات المألوفة. ويستقل الطائرة في منتصف النهار . وتتيح له رحلته الخطرة ان ينسج تأملاته عن الخطر والموت والعدم الذي يمكن في كل لحظة ان يسقط فيه . وتتيح له مواجهة الخطر ان يسترسل في تأملاته عن الزمن ، وان يكتشف انه اضاع عمره في ((الغربة)) و ((الغرابة)) . ومع ان تجربة الموت تجربة شاملة تدخل في كل لحظة من لحظات عمرنا ، وليست مجرد ((محطة)) نصل اليها في نهاية الطريق ، فان احساسنا بها يزداد عمقا كلما واجهنا الخطر . واين نحس بالخطر اذا لم نحس به ونحن نركب طائرة؟ ومع انه لم يسبق لي ان ركبت طائرة - فقد كنت في اسفاري الطويلة اركب الباخرة مضطرا بحكم رخصها ! - ففي استطاعتي ان اتصور مدى الخطر الممتع الرهيب الذي يحس به من يركبها ، وهو يعلم ان العدم المطلق يخالطه كما يقول الكاتب في كل لحظة ، وانه ان مات مات وسط ((خلاء)) لا وسط ((ملاء)) كما يحدث لمن يموت وهو يسير على قدميه .. ويسترسل العيد في افكاره على طريقة التداعي النفسي الحر ، وكلها افكار تدور حول العدم واللاشيء والملاء والخلاء اللذين يتكرران اكثر من مرة في سياق حديثه مع نفسه . ولكن فكرة الخطر المحدق به لا تزايله لحظة ، لا بل فكرة ان يشاهد بنفسه موته . ومع ذلك نشعر ان الخطر الحقيقي المحدق به ليس هو فراغ الموت والعدم بقدر ما هو فراغ الغربة والاغتراب ، والخطر من ان يصبح لا شيء ، وهو الذي يعذبه الشوق الى ان يصبح شيئا بين اشياء هذا العالم ، روحا تتصل بناسه وزهره وخمره ، وبالاخص بامه التي لا يفتأ يسأل نفسه ان كانت لا تزال حية .

ويعود العيد في النهاية الى بيته ، ويجد امه عجوزا محنية الظهر تتوكأ على كرسي ولكنها حية تقبله ((قبلتين عجوزين)) . ها هو قد عاد نهائيا الى بسكره او الى الجزائر ، وانتهت الرحلة المحفوفة بالخطر ، ولعلها كانت رحلة الوطن العظيم عبر الموت والدم والاخطار الى مرفأ السلام المجيد .

ومع ان التداعي الحر كان مفككا اكثر مما ينبغي له ، ومع ان القصة كانت تكون اكثر تماسكا لو ان تشتت الافكار واسترسالها كان ينطلق ويعود الى مركز واحد هو الخوف على حياة الام - وهي هنا الجزائر نفسها ان كنت قد اصبت الفهم - ومع ان القصة في بعض مواضعها تأخذ طابع التقرير المحايد الذي يخلو من الدفء والتوتر ، ويزدحم بالتأملات المجردة عن العدم والفناء - مع هذا كله فالقصة تبشر بقصاص نرجو على يديه الخير الكثير ، بحيث لا يسعنا الا ان نقول له ولصحابه : مزيدا يا اهل الجزائر !

***

واما القصة الاخيرة ((صلاة سريعة)) فهي لكاتب التقي به لاول مرة ، هو الاستاذ نديم خشفة ، وابادر فاعترف بتقصيري في حقه ، اذ لم يسبق لي ان قرأت له . وتتصدر القصة حكمة صادقة اليمة توحي بأننا سنقرأ شيئا يتصل بحاضرنا العربي الذي يغلي ويتعذب شوقا الى الغد المأمول : ((لا اعرف من المخطىء فيهم ومن المصيب ، ولكن الذي اعرفه ان دم الانسان قد سفك)) . ويصدق ظننا في الحقيقة . فلا نكاد نصل الى السطر الثامن حتى نعرف ان قصتنا تدور في مدينة عربية منع فيها التجول ، ودوى صوت الرصاص . وربما كان من المفارقات الاليمة - التي يبدو كأنها لم تعد تثير دهشتنا لفرط تكرارها في واقعنا العربي - ان يكون اسم البطل ((عيد)) مع انه يشهد مأتم الكرامة ، وان يكون امام مسجد ، فلا تشفع له حرمته ان يمتهنه الجنود بأحذيتهم واسلحتهم ويقتادوا شيخه معهم ليصلي على جثث هؤلاء المقتولين المجهولين ، الذين يقذف بهم الجنود في بطن حفرة . يا لسخرية الكارثة التي تجبر الانسان على الصلاة بقوة السلاح ! ان الطغاة يريدون ان يختموا طغيانهم بالختم الالهي ، وان يؤكدوا ان ضميرهم ما يزال حيا على الرغم من كل شيء . ولم لا؟ ألم يقتلوا من قتلوا تحت شعار ينادون به ، لعله الوطن او العروبة بل لعله الدين نفسه ؟! شعار يتغير كثيرا ، اما الجريمة التي ترتكب باسمه فلا تتغير ؟!

والقصة بعد مركزة ومتماسكة وطبيعية ، لا تكاد تجد فيها كلمة زائدة عن موضعها ، ولا فكرة متحذلقة او طفيلية . انها تختفي وراء هدوء السرد فيها كل عذاب المأساة التي نعيشها ، والتي لا شك في اننا سنجتازها بخير ما دام فينا من يسجلها بهذا الصدق واننا سنعبرها حتما الى غد قرب او بعد لا يسود فيه الظلام ، ولا يمتهن الانسان . تحية لنديم خشفة وللبلد الذي تحدث عنه ، وان كنت لا لا اعرف من اي بلد عربي هو .

***

واخيرا تأتي قصة همنجواي ((فكان لطيف حسن الاضاءة)) من ترجمة الاستاذ صبري حافظ الذي نقرأ له في نفس العدد بحثا قيما عن الجزائر . وقد كفاني المترجم بتعليقه المتحمس الممتاز عناء الكلام عنها ، وخيرا فعل . فمعلوماتي عن همنجواي قاصرة ومحدودة ، وعمل كهذا العمل الرائع كان خليقا ان يضطرني للكلام عنه الى قراءة ما لم اقرأه بعد لصاحبه حتى تكتمل الصورة ، والبحث كما هي عادتي التي لا استطيع التخلص منها عن مراجع طويلة لكتابة سطور قليلة .

فلنحمد للمترجم صنيعه ، ولندع اصدقاءنا من قصاصي العدد الماضي ولندع انفسنا معهم الى النظر فيه وفي امثاله والتعلم منه .؟

القاهرة — **عبد الغفار مكاوي**

حكاية من الشاطئ الشمالي

ما زال في اقصى الشمال من بلادنا حكاية تقال
يلغو بها الرواه
لما يضج في السواعد الفتية الالم
ويصدأ النغم
على شواطىء الصباح
ويذبل الغناء في الشفاه .. يستحيل كالنواح
ويصبح النداء
« يال النبي » كصرخة بلا رجاء *
لما يمد البحر اذرعا من الرجال
تنوء تحت حملها على الرمال
قد القموه البحر عل يسمح القدر
وذلك القدر
ليس الذي يكور الصغار في الارحام
ولا الذي يعود بالغريب من متاهة الزمن
ليلتقي مع الغريب
وليس ذلك الذي يرقرق الاحلام في عيون العاشقين
لكنما القدر
هناك في اقصى الشمال مارد كبير
ياكم على عبيده قد قسم الارزاق
والويل لو عبد عصى ولو برزقه المتاح ضاق
اذن لصعد النفوس للتراق
وسل من مكانها العيون والاحداق
فكلمة الاقدار في اقصى الشمال لا ترد
لا بد للذين يخضعون مما ليس منه بد

لو شاعر الم في الصباح
والفجر يلقي ظله على الشواطىء الفساح
والبحر معبد مخضب الشفق
واول الشروق عسجد يمور في الافق
لراعه الصباح والشواطىء الفساح
وراح في قصيدة عصماء يغبط الرجال
وهام في انشودة مرهفة الخيال
عن روعة الصباح
ورزقه المتاح
لكنما لو واحد من الرجال
تذكر العيال
وانداح في عروقه الصقيع في الرمال
لقال الف غنوة عن الجراح
تلك التي تولد في الصباح
ورجع الاشواق والاهات والنواح
حتى يظن شاعر غريب
يفلسف الحياة
ان الذي يرجع الغناء
يهيم في الدعاء
لربة الامواج والبحار والانواء
كي تثقل الشباك بالاسماك
لعلها في وهم هذا الشاعر الغريب
لا تستجيب
الا على ترنيمة النواح والجراح

القاهرة — **محمد صالح الخولاني**

---

* جملة تتردد بين مقاطع غناء الصيادين على شاطىء بور سعيد واصلها « يا آل النبي » .

الحلبة تنتظرنا ...

قصة بقلم يوسف شرورو

« الى اخي فضل صاحب الكلمات المفعمة بالامل ، وبخضرة المروج في الارض التي تركناها هناك ترتعش من عتمة الايام . آمل ان تصافحها عيناه بحب ، ويؤمن باننا لسنا وحدنا من يحب ارضنا ويعمل لاستعادتها . »

يوسف

كان الموعد في الثامنة والنصف مساء يوم السبت . حي « فنشلي رود » يعرفه جيدا فقد امتصت شوارعه عمره الندي يوم القته طائرة ضخمة على ارض لندن . الحفلة صاخبة وماجنة . دعاه « رونالد » منذ ايام حين قابله في قاعة الكلية . وقال له وهو يبتسم ابتسامة غامضة قرب وجهه :

— يجب أن تحضر يا ابراهيم ، فهناك مفاجأة لك .

ما زال يسير وحيدا يحمل فوق كتفيه سبعة وعشرين عاما لا يدري كيف مرت عليه . احيانا كان يجلس في غرفته الضيقة العارية الكائنة في « ليمبولا رود » يسترجع الاماكن التي عاش فيها منذ اطل بعينيه مراقبا هذه الحياة . كانت الاماكن عديدة . والاسماء تتشابك في عقله ، واسم بلاده يسطع حزينا كئيبا طالبا عودة مضيئة بعد غيابه الطويل في اوروبا .. وما زال يذكر كلمات عفوية قالها له صديق مثقف قبل سفره :

— عش الحياة كمصارع اصيل . لا كمصارع عضلات ، بل مصارع كلمات .

وكانت دوما معه . يذكرها حين يبدأ احدهم ، وما اكثرهم ، مناقشة قضية بلاده المرتعشة دون ذراع قوي يحميها . وكان من عادته ان يذهب متأخرا الى الحفلات ، حتى يرى الوجوه بضربات نظرية سريعة ، وحتى يتأهب لدخول حلبة . ان كان هناك من حلبة . كان يبحث عن الفوز ويتعلم من الهزيمة دون ان تقعده كحيوان جريح يلهث . وقد علمته حياته الوحيدة في لندن ان يعتمد على نفسه ، فالمشاركات العاطفية والوجدانية تتفتت بسهولة عجيبة كرغيف خبز يلتهمه جائع . وكان الرقم الذي يبحث عنه هو (٤٩) . وكانت الشقة في الطابق الثالث ، والشوارع الجانبية هادئة يسكنها موتى يعيشون خلف غرف مغلقة ينيرها تلفزيون يسلب الزمن من عيون الناس بابتسامات مزيفة .

وجاءته انغام موسيقية راقصة تضج عبر الشارع الصامت . تابع سيره العادي ، الرقم الاسود (٤٩) قد الصق بعناية على باب البيت المفتوح ابدا . درجات البيت عارية لا سجاد يغطيها . الطابق الاول لا حياة فيه . درجات اخرى اوصلته الطابق الثاني الساكن الا من اضواء شاحبة في الغرفة الخلفية الكبيرة . تأهب ليقرع الجرس . الباب لا مغلق . الاصوات مختلطة ومرتفعة . وانشق الباب عن قامته العربية ودخل . وقد برقت عيناه كعيني قط اسود . الوجوه لا يعرفها . جديدة كاحذية براقة في واجهة مخزن احذية في بيروت المرحة . يرقصون ويضحكون ، ويشربون ، ويقبلون بعضهم بعضا .

سار نحو زاوية لياخذ مكانا يطل فيه على الجميع ، وفجأة سمع صوت رونالد ، الذي يعرفه جيدا يقول :

— نحن بانتظارك هنا ياابراهيم !

كان رونالد يعانق بيده اليمنى كاسا من الويسكي . ويقف وسط مجموعة خليطة من شابات وشبان . كانوا اربع فتيات وثلاثة شبان . لم يصافحهم . فهذه عادته . يصافح الجميع عند نهاية السهرة . وفي الوقت ذاته يمتحن عقولهم ومشاعرهم . ان كانت صديقة او عدوة . انه ما زال يعيش حياته كمصارع كلمات اصيل .

قال شاب يحمل وجها مستطيلا ، انبثق منه انف معوج :

— هل انت عربي ؟ لقد حدثنا رونالد عنك كثيرا .

لهجة السؤال لم تعجبه . كانت مغلفة بورق ناعم مصقول وسخ . وقدم له رونالد سيجارة . وتبرع اخر فاشعلها له . ونظر الى صاحب السؤال مرة ثانية . كان الانف انف انسان بشع في تفكيره ، وهو سيرد عليه بلهجة فاترة وهادئة :

— نعم انا عربي ، هل تعترض ؟

وخزته نجمة داود المعلقة على صدر فتاة ترتدي فستانا ازرق . واعطى الحكم اشارة البدء . كانت الحلبة غرفة واسعة احتلتها اقدام كثيرة . ابتلع الوجوه في عقله ، فقد كانت مستعدة لحديث طويل يبدأ بعلامات استفهام غريبة . وانصبت العيون على وجهه لتخيفه ، فضحك في داخله : وهل ترعبه العيون ؟ وانتقلت اجسام الواقفين الى جهة بعيدة في نهاية الغرفة ، وشاهد فتاة تتلوى على انغام موسيقية من بلاده ، تقلد رقصا عربيا . وابتسم ، دعهم يفرحون بالتقليد .

قالت فتاة وقفت امام المرآة اكثر من ساعة :

— هل ما زلتم تفكرون بالعودة الى اسرائيل ؟؟

وجاءت كلماته بسيطة لا انفعال فيها :

— لنفترض ان اسمك القديم كان مس « دفنسكي » ولم يعجبك الاسم لسبب ما ، فاطلقت اسما اخر . ان الناس سيذكرون اسمك الاول الذي التصق بجلدك منذ ولادتك . والعالم يعرف ان المنطقة هناك تسمى فلسطين ، ونحن لا نفكر بالعودة فقط ، بل نعمل للعودة ، ولن اقف خطيبا فيكم لاقول اننا سنعود رغم كل شيء . ولكن سيأتي اليوم الذي نعمل له .

وسحب رونالد الانكليزي نفسا عاديا من سيجارته . وابتسم بصداقة . لقد تعرف على رونالد في سنته الجامعية الثانية . واعتادا على الذهاب مرات عديدة الى مقهى مجاور في « توتنهام كورت رود » للمناقشة والحديث . واصبح رونالد صديقا وفيا لبلاده . وعرف الان انه اعد هذه المفاجأة له ليتحدث مع قامات جاءت من بلاد كانت بلاده . وعليه ان يريهم بانها سترجع لتحمل اسمها العربي في يوم لا يعرفه ابراهيم نفسه .

وبحركة لاشعورية احتضنت الفتاة نجمتها المتشبطة على صدرها كذبابة كسيحة . وانفعل الشاب الذي لم يصافحه ، واقترب خطوة من ابراهيم الذي كان ينفث دخان سيجارته في المكان . وضع ابراهيم عينيه الواسعتين في عيني صاحب الانف . ونظر وانتظر ، واخيرا قال الانف المنبثق :

— تعودون اليها ! ها ، ها ، تاريخيا هي بلادنا . اقمنا فيها منذ الاف السنين ، وعدنا اليها .

واشتم ابراهيم سخرية في الحديث . لم ينفعل ، ولم يثر ، فلن يستمعوا اليه ان كان في حالة هيجان . وربت رونالد بيده اليسرى على كتف الانف وقال :

— بهدوء ، بهدوء يا ديفيد ، فسيضحك منك الجميع !

وعاد ليرشف من كاس الويسكي ، دون ان ينظر الى احد . كانت

الحلبة فارغة يا ابراهيم في انتظار كلماتك . كن هادئا كعادتك . قال :
ـ انا اعتقد انك قرات التاريخ بسرعة دون ان تحلل الحوادث. فانتم عشتم في فلسطين كافراد تحت نظام دولة اخرى . ستقول عشنا تحت عرش دولة سليمان . ولهذا فانتم تملكون الحق في العيش فيها الان . وبهذا سنغير كتاب القانون الدولي ، وستجند كل دولة جيوشها لتسترجع بلادا عاشت فيها مجموعة من سكانها . ونحن سنذهب ونسترجع اسبانيا لاننا اقمنا فيها دولة دامت حوالي الف سنة .
ودخل الحلبة وجه اخربعينين ساهمتين ليقول :
ـ ديفيد لا يعني هذا . هو يعني ان اسرائيل وطن اليهود منذ ان تاهوا في الصحراء .
ابعد رونالد الكأس عن شفتيه ، وقال :
ـ سوف يتجمع المسيحيون في فلسطين لاقامة دولة هناك لان المسيح ولد وعاش وصلب فيها ، وسوف نطلب من المسلمين في اندونيسيا والباكستان وحتى الصين ان يذهبوا ويقيموا دولة في السعودية . وستكون مهزلة . لكل دين دولة وارض . انا كما درست ، وكما اعرف لا اقر بهذا ولا يقره علماء القانون . والتفت اليه ليقول :
ـ ما رأيك يا ابراهيم ؟
ـ وسوف نسأل البوذيين أن يتجمعوا في الهند . وبهذا سنجد وستبقى معظم الدول بلا رعايا ، وستعم العالم فوضى خبيثة كلعنة الطاعون .

تهامس شابان وابتسمت فتاة لابراهيم ، وجرع رونالد من الويسكي. وعمت الغرفة موسيقى راقصة ، تعانق لسماعها مجموعة واخذت ترقص . كان ابراهيم يشعل سيجارة ثانية ويعب منها وصاحب الانف ينقل جسده من قدم الى اخرى ،ويحترق ليقول شيئا فيه فكرة. الابتسامة على وجه ابراهيم منعشة واثقة . هو يعلم انه جاء هنا ليتعلم كيف يناقش القضايا بموضوعية علمية . العاطفة هنا لا تفيد . تعلم كثيرا من اصحاب الاعصاب الباردة ، ولكن اوروبا لم تبدل حرارة ايمانه . وجد نفسه يسال واحدا منهم :
ـ اين تعيش في فلسطين الان ؟
ـ اعيش في حيفا قريبا من جبل الكرمل .
الاسماء ما زالت عربية ، لم يغيروها . هم يعلمون انها سترجع لتحتضن عربها ولا ظلال للغربة، او للقحط في عيونها . هم يعلمون انها ستهزم الايام الجياع من حياتها . هم يعلمون ان الغد سيرف كعاصفة مجنحة تطرد الامس الدامي في عروقها . وفكر ابراهيم . هل غيروا شوارعها ؟ هل بدلوا فيها ؟ كان عند سؤاله عن بلاده يقول « انا عربي من العالم العربي » . وكان عندما يسأله شرطي غبي في عاصمة من عواصم بلاده عن اسم المدينة التي ولد فيها ، يقول « ولدت في فلسطين يا سيد» ويبتسم شرطي الامن العام ويسلقه بالف سؤال وسؤال ، ويسمعه من الكلمات الجريحة التي تقبع في قلبه وعقله . ويفتح فمه ليربط الحروف المتنافرة « انتم تخربون في كل مكان . انتم اداة للفساد . يجب ان تجمعوا في مكان لا تغادروه ابدا .»
ويبتسم ابراهيم للشرطي المسكين الذي لا يعلم . فالناس في الشوارع المزدحمة عرب يحبون الارض التي ولد عليها . البيوت تدور فيها احاديث عاطفية عن استرجاعها ، الكل يتحدث عن هذا . لا ، لن يكره الشرطي فهو يختفي خلف سترته الرسمية . لا ، لن تبكيه كلمات الشرطة فهي عادية معادة فقدت معناها وبريقها . وهنا في اوروبا يعلمون ان العرب ، كل العرب ، يعملون لموعد الغد في فلسطين .
جاء صوت رونالد قائلا له :
ـ بم تفكر يا ابراهيم ؟
ـ افكر في وطني الذي بعثر ايامي بعد تبعثره .
وغاب رونالد في مكان ما في الغرفة . ووقف ابراهيم يحدق في فتاة اسرائيلية ترقص على انغام موسيقية . وقد التف الجميع يشجعونها ويصفقون لها ، وهي تتلوى كأنها تعاني الاما في معدتها . وكان شاب سكير يقلد خطواتها . لن يقبض ابراهيم الا غيمة . لن يمتع نفسه . والسنابل في بلاده لا ترويها الايادي شعبه . كان يظن ان الغربة اخمدت احاسيسه كانسان . ودارت كسيارة تدهورت في واد عميق . وفقدت الشعور بانها تعيش . الليلة في هذه الغرفة ، شعر بانه وحيد ، يحمل في داخله وجوه الناس الفرحة والحزينة التي تسعى في بلاده البعيدة. ولكن من المحزن ان تجد النفس بانها وحيدة ولو كانت تعيش بين ملايين من الناس . ما زال يحن كل يوم ليرتمي تحت ظلال شجرة تنبت في ارضه . ما زال يهفو قلبه وراء كل اسم مدينة من عواصم بلاده . العطر المنتشر هنا ، ولا الضوء الباهت ، ولا النغم الموسيقي ينسيه يوما بانه وراء قضية لا ككل القضايا .
وتقدمت منه فتاة شقراء رائعة تشتهى في ايام الخصب وقالت :
ـ هل تحب ان ترقص معي ؟
وتذكر الاصدقاء الذين يعملون خلف مكاتبهم في دور الصحف ، والام الكئيبة المنتظرة ابدا ، والاخوة الذين يعرقون ويعرقون ليرسلوا له نقودا شهرية يقتطعونها من رواتبهم الضئيلة ، واخيرا قال للفتاة :
ـ اتمنى لو اطرد الكآبة التي تلازمني لارقص معك .
حزنت لاجله الفتاة . لقد جاءت هنا لتسعد ايامها الوحيدة . لن تجلس بجانبه لتواسيه . ان الايام تهرب سريعا دون انتظار . ستجرب حظها مع غيره . وانتقلت لتنضم الى مجموعة اخرى . رونالد ما زال بعيدا عنه . وما زال هو بعيدا عن الجميع . ولكن لماذا ينزوي بعيدا عنهم ؟ سيلقي بنفسه وسط المجموعة . يا حسرة . التعب يغلفه بقسوة. يريد ان يتخلص منه وينطلق ، ضاحكا فرحا ، كعمره الذي يسير فيه .
واقترب من فتاة تجلس وحيدة وتدخن بهدوء غريب . قال لها باسما :
ـ لم انت وحيدة ، لنرقص ، فالرقص غذاء وذكرى لايامنا القادمة.
وضحكت الفتاة . تذكر انه رآها في مكان ما . حاول ان يذكر المكان . لم يوفق . تابعت الفتاة مسرحانها البعيد ، وتدخينها المتواصل. وحدق في وجهها فقالت له :

ـ هل تقابلنا من قبل ؟ انا اذكر انني رايت وجهك .
كانت الفتاة تعرف وجهه منقبل . وهو يعرفها من قبل . يذكر انه

حدثها طويلا عن قضيته وعنعالمه العربي الواسع ، وعن الحب العميق الذي يربط الناس هناك . آه . وقفز فرحا :
ـ تقابلنا في مطعمالجامعة . وجبة الغداء : هل هذا صحيح؟

كانت انكليزية من برمنغهام تدرس الادب الانكليزي . صغيرة . كاثوليكية . تهوى القصص الدينية . وتحن لمدينتها الفقيرة ولابيها العامل البسيط في محطة القطار هناك . احبت عربيا عاش في بيتهم ودرس في جامعة برمنغهام يوما ما . وعندما غادر المدينة غادرتها هي الى لندن لتتابع دراستها . وستعمل عندما تحصل على الشهادة في مهنة التدريس. تذكر اسمها الان ((غينر)) . نهض ليراقصها . هو لا يدري انها عندما تراه ترى وجه العربي الذي غاب راجعا الى بلاده . حدثته طويلا عنه . وحدثته عن فرحتها بصداقته . فهي تشعر بالامان والراحة مع العرب . افرحته كلماتها البسيطة . وانطلق ليرقص كما لم يرقص من قبل.ونبع عرقه ، وضحكت الفتاة وتوارى حزنها بعيدا عن الوجه الجميل الذي تحمله . انتهت الرقصة . فاخذها الى مقعدها . وذهب ليحضر قدحا من البيرة لنفسه . وعند عودته وجد وجه الانف يحادثها ويقف بجانبها. هل ارادوا أن يحاصروه ؟

ناولها قدح البيرة ووقف بجانبها . وبدأت رقصة جديدة . سألها وجه الانف ان ترقص معه . فرفضتبادبواخبرتهانها معصديقها ابراهيم. وابتسم بصعوبة لها ، ورجع مهزوما الى جماعته .
قالت غينر لابراهيم :
ـ سألني عنك . وان كنت صديقتك . فقلت له ((نعم)) وعندها قال ((هو عربي))كوني حذرة ! فاخبرته انني احب العرب ، وقد دعاني الى حفلة راقصة مساء الغد وقال ((تعالي مع صديقك العربي)) .
جاء رونالد وانضم اليهما معانقا كأس الويسكي كعادته ، وبعد لحظات لحقت به المجموعة القادمة من بلاد كانت عربية يوما ما . انتصبت قامة ابراهيم فالحكم اعطى اشارة الشوط الثاني . كنا على يقين تام بان غينر ستكون بجانبه هذه المرة . وكان وجه الانف يمضغ كلاما طويلا داخل فمه . والفتاة ما زالت تسند نجمتها خوفا من سقوطها فجأة . الوجوه لم تتغير . كانت قسماتها مشدودة لا راحة فيها . بل غليان وانفعال وكبت لثورة حمق ما زالت خرساء تريد ان تنطق . ضجت موسيقى رقصة الدبكة التي يجيدها . هذه خطة فيها توقيت زمني . قال واحد منهم وهو يبتسم لابراهيم :

ـ هيا لنرقص هذهالرقصة معا فهي من بلادنا !
وبسرعة تشابكت اياديهم . وانتفضت غينر لتقول لهم :
ـ انتم اعتدتم على السرقة . سرقتم الارض وحاولتم ان تلصقوا اسمكم عليها . والان تحاولوا ان تسرقوا هذه الرقصة وتقولوا انها من بلادكم .

دهشوا وتوقفوا . وتفتتت الاصابع المتشابكة . وانتصبت حبات عيونهم مبهورة من كلمات الفتاة . وابتسم رونالد لها . ونظر اليها ابراهيم نظرات شكر عميقة . وتقدمت فتاة من مجموعتهم نحو غينروالكره يتواثب على لسانها وقالت :
ـ نحن لم نسرق الارض . اخذناها بالقوة ولن يستطع احد ان ياخذها منا .

واشار ابراهيم لغينر ان تصمت وتترك له الحلبة لفترة منالزمن. قال للفتاة ، بهدوء :
ـ انت تذكرين الحروب الصليبية . لقد جاءت الجيوش الاوروبية واخذتها منا . وعاشوا هناك سنين طويلة . وفي النهاية عادت لنا وعدنا اليها .
انفجر صوت غاضب ليقول بكراهية دفينة :

ـ في هذه المرة لن تعود اليكم !!
ـ هكذا تقولانت . ونحن نقول العكس . لنا موعد عبر الايام

ينتظر . وبصراحة ، انا مللتالصراخ حول هذه الحكايات . فان اردتم النقاش الهادىء فاجلسوا . وان اردتم الصياح فنصيحتي لكم ان تذهبوا الى حديقة الهايد بارك القريبة من هنا .

وعاد الى سيجارته ليحرقها ، ولا يدري لم تخيلهم في ملابس القتال ينتظرون تصويب رصاصهم الى صدره ؟ ولا يدري كيف جاءته صورة اخيه وهو في زنزانة عربية . يحاكم بقسوة ، ويهان كحيوان . وتوجه اليه التهم البشعة ، لانه أراد تنظيم بعض الشباب وتدريبهم على استعمال السلاح ، انتظارا للموعد الذي يخطو عبر الايام الان .وغفر للذين سجنوه لانهم اخوة من بلاد تضم عالمهم العربي . هو يذكر انه استلم منه رسالة بعد خروجهمنالسجن للمرة الثانية يقول فيها ((اخي، اشعر باني نضجت واصبحت رجلا . كانت المعاملة في البداية سيئة . وعندما عرفوا السبب ابتسمت عيونهم بحب صادق لنا . وصافحونا بحرارة . اخي ، بعدها شعرت باننا لسنا وحدنا من يحب ارضنا . اخي، الكل يعمل معنا .)) كم عانقت روحه الاخ المنكب على كتبه ذات اللغة العربية . كم ودلوصافحت يده قلوب من صافحوا يد اخيه . كم تاقت نفسه لرؤية وجه امه وهي تتلقى اخبار سجن ولدها ليلة العيد الكبير. وفكر ، عبر العذاب الطويل الطويل في جبهات الكفاح الكثيرة ، تظل القضية تلك الكلمة الجريحة على جبين الارض ، في يوم ما سيتوقف نزيف الكلمة ويلتحم الجرح . ولكن متى ؟ هو نفسه لا يدري !! ولكنه على يقين بان اجنحة الشمس ستلفح الوجوه العربية من جديد على ترابها الذي كان خصبا يوم غادرها .

سمع صوت غينر يقول له :
ـ ابراهيم لنرقص معا . انا اعرف انك تتعذب بصمت .
وطوق خصرها وراح يرقص على انغام منسابة كجدول احلام. هو لا يدري من قال له : ((ابراهيم لا تنكس الراية وتستسلم . دع الراية ابدا ترفرف على جبينك .)) انه لم يبتعد عن الراية ، بل العذاب صامت كما قالت غينر .ولا يستطيع التعبير عنه . انه منتصب على جثثنا حتى تعود الارض . ان الكلمات لتعجز احيانا ان تكون رسول انسان يتعذب. فعليه ان يعمل ويعمل حتى تشده الجذور الذي سحقها في يوم حفر تاريخه في عقله .

كانت عينان تحدقان في وجهه بحب ، وفتاة كاثوليكية تعشق بلاده تلتصق به ، ورونالد يدور كنحلة طليقة حول الوجوه ، يضحك ويربت على الاكتاف والخدود ، والمجموعة الاسرائيلية متكومة في زاوية كبقايا مستعملة القيت باهمال ، الهمس يدور بينهم ، ورونالد يهمس فياذنه من جديد :
ـ لقد ضيعت عليهم سهرتهم يا ابراهيم .

((كم من الليالي عبر سنين الغربة ضاعت احلام نومنا . كم من السنين تبعثرت عبر الزمن الضائع . ونحن ما زلنا نمتص المذلة كل لحظة . انها لاهانة حزينة ان يكون الانسان بلا وطن يا رونالد)) .

دارت هذه الكلمات في عقله . لم يقلها لصديقه الانكليزي ، فهو عربي والعالم العربي كله وطن له . هو ينتمي الى وجود الناس هناك . هو واحد من ملايين عديدة. لا يعرف كيف انتهت الرقصة . كان فيعالم بعيد طالما هرب اليه . وتلاشت صورة الغرفة من عينيه للحظات . نسي غينر ورونالد وكل الوجوه . وانتفض من جديد . وتذكر كلمات صديقه الذي قالها له قبل سفره : ((عش الحياة كمصارع اصيل . لا كمصارع عضلات ، بل مصارعكلمات.)) وعاد الى الغرفة من جديد ، فطلب من رونالد ان يضع اسطوانة رقصة الدبكة . وحمل منديلا بخطوط حمراء في يده . وبدأ يرقص وحيدا رقصته العربية . وقف جميع من في الغرفة ليشاهدوه . وانفعل . وحلق كنسر كبير فارشا اجنحته السحرية

الكبيرة على وجوه الجميع . وتخيل نفسه في بلاده . يرقص ويـــده تتشابك مع ايد حبيبة ، ورفت نفسه فرحا بلقاء عيون الاصدقاء والاخوة، الندية ، وانطلق يغني اغنية لوديع الصافي الرجل . وقبلته عيون زرقاء وخضراء وسوداء . وقبل العيون البعيدة ، ففي ضحكها وحزنها عبـــير بلاده . وتمنى لو تدوم الرقصة حتى نهاية الليل .

صفق له الجميع ، وتحمس رونالد رافعا كأسه الى الاعلى ، وقال وهو يبتسم له :

ــ أنا اشرب نخب بلادك .

لم ير الافواه التي شربت النخب ، بل ربت بيده على كتف رونالد شاكرا . والقت غينر بنفسها بين ذراعيه وقبلته قبلة طويلة . احتار لم لم يذق حلاوة شفتيها ، الانه وراء قضية ؟ لقد اضحكته هذه الفكـــرة، وتخيل نفسه في حلبة تقبلهفتاة لفوزه . ولكن هل للفوز الصغير منقيمة؟ واقتربت منه قامات لم يعرفها من قبل ، وانطلقت الكلمات من الافـــواه المحيطة « عظيم ، رائع ،جميل ، اين تعلمت هذا . هل ترقصون بمثـــل هذه الروعة في بلادكم؟ »

وفكر في ان يقول لهم « آه لو ترى عيونكم رقصات الفلاحين فـــي بلادي . اه لو انتقلت الرقصات الى فلسطين » . وفجأة انطلق صوت حاقد ليقول :

ــ نحن من فكر بان نرقصها هنا . ولكن كلمات فتاة منكم اوقفتنـــا عن متابعة الرقص .

فاجاب ابراهيم :

ــ حياتكم اندفاعة جياشة توقفها نهاية . حياتنا تفكير ترفـــده استمرارية عمل . نحن لا نبدأ شيئا ان كنا لا نؤمن بنهايته المرسومة . انتم تبدأون ، فتتخبطون ، واخيرا تبكون قرب حائط وتجعلونه فيمـــا بعد مقدسا .

عاد ليدخن سيجارته ، ويراقب الوجوه الحاقدة . واخترق رونالد الغرفة متجها نحو زاوية « البيك اب » ليضع اسطوانة الدبكة .وتدفقت موسيقى مخضلة بالوعود الخيرة ، رف لها قلب ابراهيم . تقدم رونالد منهم وقال :

ــ هذه هي الموسيقى . الغرفة لكم . والرقص في الانتظار اناردتم.

وحملقت الحيرة في عيونهم . وكان القلق يغلف حركاتهم . ماذا يفعلـــون ؟

وتدحرج وجه الانف ليقول :

ــ سنرقص الليلة القادمة . ستكون لنا حفلة انتهم مدعوون اليها. وسنغادر الان . شكرا يا رونالد . الى اللقاء يا ابراهيم .

ــ وهل سيكون بيننا لقاء الا هناك . سنتقابل في خندق صغـــير او كبير . وسنرقص نحن اصحابالارض ، الدبكة ، فوق التربة العطشى لرؤيتنـــا .

كانت الفتاة ما تزال تتشبث بنجمتها المتشعبطة على صدرهـــا كذبابة كسيحة ، تخاف عليها من السقوط ، وعندما انسلت اجسامهـــم عبر الباب الخارجي كان وجه الانف يتقدمهم كقائد عصابة .

وابتسم ابراهيم أبتسامة فرحة وفكر « هل للفوز الصغير من قيمة ومن معنى ؟ » وكوقع الندى غمرته كلمات اخيه الخضراء « اخي » بعدها شعرت باننا لسنا وحدنا من يحب ارضنا . أخي ، الكل يعمل معنا . »

وسار بخطوات واثقة لينضم الى الوجوه الصديقة في الغرفـــة . ولن ينسيه العطر المنتشر هنا ، ولا الضوء الباهت ، ولا النغم الموسيقي، انه وراء قضية لا ككلالقضايا.

لندن — يوسف شرورو

محمد الفيتوري

التجربة الرومانسية في التغني بافريقيا

بقلم: أنيس البياع

ليس ثمة شك في ان تطورا كبيرا وتغيرا جذريا قد حدث للفن بجميع صوره واشكاله وتعبيراته . وقد ارتبط هذا التغيير بالدرجة الاولى بحركة تطور المجتمع . فبعد ان كان الفن تعبيرا عن قيم المجتمع العبودي الاول اصبح انعكاسا للصراع الدائر بين مختلف القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واصبح كذلك اكثر ارتباطا بكل الجزئيات الصغيرة لواقع الانسان الحياتي واكثر تعبيرا عنها .

والشعر ـ كاحد الفنون التي مارسها الانسان منذ عصور الحضارة الاولى يعتبر من اهم تلك الفنون التي عبرت عن حركة المجتمع وصراعاته وتفاعلاته . وكان التعبير الشعري اكثر اتصالا ـ بما له من موسيقى وقدرة على النفاذ الى الوجدان الفردي والجماعي ـ بحياة الجماهير . ومن ثم فانه لا يمكننا ان نغفل الدور الذي قام به الشعراء في الدفاع عن قضايا الانسان المصيرية وفي تعميق هذه القضايا واثرائها . ولست احاول هنا ان اؤرخ لحركة الشعر ولكني اردت ان اشير فقط الى ان للشعر دورا هاما ـ أن لم يكن في التعبير عن قضايا الناس ـ ففي رصد المشكلات والتجارب الانسانية الفردية التي تتولد اساسا من الظروف المجتمعية .

فالى اي حد استطاع الشعر العربي ان يتبنى هذا المفهوم ؟ وما هي اهم الاتجاهات البارزة فيه ؟

الواقع ان حركة الشعر العربي المعاصر قد تمخضت اخيرا عن وجود بعض التيارات والاتجاهات الفنية . ولقد حاول احد النقاد (١) بلورة هذه الاتجاهات في مدارس ثلاث : مدرسة الكلاسيكية المرتدة ، ومدرسة المنزع العالمي الجديد ، ومدرسة الفن القومي وقال ان الفن القومي هو الانعكاس الحي للرؤى التي تسبح في وجدان مجتمع ما في لحظات سيكولوجية معينة .

ومحاولة تقسيم الحركة الشعرية الى مدارس ثلاث لم يكتب لها النجاح لانها لم تكن استقراء لما تمخضت عنه دراسة نماذج متباينة من الشعر العربي . ثم ان الناقد لم يحاول تأكيد دراسته بدراسات اخرى متتابعة . الا ان ما يلفت النظر في هذه المحاولة انفراد الفن القومي بمدرسة مستقلة من مدارس الشعر العربي . وذلك ان هناك بعض الدلائل على وجود نماذج من الشعر القومي وان كانت هذه النماذج لم تكون بعد مدرسة لها سماتها الخاصة .

والفيتوري ـ موضوع دراستنا ـ احد الشعراء القوميين واحد الذين عبروا عن قضايا مجتمعهم بكل حرارة وصدق . وان كان قد انزوى بعيدا عن الاضواء بعد صدور ديوانه الاول « اغاني افريقيا » حتى ان بعض النقاد قالوا ان الفيتوري قد نضب شعره بعد ان عبر عن ازمته الذاتية تلك الازمة التي تولدت اساسا من لون بشرته الاسود والتي كانت قصائد ديوانه الاول صدى لها .

الا ان صدور الديوان الثاني للشاعر « عاشق من افريقيا » قد خيب ظنون الذين تحاملوا عليه اكثر مما يجب . ان صدور هذا الديوان يحمل دلالات عميقة وهي ان (رحلته الشعرية الفريدة) (٢) لم تتوقف وان وجدانه ما زال ينبض وتجربته تزداد تكثفا وعمقا على مر الايام .. وانه قد استطاع فعلا ان يستفيد من رحلة السنوات التسع بين صدور ديوانيه الاول والثاني .

وحتى يتسنى لنا اختبار ذلك لا بد من القيام بمحاولة لرصد هذه الرحلة الشعرية . وهي ليست محاولة لتقييم الشاعر بقدر ما هي محاولة لفهمه ومدى تطوره من خلال تجربته كشاعر قومي . وربما يقودنا هذا الى ان نتساءل : هل الفيتوري شاعر ذو قضية ؟ وكيف استطاع التعبير عنها ؟

والواقع ان الفيتوري شاعر يدافع عن قضية . وافريقيا هي قضيته . ولكن ثمة فرق في ان نقول ان الشاعر ذو قضية وان نقول انه تصدى للدفاع عن قضية ما. فالشاعر ذو القضية هو الذي يحمل كل ابعاد ومسافات التجربة ، يذيبها في وجدانه واعماقه ، ويعبر عنها متخذا لنفسه موقفا ازاءها ، موقفا يبرز مدى وعيه لكل الجزئيات الصغيرة التي تتمخض عنها تلك التجربة داخل نفسه وخارجها على ان يكون هناك خط رأسي يبدأ من اسفل تتكثف حوله كل جزئيات التجربة التي تعمق قضية الشاعر وتثريها .

ومن هذا الفهم سوف تكون محاولتنا في رصد معالم رحلة الشاعر محاولين في النهاية الاجابة على سؤالنا الذي طرحناه للمناقشة .

في بداية الرحلة يحس الشاعر بالمأساة والضياع . مأساته كانسان افريقي اسود البشرة . مأساته الذاتية التي تنطلق منها بعد ذلك مأساة بلاده . فهو يشعر بالحزن والفجيعة والدمامة وعدم الانتماء وكأن وجهه الاسود يحول بينه وبين انسانيته (٣) .

دميم . فوجه كأني به
دخان تكثف ثم التحم
وعيناي فيه كأرجوحتين
مثقلتين بريح الالم
وانف تحدر ثم ارتمى
فبان كمقبرة لم تتم

وترتبط مأساة الشاعر بالرومانسية في التعبير وبالاغراق الشديد في الحزن والتعلق بالاوهام ، وكأن الشاعر يحاول ان يهرب بها من واقعه القاسي المرير . ولم يتخذ الشاعر من الرومانسية مذهبا له بقدر ما كانت مرحلة ضرورية في بداية تجربته الفنية :

يا ليتني فراش نحل
جناحاه على هيكله شعلتان

---

(١) زكريا الحجاوي ، في مقدمته لديوان « اغاني افريقيا » للفيتوري.

(٢) هذا التعبير منقول عن الاستاذ محمود امين العالم في دراسته لديوان اغاني افريقيا .

(٣) محمود امين العالم في مقدمته لديوان اغاني افريقيا .

يعيش في منعطفات الشذى
فوق حدود الوهم .. فوق الزمان

...

يا ليت قلبي قلبه .. ويدي جناحه
وموطني اللامكان ..

وفي قصيدة اخرى يقول :

الليل ..
في كل ليل
يدوس فوق شعوري
جنازة تدفن الحزن
في قبور السرور
سحابة تمطر الموت
فوق روض نضير
وجه اله غريب
معذب ... مقهور ..

وتتكشف الاحزان في اعماق الشاعر حتى يكاد يصرخ في سذاجة :

...

اذن فاسمعي .... انني سأغني
سأعزف لحن الجناز الكبير ..
فقد آن لي ان اهز الحياة بحزني
بكل مراثي القبور

***

وتسيطر الرومانسية على كثير من قصائد الشاعر .. حتى يحس القارىء في بعض الاحيان بأن التعبير الرومانسي فيه انفعال مبالغ فيه لا تتحمله تجربة الشاعر ..

الا انه ـ وبرغم هذه الاصفاد التي تكاد ان تغرق الشاعر ـ ما يلبث أن يتحسس معالم الطريق وجوانب القضية ، قضية افريقياالتي ما تزال نائمة في حضن حلمها الاسود العجوز الضائع ..

افريقيا
افريقيا استيقظي
استيقظي من حلمك الاسود
قد طالما نمت ... الم تسأمي ؟
الم تملي قدم السيد ؟!

...

قد طالما استلقيت تحت الدجى
مجهدة .. في كوخك المجهد
مصفرة الاشواق ..
تبني بكفيها ظلام الغد

فافريقيا عريانة الماضي والحاضر تائهة الاشواق . غير ان الشاعر يصرخ فيها ان تستيقظ ، ان تنطلق ، فلقد اتى دور الذين يصنعون الامل والمستقبل :

اجـل ..
فانا قد اتى دورنا
افريقيا
انا اتى دورنا

ويستيقظ الشاعر من حلمه الاسود وتستيقظ معه افريقيا .. فلقد مزق الشاعر اكفان نفسه الحزينة اليائسة . مزق ستائر الظلام الكثيفة التي كانت تعرقل خطاه الصاعدة :

انني مزقت اكفان الدجى
انني هدمت جدران الوهن
لم اعد مقبرة تحكي البلى
لم اعد ساقية تبكي الدمن

وحتى تستمع الملايين له ، وحتى تتحرك نحو صنع الغد ، لا بد ان تستيقظ اولا وان تطهر نفوسها الحزينة ، فالحرية لا تنطلق اساسا الا من مجتمع صحيح :

فاستمع لي .. استمع لي
انما اذن الجيفة صماء الاذن

ولعل تكرار « استمع لي » وتكرار « الاذن » يعمق معنى الشاعر ويؤكده . فالتكرار هنا له وظيفته ومدلوله وتوشك جدران الظلمة ان تتداعى وتسقط . ويبزغ فجر افريقيا عملاقا مشرفا « عاري الصدر » :

الفجر يدك جدار الظلمة
فاسمع الحان النصر
ها هي ذي الظلمة تتداعى
تساقط .. تهوي في ذعر
ها هو ذا شعبي ينهض من اغماءته
عاري الصدر

***

ومع هذه الرحلة البطولية نستطيع ان نلمس مدى وعي الشاعر بقضيته ، ومدى قدرته في التعبير عنها ، فهو قد غنى لافريقيا اغاني الكفاح والثورة والحرية .. وتنطلق الثورة الافريقية الكبرى . ثورة ملايين العرايا والمضطهدين وتندك حصون الطغاة والقتلة .

***

هذه هي معالم البداية لرحلة الشاعر .. ولعل من الجدير ان نقف قليلا عند هذه البداية لنسجل بعض انطباعاتنا ، ولننظر كيف استطاع الفيتوري ان يجتاز دروب مشواره الطويل ؟ والانطباع الاول يتركز في قدرة الشاعر على تصوير نماذجه البائسة الكادحة وقدرته على اثارة شعورنا نحو التعاطف مع مشكلات الانسان الافريقي بل مع قضايا افريقيا ذاتها . ولم يصبح هذا الشعور مجرد عطف ولكنه تعاطف واع مع تلك القضايا .

وثمة انطباع هام لا بد ان تتركه مراجعة الديوان الاول للشاعر. فالقضية العنصرية كانت بارزة اكثر مما يجب . وضاعت افريقيا ـ في بعض الاحيان في كابوس اسود ثقيل .. فقد كان السواد يلون كثيرا من الكلمات « الحلم الاسود ، الجبهة السوداء ، الطفل الاسود ، انا زنجي ، الطوفان الاسود ، حرية السود ، روحه المسودة ، الايدي السوداء ، كتل السود ، الشجر الاسود ، شطآنها السوداء ، الحوائط السوداء ، اللظى الاسود ، ... الخ .

واذا كان اللون الاسود يرمز عند الشاعر للانسان الافريقي فهو يرمز ايضا للرؤيا الضبابية التي تغلف نظرته للواقع ... واقعه الذاتي وواقع افريقيا ذاتها . وقد يكون اللون الاسود الذي يعكس ثورية الشاعر ورفضه للظروف التي تخنق واقعه ـ بعض الدلالات الفنية ... الا ان اللون الاسود اصبح نغمة عند الشاعر (٤) . او بمعنى اخر فان موقفه الفلسفي من الثورية التي نلاحظ بوضوح في معظم قصائده ـ والتي ترمز لها « الكلمات السوداء » التي تفرش الطريق امام كثير من تجارب الشاعر ـ لم يكن موقفا محددا . او بمعنى اصح فانه لم يأخذ موقفا يمكن تفسيره او مناقشته من الثورية التي تنعكس على قصائده .

وثمة انطباع اخر يتجلى في النثرية والخطابة والسطحية التي تعتبر آفة كثير من شعراء اليوم .. وقد تكون هناك بعض المبررات لهذه الخطابة وذلك لنوع التجربة التي يخوضها الشاعر والتي قد يستلزم التعبير عنها بعض الحماس خصوصا واننا سبق ان قلنا ان الفيتوري شاعر قومي . وهو كشاعر قومي يخضع لنوع من الالتزام . الا ان الالتزام نفسه قد لا يكون مبررا مقنعا عندما نقرأ للشاعر :

لقد عدنا من الحرب الى الحقل ... الى المصنع
لكي نحرث ، كي نبذر ، كي نحصد ، كي نجمع
لكي نبني للغير .... لكي نطهو ولا نشبع
لكي نصنع حربا ضخمة اخرى ... لكي نصنع

---

(٤) محيي الدين محمد ـ حزن الاحزان في الفارس القديم ، ص ٢٢ . مجلة الثقافة ، العدد ٥٧ .

ونلاحظ ان تكرار « لكي نصنع » في نهاية البيت الاخير انما يؤكد مدى التزام الشاعر بالشكل والموسيقى الصاخبة التي تؤذي الاذن احيانا .

هناك انطباع اخير على هذه المرحلة من مراحل النمو الفني للشاعر . وهو انطباع يسجل للشاعر تفوقه ومهارته في صياغة الكلمات التي تعبر عن تجربته في اتفاق بديع ، وقدرته على التعبير عن اللحظات النفسية العميقة ووصف الجزئيات الصغيرة للواقع المادي .

واني لاعتب على الاستاذ مصطفى السحرتي ان اغفل ذكر الفيتوري عندما تعرض للكتابة في احدى مقالاته (٥) عن مجموعة من الشعراء الذين تفننوا في الوصف والتصوير .

يقول الشاعر في قصيدته « السفر » :

الباب .. والسور .. ولون الحائط السقيم
ودرجات السلم المتسخ القديم
واوجه النوافذ الباهتة المرسوم
تطل منها اعين بادية الهموم

ثم يتحدث عن الساحة العجوز التي تنوء تحت ثقل الحياة ،وعربات الخدم ، وصرخات الباعة :

والناس كلما مضت صرخة القطار
تصرخ في وجوههم بغربة الديار
تهدمت من فوقهم جوانب النهار
وزلفت ارجلهم على بساط نار

...

وجرت الاعين في الوجوه كالاكر
واثقلت كل يد حقيبة السفر
فكم فم على فم هنالك انتحر
ودمعة واقفة كأنها حجر

...

وكانت الساعة في الجدار تنتظر
حين مضى بندولها يهتز في ضجر
كأنه صاعقة في ساعة القدر
كأنه يضرب في بناية البشر

ولعل هذه القصيدة وقصيدة « تحت الامطار » التي يقول فيها الشاعر :

ايها السائق ... رفقا بالخيول المتعبه
قف .. فقد ادمى حديد السرج لحم الرقبه
قف .. فان الدرب في ناظرة الخيل اشتبه
هكذا كان يغني الموت حول العربه
وهي تهوي تحت امطار الدجى مضطربه

...

غير ان السائق الاسود ذا الوجه النحيل
جذب المعطف في بأس .. على الوجه العليل
ورمى الدرب بما يشبه انوار الافول
ثم غنى سوطه الباكي .. على ظهر الخيول ..
فتلوت .. وتهاوت .. ثم سارت في ذهول

يؤكد اننا لا يمكننا ان نرفض تماما الشكل العمودي في بناء القصيدة العربية ... وان هذا الشكل يصلح للتعبير عن كثير من التجارب لو توفر للشاعر فقط اختيار السلم الهارموني المناسب للتعبير عن تجربته .

وهاتان القصيدتان – تستحقان منا دراسة مستقلة . فقد اثبت الفيتوري قدرة الشعر المقفى الفائقة على الوصف والتصوير والتركيز في التعبير واستخدام الالفاظ الموحية استخداما فنيا دقيقا . ولم يقف الشاعر عند هذا الوصف الموضوعي (٦) بل كشف لنا عن مشاعر استيائه او بمعنى اخر فانه تعدى مرحلة الوصف الموضوعي الى مرحلة مزج فيها مشاعره وحدد موقفه الفلسفي وتعاطف مع القيم الانسانية التي تبزغ من خلال رسمه للوحة الفنية .

الا ان هاتين القصيدتين تثيران كثيرا من التساؤل في نفوسنا،فهما بعيدتان تماما عن قضية الشاعر الاساسية .. وهما اكثر جودة من كثير من القصائد التي تحدث فيها عن افريقيا .. ولا نملك هنا الا ان نسجل احتجاجا وعلامة استفهام كبيرة لشاعرنا .

قلنا ان الفيتوري شاعر قومي ، وافريقيا هي وطنه الاكبر،ماضيه وحاضره وغده ومن اجل هذا الوطن كتب وغنى .. وقلنا ايضا في بداية هذه الدراسة انه قبل صدور الديوان الثاني للشاعر قال بعض النقاد ان الفيتوري قد نضب شعره لانه كان صدى لازمته الذاتية التي لم تفرش لها طريقا في ارض الواقع الخصبة .

الا ان مراجعة الديوان الثاني للشاعر « عاشق من افريقيا » تكشف لنا عن جوهره الاصيل وعن روح النضال التي تتجدد في اعماقه ووجدانه فهو ما زال يغني لافريقيا :

لم تمت في اغاني ، فما زلت اغني
لك يا ارض انفعالاني ،وحزني
للملايين التي تنقش في الصخر ، وتبني
والتي ما فتئت تبدع فني
والتي تعرف اني ..
انا منها .. وهي مني ..

فلم ينفصل الشاعر عن واقعه ولكنه اصبح اكثر قربا منه . فقد مزج بين ذاته الفنانة وبين اعماق تجربته وهذا المزج لم يجعل الشاعر يفقد رؤيته الواعية للواقع ، بل استطاع ان يعمق هذه الرؤيا وان يكتشف الدروب التي ما تزال مظلمة قاتمة ، وعرف ان عليه مواصلة رحلته الطويلة :

لم تمت في اغاني
وفي صدرك كلمة
لم تقلها شفتاي
وعلى وجهك غيمة
لم تمزقها يداي
انت يا من تهبين الشمس
في كل صباح وعشية
من دماي
لتنيري خطوات البشريه
بخطاي

ولم تعد الحرية قضية عنصرية كما كان ذلك واضحا خلال تجارب الشاعر الاولى . ولكنها اصبحت قضية المصلوبين والقتلى في كل مكان . فالشاعر يفتح وجدانه على العالم كله عندما يكتب :

اكتب يا جبار الاحزان
اكتب باسم جلال الانسان
باسم وجوه خلف القضبان
وجوه لم تعرفها بعد
باسم القتلى في كل مكان

وتزداد الرؤيا وضوحا امام الشاعر فيقف على الاسباب الحقيقية لقضايا الحرية (ان الثورات تموت وتولد في الانسان) وقد كان من الممكن ان يقول الشاعر « ان الثورات تموت وتولد بالانسان » ولكن استخدام حرف الجر – في – غير المعنى كله واضفى عليه وعي الشاعر .. فالثورة يجب ان تنطلق اساسا في الانسان . فالانسان الثوري هو القادر وحده على القيام بالثورة .

وعمق التجربة ومدى ارتباط الشاعر واحساسه بها يفرضان غزارة

(٥) مصطفى السحرتي – شعر اليوم ، الرسالة ، العدد ٥٥ .

(٦) مصطفى السحرتي – المقال السابق .

اغنيات للبحار

١ ـ السفينة :

سفينتي أطلقتها
من بعد ما دشنتها
بعمري الذي مضى ..
وبعدما تركت في اعماقها
بقية من السنين ـ
ان كان لي بقيه ـ
انفقت في بناء هذه السفين
اخشاب غابتي التي تحجرت
وكنت قد سويت من فوق الغصون
جميع ما ادخرته من الجليد ..
وحينما اردت ان ابني السفين
رجعت كي ازيح اكوام الجليد .
سفينتي تسير في غير اتجاه
تدور حول نفسها
فليس فيها مرشد
لكن بها بحارة ثلاثه
تخاصموا على قيادة السفينه .

٢ ـ البحر :

اللجة الهوجاء تلهو بالسفين .
فلو تصالح الربابنه
لربما نجت سفينتي من الغرق ..
او ان نوحا عاد مرشدا لها
لسارت السفين للامان تنطلق ..
لكنها تدور حول نفسها
والبحر قاس لا يلين .

٣ ـ الجزيرة :

تصالح الربابنه
لكن في قلوبهم بقية من العداء
ونام واحد من الرجال
وشدت السفينة الرحال
الى جزيرة تلوح من بعيد
اطيارها تجيء ترشق الشراع بالقبل
ازهارها تفتحت على اهازيج الامل ..
وحطت السفين قرب هذه الجزيره ..
الويل للبحارة الثلاثه
لان في قلوبهم بقية من العداء
قد صيروا جزيرتي بلا نماء
فالبحر مد اذرعا كالاخطبوط
استأصلت جذور ما نما بهذه الجزيره .

...

علي ان اسير رغم ما لقيته من اختصام رفقة السفينه
فانني جوالة مرادها
ان تكشف الاسرار عن مجاهل تعيث في قلب الجزيره .

القاهرة — **وفاء وجدي**



صرخت « حميدة » في همس مكتوم وهي ترفع يدها في وجهي .. وتهم بغلق الباب :

ـ ارجع .. ارجع فالرجل هنا ..

الرجل ؟ ياه ! .. أهو هنا ؟ .. سكين ؟ وعنق مقطوع يقطر دما.. وعربة اسعاف تجري بجثتي قبل ان افارق الحياة في شارع بظاظا بامبابه لتخرج بي من هنا ... ليكن ما يكون !

.. ازحت يدها .. ودفعت الباب ودخلت قائلا :

ـ وماذا في وجوده ؟

.. خطوت الى الداخل .. ارتحت لما وقعت عيني على سكين المطبخ .. ترقد في سكون فوق المائدة .. ليس بجانبها اصابع انسان.. مدة امتار لكي تقبض عليها الاصابع !

... تجمدت حميدة في مكانها مشدوهة .. نظراتها تخترق ظهري : حيوان .. حيوان .. هكذا كنت طول عمرك .. حتى في تلك اللحظات وانا اقدم لك قطع السلمون في حجرتك التي اسكنها الان .. القيت بالطبق في وجهي .. اتذكر ؟ .. اتذكر ..لكن كان في حجرتكم لحظتها رجل تلاعبينه الكوتشينه فوق سريرك ولا احد معكما ..

.. كان زوجها جالسا في داخل الحجرة مطرق الرأس .. حوله بعض الرجال .. رفع رأسه ببطء لما رآني .. سلم علي .. جلست .. سددت اليه عيني على الفور .. احتميت وراء نظراتي لئلا انكشف ويظهر كل شيء على وجهي .. غطيت أعماقي لئلا يرى كل ما اخفيته تحت الغطاء : « هناك سلم .. عدد درجاته مائة تنتهي الى القاع .. في اسفل صوت مياه المجاري يصم الاذان » .

.. قلت وعقلي يلتقط الكلمات بعناية وحذر :

ـ ايه يا رجل ؟ .. ماذا جرى لكما .. كيف يحدث ذلك وانتما قد عجزتما ؟!

.. تطلع في انسان عيني برهة .. ثم خفض عينيه الى الارض .. وتشابكت اصابعه : « يا افندي يا واطي .. يا ابن الواطي .. يا عجينه .. يا ميه من تحت تبن .. لولا البدله .. وبساطتك .. وابتساماتك .. لقمت وضربتك .. وسيحت لك دمك ! »

.. قال :

ـ يا اخي اعمل ايه ؟ .. انا لا أطيق الزعيق .. منذ الحادث الذي اصبت فيه : في رأسي .. وانا عسكري في البحرية .. ضربتها قلما .. فصرخت .. فجاءت أمها من خلفي ورفعت فوق قفاي الحذاء وهي تصيح : تضربها يا ابن الكلب ! .. ولم اشعر بنفسي .. انفجر الالم الذي في رأسي منذ أيام البحرية .. وفقدت وعيي .. وهويت بيدي عليها وعلى امها وانا العنهما .. هذا ما حدث .. وانا مخطىء ..ولكني احتمل عذاب الموت ولا الزعيق ...

.. انا الاخر كان سينزل فوق قفاي هذا الحذاء .. انا الاخر كانت امنيتي وانا في هذا البيت أن اضرب امك : ام حميده ! ..ضربتك يا حميده .. وضربت اختك.. ولم تسعدني الظروف واضرب امك !!

قلت ..

.. قلت وانا التقط حبات الخرز بعناية واضعها بين حبات العقد.. وعيناي تضعان ثقلا فوق غطاء القاع لئلا تتسلل من تحته حركة واحدة تكشفني :

ـ ولكن لم حدث كل هذا ؟ .. من الباب للطاق ؟!

قال وهو يحني جذعه الطويل على غير العادة (جذعك طويل.. طويل .. وهي قصيرة .. قصيرة .. فيك جنس وفيها شراهة !) وينظر لبلاط الحجرة ويعده :

ـ ابدا .. كان اخي نائما عندنا .. رقد في البلكونة ونام..وطلبت منها غطاء لاغطيه .. ليقوم في الصباح مبكرا الى محل رزقه : دكان المكوه الذي يعمل فيه .. فرفضت .. صاحت في وجهي ورفضت انه اخي على أي حال .. وكان يجب ان اغطيه .. وقمت وغطيته وانا اقول لها : لن انساها لك .. ستقولين لي يوما : غط امي او غط اخي .. وساردها لك .. فصرخت في وجهي بجنون وصفعتني .. ولم احتمل.. رأسي منذ حادث البحرية لا تحتمل الاصوات العالية ...

.. مهما قلت يا رجل فهي لك .. كانت تبحث عن الذكر الذي يدفع لامها اكثر لتتزوجه .. ولما يئست من العثور على من يملك الاثنين.. اكتفت بك .. اطمئن .. لن تتخلى عنك .. اطمئن !

.. تركته يتكلم .. عيناي مسددتان الى عينيه تلهيانه عن النظر الى اعماقي .. انسللت من جواره .. رفعت الغطاء .. نزلت فوق الدرجات .. اعدت الغطاء فوقي .. الظلمة كثيفة رهيبة .. تناهى الى سمعي صوت خرير مياه جارية .. صوت اقدام كثيرة تتحرك .. ليس هناك بصيص من ضوء .. أشعر بالخوف .. تبينت اني تهت .. لكن لا .. ها هي حميدة مقبلة .. تلقتني فاتحة ذراعيها .. جريت اليها .. ارتميت بين احضانها ...

.. بالامس كانت حميدة تجلس مستلقية امامي على سريري الصغير .. عيناي مسددتان الى عينيها .. تخلع لها ملابسها قطعة .. قطعة .. حتى جلد لحمها نظراتي خلعته منها .. قلت لها :

ـ اتعرفين ماذا اريد الان ؟ .. اريدك .. وسأحصل عليك

قالت والدم يصعد حارا الى وجهها :

ـ انت مجنون .. انت مخبول

.. اجبت :

ـ نعم انا مجنون وزوجك مجنون .. لكني اقل جنونا منه ..انه يجعلك تقسمين كل ليلة على المصحف الا تخونيه وتمشي فوق الطريق المستقيم .. وانا لم اطلب ـ ولا مرة ـ منك ان تقسمي لي .. وامك رفضت أن تزوجك لي .. لاني لا أملك سوى مرتبي .. مرتب موظف في مكتب الصحة ببندر امبابه .. سمنتك للمقاول الذي يتردد عليكم من السيدة .. ليتزوجك فوق ام اولاده الريفية .. لانك « حركة » تلبسين بنطلونا .. وتغنين اغاني شادية .. وتركبين دراجة في القناطر .. وتجدفين في قارب حتى منتصف الليل .. واخيرا جاءت وقعتك مع صبي ترزي كسول لا يملك ماكينة خياطة ولا دكانا ..ويعيش على فتات خبزك في بيوت الخدمة ويصادق البوابين في العمارات التي تخدمين فيها ليعرف خط سيرك ...

قالت :

ـ الحق علي انا ! .. انا التي قلت لك !

قلت لها :

ـ لا حق ولا شيء .. احاول فقط ان اذكرك

.. قالت لتنسى ما قلته لها وهي تمسح شعرها بانفعال :

ـ اتتذكر ليلتنا ؟ اتتذكر تلك الليلة ؟

.. قلت :

ـ كنت مجنونا ليلتها .. محموم بلا اهل .. فوق فراش المرض يهذي و نثى ملتهبة بجانبه .. وتفاحتان وسكين .. وافقت على شفتين ترطبان شفتي .. وامتدت يداي وعانقتك .. وسقطت من يدك السكين والتفاحة ...

.. قالت حميدة :

ـ وانا الاخرى كنت مجنونة .. ولكن كيف كان الباب مغلقا علينا في تلك الليلة ؟ عجيبة !

... اغلقته بمسمار ثبته ليمنع اي واحدة منكن من اقتحام الباب علي .. ومع ذلك فامك كانت تشعر بكل شيء وهي نائمة في الصالة.. كانت تنادي بين كل لحظة واخرى: بنت يا حميدة .. قومي نامي يا بنت .. لم تجرؤ على القيام من سريرها لتراك .. تخشاك تلك الرهيبة الطيبة .. ظلت تتقلب فوق سريرها .. تتقلب فوق النار .. انت سيدة البيت تنفقين عليها وعليه !

.. قلت :

ـ جلست بجانبي على حافة السرير تقشرين لي التفاح .. واخذتك بين ذراعي .. وجدت فيك كل ما يفتقده الغريب المريض المحموم .. عندما يعثر على اهله فجأة ..

.. قالتوهي تحلم :

ـ عجيبة .. عشت حياة غريبة .. لكن الحمد لله .. انا متزوجة الان ...

... ابتسمت بخبث وانا اقول لها :

ـ ملكني الرعب ليلتها .. حسبت انك اصبحت امرأة .. خفت.. خفت كثيرا ولكنك في الصباح ابتسمت لي اول ما قمت .. مددت يدك من تحت الغطاء وامسكت بيدي .. طلبت مني ان اجلس بجانبك على حافة السرير .. ونظرت لي نظرات غريبة .. لم تنظر لي مثلها من قبل .. وكأنك ترينني لاول مرة .. ثم مددت يدك واعطيتنني لفافة من الورق الاخضر : احفظ لي هذه النقود معك .. كانت عربون ثقتك بي ...

.. عضت على شفتيها مرة اخرى .. واحمر وجهها كالنبيذ .. واسترخى جسدها على السرير :

ـ وسميحة ؟ الا تقول لي ؟ اكانت عشيقتك ؟

.. تلك القصيرة .. الدقيقة الملامح .. زميلتك في بيت المطرب.. انت جعلتني انظر اليها ... في ليلة عقد قرانك .. احسست اني لا انتمي الى احد .. انا الاخر يجب ان اشارك انسانا مصيره .. والتقت نظراتنا .. ثم انتميت اليها !

... قلت وقد ادركت خبثها :

ـ لم يحدث !

ـ والجديدة ؟

.. نكست رأسي بحزن : ليس الامر .. امر جديدة او قديمة .. انها حكاية الحيرة .. حكاية كل الطيور الصغيرة مثلي .. ومثلك .. لا عش لها .. ولا تعرف كيف تبني العش .. ولو عثرت عليه لبعثرت قشه .. طيور لا تعرفاين تستقر .. ولا اين تبقى .. ولا اين تقف .. ولا اين تطير .. حكاية رعب دائم .. ومطاردة مستمرة ..

... رددت عليها في ضيق :

ـ انت مجنونة !

.. قالت :

ـ انت تراوغني .. كذاب .. كذاب

.. وسكتت قليلا وبدا في عينيها شيء كالفخر :

ـ تصور .. تصور اني ابكيتك ؟!

ـ لم تبكيني انت .. ابكتني الايام التي نراها تمر امامنا .. ولا يمكننا اللحاق بها والوقوف حتى فوق السلم .. لم تكوني الاولى التي ابكتني .. ابكاني غيرك .. ابكي من اجل نفسي ومن اجل كل واحدة.. لاننا لن نلتقي فالجدار الصامت الواقف بيننا يشير الينا : الا فائدة من الاقتراب منه لذلك كنت ابكي مقدما من اجل فراقنا المنتظر !

.. قالت وعيناها وراء الذكرى :

ـ اتتذكر تلك الليلة ؟ .. تأخرت عليك .. كان عندنا زائر .. جلست معه .. تأخرت عمداً لاعذبك .. عذبتك حتى ابكيتك : امسكت بيدي ورحت تجهش بالبكاء وانت تعصرها .. تألمت .. ولكني كنت استعذب المي واشعر بالنشوة تتسلل الى ما تحت جلدي .. انبهرت اول ما رأيتك تبكي .. رأيتك طفلا بين يدي ! ..

.. زائر ؟ اي زائر هذا الذي تقولينه ؟ شقيق نجار العماراتالذي تبع اختك في الطريق حتى دخل البيت على اساس انه سيتزوجها على سنة الله ورسوله .. واغرقكن في احاديث عن ذهب السعودية الذي عاد به ... هو ولى وجهه لاختك .. وانت وليت وجهك لاخيه... تجلسين معه فوق السرير تلعبين الكوتشينه والفائز يضرب الاخر فوق ظهر يده .. وانا في حجرتي اسمع ضحكاتكما .. فيرتج داخل رأسي كشك السجاير الذي بنيناه معا لتجلسي فيه .. ليساعدنا فوق مرتب الوظيفة عندما اتزوجك رغم انف امك !

.. نهضت قائمة وعلى فمها ابتسامة شيطانية :

ـ واختي ؟ ـ كيف تجمعني ايها الحيوان مع اختي .. ؟ كيف تجمع شقيقتين معا ؟! .. اتعرفين كيف ؟ ـ هكذا تحدث مثل هذه الغرائب .. عندما يأتي عليك الليل في امبابه .. وتجدين نفسكوحيدة معه تحملقين في الظلام (والقهاوي) ساهرة .. فتحدثين الليل وحدك.. فيرد عليك .. ليس الظلام وحده هو الذي يرد ؟ بل الجدران والسرير السفري الصغير والمائدة الكسيحة .. والكنبة العارية .. وقتها اشعر ان العالم وحش .. وحش مخيف يجب ان احتمي منه .. احتميت بك اولا .. لكنك كنت تلعبين الكوتشينه ببراعة فوق السرير بجانب شقيق الحاج ـ القادم من السعودية ـ رغم انه متزوج ! .. وهكذا احتميت باختك معك .. انها هي الاخرى قدمت الي اوراقا خضراء أعطتها لي

في خجــل : « احفظ لي هذه النقود معك ! » وحفظتها لها كمــا حفظتها لك ! .. كانت مشكلتكن التي رأيتها بقلبي وعيني وعقلي .. هي عثوركن على الرجل الذي يحميكن ويحمي البيت ..

.. ابتسمت .. واعتدلت في جلستي فنظرت لي وقالت :

ـ سررت هه ؟ حتى انك اعتدلت لي يا فاجر !

.. ضحكت وانا اسألها :

ـ قولي لي كيف عرفت ؟ .. كيف عرفت علاقتي باختك ؟

قالت باسف :

ـ رأيتها والنوم ما يزال يملأ رأسي .. وهي تتسلل حافية الى حجيرتك .. وهرب النوم من رأسي .. وبعد وقت طويل رأيتها تخرج من حجرتك .. وسكنت قليلا لتفسح العنان لذكرياتها .. وتهلل وجههــا فجــأة :

ـ ياه ! عشت معنا طويلا .. رأيت كل الرجال الذين عرفتهم .. .. ورحنا نعدهم معا ونحن نضحك !

ـ حلمي ؟ اتذكره ؟

ـ طبعا اذكره !

.. وراحت تتكلم عنه ..

... حقيقة اتذكره .. حلمي صبي البقال في العجوزه .. هـذا المسكين اول من احبك بصدق .. شاغلته طويلا بتليفون اسيادك وهـو في محل البقالة حتى كاد يجن .. والهبته غراما بك ثم القيت به عند قدمي المقاول !

.. قالت :

ـ كان يغار حتى من ثوبي .. كان ما يزال فلاحا فلم يفهمني !

.. قلت :

ـ حاولت في البداية .. اول ما اقمت عندكم أن اساعده ليفهمك باخلاص

قالت :

ـ ولكنك اخذتني منه ؟!

قلت :

ـ والمقاول ؟ وشقيق النجار ؟ والكهربائي ؟!

وضحكنا معا .. وقاطعتني وهي تضع اصابعها فوق شفتي :

ـ اسكت .. اسكت .. يا لها من ايام رائعة مضت .. كنــت كالحمامة .. دائمة الطيران .. اصبحت بعيدة هذه الايام .. اصبحت كالاحلام .. بعد ان تزوجت .. وجاءت ايام الشقاء .. اسمع؟ اتذكـر حفلة عيد ميلادي ؟ .. لا .. لا تقاطعني .. ليلتها ذهبت لاحضــــر الفستان ..

قاطعتها :

ـ لا تغالطي .. ذهبت مع من ؟

قالت :

ـ انا اعترف .. حقيقة ذهبت مع المقاول ..

قلت اقاطعها :

ـ الم تدعي الرجال الستة الذين كانوا في حياتك ذات يوم ـ وانا من بينهم ؟! الم تقولي لي انك ستختارين حبيبك من بينهم في تلــك الليلة .. وانت تقفين امام الميكروفون تغنين اغنية شادية : « حبيبـــي اهه » على انغام الفرقة الموسيقية التي جاءك بها المقاول ؟!

قالت :

ـ كنت ساختارك !

.. صحت في وجهها وانا اضحك :

ـ يا حمقاء اكنت لم تختاريني بعد ؟

صاحت هي الاخرى في وجهي :

ـ لا تقاطعني .. ليلتها عدت بفستاني الجديد .. وانا ارقــص طوال الطريق .. احسست اني في ليلة فرحي حقيقة .. ورحت اجري متلهفة لاراك .. لتراني بالفستان الجديد .. واول ما خطت اقــدامي في داخل الصالة المليئة بالمعازيم .. تصفحت الوجوه لاراك .. لكني

لم اجدك .. وشعرت انك عريتني من فستاني .. انطفأت الفرحة في.. ومع ذلك درت ابحث عنك .. حتى عثرت عليك قابعا في داخل حجرتك .. بجانب مائدة التورته ومعك امرأة ...

... قلت بحزن من الذكرى :

ـ لقد كلفني انتظارك الكثير : زجاجة خمر كاملة .. تصوري أن انتظرك مع الرجال الاخرين .. لتختاري من بيننا واحدا .. بينمـــا المقاول وحده معك .. يدفع وانت تشترين ؟!

.. قالت :

ـ ولكني قبل ان انصرف اخذت منك « كوفيتك » ووضعتها حول رقبتي .. ووضعت لك الفوطه فوق كتفك وانت تغسل رأسك !!

قلت لها بخبث :

ـ يا لئيمة ! لما نظرت في وجهي هالك ما رأيت فيه .. فحاولت ان تهدئي من غضبي وقتما تحتفظين بالمقاول وجيبه !

قالت وهي تحلم :

ـ كل هذا كان زمان .. زمان .. حدث منذ زمن بعيد .. والان ما تالفرح في قلبي ..

.. قلت وانا اسدد عيني في عينيها حتى نفذتا الى داخلجمجمتها فطأطأت رأسها :

ـ اسمعي انا اريدك .. يجب ان تكوني لي .. يجب ان نلتقــي كثيرا .. انا ليس لي احد .. يجب ان يكون لنا مكان يجمعنا !

قالت :

ـ يا مجنون .. انا زوجة .. انا متزوجة .. انسيت ؟

قلــت :

ـ اتحبينه ؟ اتحبين هذا المجنون ؟

.. كنت اعلم انها لن تكذب علي

قالت :

ـ لا .. لكني .. احترمه .. احترم زواجنا .. رغم انه يدفع بي احيانا الى الحنفية لاتوضأ .. ويتوضأ معي .. ثم يشدني الى حصيرة الصلاة الصغيرة الخاصة بامي ... لاقف معه .. ونصلي معا .. بعدها يجعلني اقسم على المصحف الا اخونه !!

عدت اقول :

ـ اهناك امل فيه ؟

.. قالت بحنان ام :

ـ لعلي اصلحه .. ويبقى لي البيت .. واظل زوجةدائما..واصبح اما في يو ممن الايام .. اتعلم ؟ لو اني طلقتمنه الان فلن اتزوج ثانية .. هذه فرصتي الوحيدة .. اريد ان ابقيها .. لاظل زوجة الى الابد .. ويكون لي اولاد يملئون علي حياتي .. ويعوضون لي ايام الشقاء الذي لاقيته والاقيه في بيوت الخدمة .. انه مجنون .. انا اعلم ذلك .. ولكني ساحاول ان اصلحه .. ولعلي انجح لابقي على البيت ...

... كانت الكلمات تخرج من فمها في يسر وطلاقة فتضيء شفتيها وعينيها بنور غريب .. وشعرت بشعور يشبه الحسرة يتسلل الىقلبي فقلت وقد نهدج صوتي :

ـ على كيفك.. حاولي ! من الحمق ان اقف في وجهك .. جربــي مرة ثانية .. ولكن فكري فيما قلته لك .. واذا احتجت الــي فاتصلي بي ...

.. قالت :

ـ مالك ؟ .. ما لصوتك قد تغير ؟

قلت وانا اغتصب ابتسامة :

ـ ماذا فيه ؟

قالت بابتسامة عذبة : يأس .. ! .. وانصرفت ..

***

... قبلها باسبوع كانت حميدة في حجرتي .. جاءت مع امها .. تلبس نظارة شمس سوداء في الليل .. وجلسنا نحن الثلاثة في البلكونة

المطلة على شارع احمد عطيه المقفر الغارق في سواد الليل الفاحم ..
.. حاورتني كثيرا وانا احاول خلع النظارة من فوق عينيها حتى نجحت اخيرا .. ووقعت عيناي على كدمة زرقاء في عينها اليمنى .. وانفجرت حميدة في بكاء حار .. وراحت امها تقص علي حكاية البلكونة والغطاء وشقيق زوجها المكوجي والمعركة والجيران الذين قاموا من نومهم في الفجر ليفضوها !

قالت حميدة :

ـ سأكوم عفشي .. ولتأت معنا ..

.. كأنك تريدنني الان .. انت سقط المتاع ..

.. وابتسمت وانا احاول التخلص من رغبتها :

ـ وزوجك ؟

.. سكين يغرسها في القلب .. تمزق لي الاحشاء .. قد استريح؟ لكن ما الفائدة ! حياتي هكذا افضل من أن تأكلها سكين مجنون !

.. اجابتني ..

ـ لقد انتهى الامر .. لن اعود ..

.. ستعودين يا امرأة .. ستعودين .. هذا المارد يا قصيرة لن تتحملي البعد عنه : الطفل المنتظر .. وسجادة الصلاة . . والمصحف فوق المائدة يبتسم لكما : عرفكما من كثرة المعاملة معه .. والجرس المعلق يا فقيرة فوق سريرك .. كجرس المطرب الذي يستدعيكن به .. والبيجامات الحريرية التي لبستها له ومزقها باظافره .. والليل الطويل .. ستعودين له .. ستعودين ..

.. ابتسمت لها :

ـ اسمعي .. انه مجنون وقد يشك في امر عودتي .. ويظن اني السبب فيما حدث لكما ...

.. يشج رأسي .. يصيبني بالهلع .. لا اتحمل الزعيق مثله .. اطيح في الناس ضربا كما يفعل بك وبامك .. انه يقول دائما : منذ حادث البحرية .. وساقول انا : منذ حادث الزوج الذي شك في .. اتركيني بعيدا عنكما ..

.. قالت :

ـ مات الحب .. بعد تسعة اشهر .. قتله بعقله المخبول

.. قلت وفي نيتي الا اوافقها :

ـ اسمعي يا حبيبتي .. هناك اشياء كثيرة تقتل الحب الان : غلاء الطماطم في السوق .. خلو المحلات من الارز .. ليس الجنون وحده هو قاتل الحب .. اعقلي يا حبيبتي ..

.. قالت :

ـ كأنك لن تحضر معنا ؟

اجبتها كاذبا :

ـ سأحاول ..

.. وانصرفت مع امها ..

... امس الاول شعرت أني اختنق : حارات امبابه تمد اصابعها وتخنقني .. تكتم انفاسي .. تضع اقدامها فوق صدري : امبابه يا وحش .. كسيح .. امبابه يا دروب الوحل .. يا ممر الجمال والحمير .. امبابه يا كآبة .. يا ملل .. الى اين امضي فيك ؟ لمن اذهب واجلس معه ؟ لمن اتحدث واهمس اليه ؟ ..

... حملتني اقدامي الى ام حميدة .. اردت ان اراها .. كنت في حاجة لاجلس مع انثى .. مجرد جلوس ..

.. وجدت ام حميدة متربعة على عرشها : فوق سريرها كالعادة تأكل وتسمن .. تدير مملكتها من فوق السرير .. وهانم ابنة مرسية ـ اخت حميدة ـ تقوم بكل لوازم البيت.. والملكة الريفية الكسول تسمن وتمتلىء .. انت بعشرة رجال يا امونة : تساوين عشرة رجال باكملهم.. لكنك ابدا لا تستغنين عنهم ولا عن فروشهم وبواكي الدخان الذي يشترونه لتستعمليه سعوطا من اجل بنتيك ..

... البيت ينقصه الرجل .. عين حميدة تفتقد الذكر .. ارتاحت امونة لمرآي .. دائما كنت استمع لهذه السمينة بشغف وهي تحكي لي حكايتها مع الازواج الخمسة .. كلهم تزوجتهم عن حب ..

... تركتني حميدة اول ما رأتني .. ذهبت الى حجرتها الباردة.. عادت ترتدي بنطلونا ... ياه ! يا بنت الايه .. جئت لاستريح..راحتي اجدها مع الولايا .. لكنك تعودين وتلعبين لعبة الانثى ..

... وجدتني ساهما انطلع الى بنطلونها وابتسم .. فقالت :

ـ تلعب كوتشينة :

... وجدت الكوتشينة في يدها !

... نفس الكوتشينة عندما جئت الى بيتكم لاول مرة .. ولمحتك عيناي .. ليلتها جلست تضعين ساقا فوق ساق كملكة .. قالت امك واختك مرسية : انك ممرضة تأتين الى البيت كل اسبوع .. لم يقولا انك خادمة !

.. وزعت الورق ببراعة .. ثم راحت تجمعه من بين يدي بخفة ومهارة وانا لا ادري .. وقدماها من تحت المائدة تمسحان جلدي بنزق..

... الانثى تمسح جلدي .. تسلب الورق مني .. اتركيني يا امرأة .. جئت لاستريح . انت تثيريني .. انا متعب .. لست الرجل الذي يقاوم كثيرا ..

... راحت تقهقه وهي تجمع الورق من بين يدي مرات..ومرات..

قالت امها :

ـ غلبتك مرة ثانية ؟

قالت حميدة :

ـ انه لايجيد اللعب!

... ابتسمت انا في اعياء . فعادت حميدة تضحك في سعادة قائلة :

ـ نفسي .. تغلبني مرة .. اغلبني مرة لاستريح !

.. لم ادعها تستريح !

.. عادت تقول :

ـ المحظوظ مع النساء .. لا حظ له في اللعب !

.. المسألة ليست مسألة حظ او لا حظ .. فهنا في عش امبابه ودروبها يذوب الحظ ويموت ويدفن في «الكيت كات» ويجلس عليه رواد الكازينو !

... نامت امونة .. انتصف الليل .. قمت فجأة وانا اشعر بالتعب :

ــ يكفي هذا الليلة

.. قالت :

ــ امكث .. انا لم اعد أنام .. امكث معي .. نم عندنا .. سآتي لك ببيجامته تلبسها وتنام فوق سريري .. سانام انا مع امي ..

.. فوق سريره ؟ بدونك ! .. لعلك تلحقين بي بعدها .. لو نمت عندك فحتما لن اتركك .. استيقظ واتسلل الى حجرتكما واوقظك .. ثم اتسلل بك الى فراشه .. احملك اليه .. صحيح انا اقصر منه .. لكن جوعي سيمدني بالقوة .. لكن الباب يطرق .. زوجك المجنون يدخل : أين هو موظف الصحة آكل لحوم المرضى النيئة ! يقتحم الباب علينا : انت بالبيجامة الحريرية ــ في احضاني ــ وانا عار من كل ثيابي .. ويرفع السكين : اختر لك موتة يا موظف الصحة ؟ .. اقطع لي عنقي مرة واحدة ..مرة واحدة فقط .. قطع عنقي وقال لحميدة : امسحي دمه في بيجامتك ! وتركنا وانصرف !

. قلت وانا اتجه الى الباب :

ــ يجب ان اذهب

.. قالت :

ــ على حريتك ..

.. واتجهت نحو الباب .. اوقفتني فجأة :

ــ اسمع ... اريد ان اشاهد فيلما ..

.. قلت وانا عند الباب:

ــ تعالي غدا .. ساذهب بك الى السينما

.. قالت :

ــ وحدي معك يا مجنون ؟!

ــ ماذا فيها ؟

.. قالت :

ــ انا زوجة .. تذهب امي معنا

.. هذه الثقيلة ؟ جاموسة برية .. ذهبت معها يوما واختك مرسية والنجار القادم من السعودية بتذكرة من المطرب .. لنشاهد فيلما له .. وحاصرتنا انظار الناس ومشاهدي السينما في شارع الالفي .. وكانت ليلة ..

.. اجبتها :

ــ عندما تأتي يحلها ربنا

... انتظرتها امس .. لم تأت .. كنت قد استعددت للذهاب معها .. ارتديت ملابس الخروج .. ولم تأت .. خلعت ملابسي وامسكت بصحيفة داريت في سطورها اسفي وانفعالي .. لكنها رقدت امامي فوق السطور ببنطلونها تبتسم .. واخرجت لي لسانها ثم مددت اصبعها لتمسك انفي .. ثم شدت شعري : غبت عليك هه ؟ أترى ؟ اني اقوى منك .. تعال نسبح معا في حمام سباحة كما يفعل المطرب مع عشيقاته ؟ .. لا تعرف السباحة ؟ .. حسنا ساعملك ! ..

... فجأة دق الباب .. خرجت اهرول من حمام السباحة .. دخلت حميدة دون مايوه !

.. تظاهرت بالهدوء .. جلست امامي فوق سريري الصغير ..قلت لها اريدك يا حميدة .. قالت : انت مجنون ....

ــ تصور .. تصور اني عدت الى نزواتي السابقة .. شعرت اني حرة وهو غائب عني .. كلمت من بيت الشغل اصحاب المحلات المجاورين للبيت .. اخذت من كل واحد ميعادا ومكان اللقاء بجوار جامع الزمالك .. حضروا جميعا .. رآهم عبده الطباخ زميلي في بيت الشغل .. ارسلته ليراقبهم : جاء المكوجي .. والبقال .. والجزار والكهربائي..

ظلوا واقفين اكثر من ساعة ينتظرونني صامتين .. لم ينطقوا بحرف مع بعضهم .. ثم عادوا جميعا يضحكون على انفسهم !

.. ضحكنا حتى دمعت عينانا .. ثم قالت فجأة باسى وكلماتها لها لون الرماد :

ــ يجب ان يكون لي بيت ..

.. قلت بصوتي المتهدج :

ــ كما تحبين .. اعيدي التجربة مرة اخرى ..

... تركتني وانصرفت .. بعد قليل رأيتها تسبح فوقي بلا بنطلون .. جسمها عار .. كلما هممت بامساكها تحلق بعيدا عن متناول يدي .. اخيرا يئست .. وضعت يدي جانبا .. فجأة وجدتها تهبط فوق صدري .. تحتضنني بقوة .. ثم نامت بجواري في هدوء ! ..

... طار النوم من عيني .. ذهب الهدوء حقيقية ..

... الليلة قادتني اقدامي الى بيت ام حميدة .. طالعتني حميدة عند الباب .. صرخت في همس : ارجع .. ارجع .. الرجل هنا ..

.. لكني دخلت ..

... ما زلت تائها وسط الظلمة الكثيفة .. اسفل الدرجات المائة .. اسمع خرير المياه الجارية.. ابحث عن بصيص من الضوء.. لمحت ذبالة ضوء هناك .. سرت اليها .. عثرت على طريقي الموصل الى اعلا .. وجدت الدرجات المائة : صعدت عليها .. مددت يدي .. رفعت الغطاء ..

ــ اسمحوا لي لحظة ..

... سرت الى حجرة حميدة على الفور : في حجرتي القديمة كانت تجلس وحيدة هناك حزينة فوق سريرها البارد ..

.. جلست بجانبها .. صرخت في وجهي ــ مرة ثانية ــ وهي تهمس:

ــ عندك الجرأة لتأتي الى هنا وتجلس بجانبي .. وانت تعلم انه غيور ومجنون ؟!

.. قلت وانا انظر في عينيها :

ــ تريدين العودة اليه.. هه ؟

.. سكتت لحظة .. بدا في عينيها ظل من حنان .. قال صوتها متوسلا :

ــ اريد ان اعود

.. تركتها على الفور كما جئت ..

.. سرت مارا على الرجال الذين يتطلعون الى حذائي وهو يتحرك بحرية في انحاء الشقة بافواه مفتوحة .. اتجهت الى الشرفة : امونة هناك الان .. ام حميدة تجلس وحدها في الشرفة : امونة يا ثور يا عشرة رجال .. تجلسين وحيدة في الظلمة .. بنيت سدا بينك وبين الرجال : أمونة لا تريد الصلح .. انقطع نفس الرجال . لم يجرؤوا على القفز من فوق السور .. ظلوا خلفه يدخنون ويتحدثون في همس..خاف الرجال قوة امونة ! ..

.. سحبت مقعدا في هدوء .. جلست امامها .. احست امونة بالراحة على الفور .. لانت ملامحها القاسية .. قلت لها :

ــ اريد ان اتحدث معك في موضوعها ..

.. صاحت بلا غضب كي لا يقفز الرجال من فوق السور :

ــ عندك .. لا تتدخل في الامر !

.. قلت بهدوء بارد هامس حاد كالسيف :

ــ اسمعيني .. اسمعي كلماتي جيدا .. دعي البلاهة

... نظرت فيما حولها .. شدت علينا باب البلكونة .. اصغت الي .

.. قلت وانا اعلم انها ستفهمني :

حميدة تريد العودة اليه .. المرأة تريد الرجل .. رجلها هنا .. دعيها له .. اتركيه يأخذها ..

... راقبت ملامحها جيدا .. كلماتي اشعلت النار في القلب ..

طاحونة

..وللاسى ، طاحونة تدور
تذرذر الرماد في الهواء
فتملأ السهول
تكتم الانفاس ،
تخنق الزهور ..
وترسل الغلمان في البكور
ليملأوا السلال بالعظام
من قرارة الكهوف
يخاصوا العظام من مخالب الصقور
ويخرجوا العظام من قرارة القبور

●

تدور في المساء
تدور في الصباح . اذ تدور
تكوم الرمادا
جاعلة بدادا
ما ركب الاله من عظامنا
جاعلة كياننا رمادا
هازئة ، تقول : « لا معادا »

●

تئن في مشارق البدور
تئن في مغارب البدور
لتخلط الصغير بالكبير
وتمزج الخريف بالربيع
تدور لا تكل ! اذ تدور
تكوم الرمادا
جاعلة كياننا رمادا !

●

ويسرق اللصوص في الظلام ،
حين ترقد العيون
من طحنها ، ويصنعون الخبز منه ،
انهم جياع !
خبزاً كما في لقمة الزقوم
من غصة تكاد لا تقيم
آكلها الا لقبر ، معبر الجحيم من جحيم ..

●

طاحونة الاسى تدور
ام انها طاحونة الالم ؟
اظنها طاحونة الندم
على هلال ، لاح ، لم يتم
وغاص في الرماد
ليولد اليوم الذي في فجره المعاد .

صباح الدين كريدي — اعزاز ـ سوريا

كل كلمة احرقت جزءا منه ..

... كانت تحسب انحميدة موجودة فوق صدرها تلقمها الثدي.. تخفيها عن عيون الرجال بين طيات لحمها وملابسها .. الان فوجئت بها تعض ثديها .. تتدرج من فوق صدرها .. تجري الى حيث يجلسزوجها مع باقي الرجال .. رفعت امونة رأسها في بطء وتمتمت وعيناها تشقان الحارة الراقدة في الظلمة :

ـ يأخذها .. يأخذها .. انها امرأته يأخذها .. هل انا مانعت ؟!

.. نسيت انها كانت ترفض ..

.. قلت وانا اعيد السؤال عليها لاتأكد من كلماتها :

ـ موافقة اذن ؟

.. قالت وهيتجهش فجأة بالبكاء في صوت عال :

ـ يأخذها .. يأخذها لكنه لن يمكث هنا

... ابكي يا ام الولايا .. ابكي .. انا الاخر من الولايا .. رجل من الولايا .. وددت أن أضربك منذ زمن حتى اراك تبكين .. لانك حرمتني من حميدة لانها غاليةالثمن علي .. كفة ميزاني لا يمكن انتحملها .. الان يبكيك التزي الكسول بعد ان ضربك واخذ الغالية منك ..

.. قمت من مقعدي .. ربت على كتفها بحنان .. همست في اذنها ..

ـ داري دموعك يا امونة .. انتظري وحدتك .. ثم ابكي كما تشائين ..

.. خرجت الى الرجال .. حالما رأوني وقفوا مرصوصين كعساكر زمبلك .. تطلعوا الي مشدوهين ينتظرون كلمتي :

.. قلت :

ـ قالت : يأخذها ..

.. تهلل وجه الرجال ..

.. عدت اكمل :

ـ يأخذها بشرط الا يقيما هنا .. !

.. قال الجميع :

ـ موافقون ..

.. تناهى الي صوت حميدة من داخل حجرتها :

ـ لكن ايجار الشقة غال عليها .. من يدفع لها ؟!!

.. قلت فوراً دون ان افكر ولا اسألحتى نفسي ماذا اقول :

ـ انا ساقيم معها !

محمد حافظ رجب

الحزن قدرنا

الى الصديق : رجاء النقاش

هل السرور طارىء ، ام الاسى ؟ ..
والاصل في الحياة ، ضحكها ام البكاء ؟ ..
هل يستوي العويل والغناء ؟ ..
كما يقول من ثوى رهين محبسيه ..
بلا رجاء ..
فرغم ان عيشنا يثرى بموجب الفرح ..
ورغم ان اجود الخمور تملأ القدح ..
فانني استشعر الاسى ..
احس ان حزننا قدر ..
الحزن لعنة البشر ..

...

ذهبت للطبيب ، قلت للطبيب :
« هل للاسى دواء ؟ » ..
فاطرق الطبيب ، واجما وغاب ..
وفي متاهة الظنون راح باحثا عن الجواب ..
وكان في دموعه الجواب ..

...

ذهبت للعراف ، اسأل العراف :
« هل ثم من سبيل ؟ » ..
فحدق العراف برهة في سفره وقال :
من بعد ما رمى الكتاب ..
« هناك في المجاهل البعيده ..
« من ارض واق الواق ..
« بئر بلا تخوم ..
« من نال منها جرعة لا يعرف الهموم ..
« لكنما ... » ، ويصمت العراف ..
سألت : « ما هناك ؟ » ..
اجاب : « تدفع الثمن » ..
فقلت : « والمثن ؟ » ..
— « ان تسلب الاحساس ،تسلبالتفكير » ..

...

ما بين حيرة الطبيب ..
وحكمة العراف ..
احسست بالضياع ..
وقفت حائرا كزورق ، بلا شراع ..
اجتاز محنة اختيار ..
ويبرز القرار حاسما كسيف
الحزن لا مفر ..
الحزن شطنا الاخير ..

...

يا حزن يا عزاءنا ..
يا حزن يا قضاءنا ..
يا مهلكي ، وبارئي ..
بوركت يا اساي ..
يا منقذي من الضياع ..
احيا بلا حس ، بلا تفكير ..
كالبهم لا ماض ولا مصير ..
بوركت يا اساي ، يا ملاذي الاخير ..

القاهرة

عبد المنعم عواد يوسف

رواية « الطريق » بين الرمز والواقع

بقلم عبد العزيز عبد الفتاح محمود

في هذه الرواية الجديدة الرائعة لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ جانبان يضعهما الباحث نصب عينيه منذ الوهلة الاولى التي ينتهي فيها من القراءة .. الجانب الاول : المحتوى الفلسفي لرؤيا الكاتب والدلالات الخطيرة التي ينتهي اليها . والجانب الثاني : مزج الرمز بالواقع في قدرة فائقه دون ان يفقد الكاتب سيطرته لحظة على التكنيك.

ويجدر بنا أن نقرر منذ البدء ان اسلوب الرواية فيه بساطة الشعر وشفافيته وعمقه .. لكنه مع ذلك اسلوب روائي اولا استطاع نجيب محفوظ أن يجعله موحيا وحساسا ومزمجرا وغاضبا وعنيفا .

ورواية الطريق .. هي الطريق بين الحاضر والمستقبل .. هي الخروج من الماضي العفن الملوث الى العالم الفسيح حيث التطلع « بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام ».

ان اكتشاف الطريق هو اكتشاف حياتنا ذاتها من خلال الصراع الهائل في المجتمع الواحد .. ومن خلال الدوامة التي يدور فيها عالمنا اليوم .. ان انسان العصر الحديث قد ورث حياة مثقلة بالاحزان والهموم .. بالحب والعطف .. بالمسئولية واللامبالاة في آن واحد ، وحضارة القرن العشرين حضارة معقدة لا يسهل على المرء أن يحيا في كنفها دون ان يفقد الاتجاه . وعليه ان يضع قدمه على نقطة ارتكاز ليحدد مكانه ويكتشف ذاته وذوات الاخرين .. فالانسان المعاصر مشدود الى ماضيه ، وهو في تطلعه الى القمة مرتبط أبدا بالسفح .. وهو في نضاله الطويل يشده المصير المجهول .. لا بد من الحرية لكي تتوفر لنا الكرامة .. ولا بد من الكرامة لكي يتحقق لنا السلام .. لكن من أين يأتي السلام ؟! .. أن عالمنا ملفع بالجنس والعدم والجريمة وهي قيود تعوق مسيرنا نحو الحرية والكرامة والسلام .

ان الوصول الى سيد سيد الرحيمي هو الوصول الى عالمنا الضائع .. عالمنا الذي نفتقده ونناضل من اجله .

لقد اكتشفت « بسيمة عمران » ذاتها فجأة في الطريق من السجن الى القبر والقت بكل أسرارها الى « صابر » أبنها الوحيد وعليه أن يمضي في طريق اخر غير طريق امه . لقد هدته الى الطريق الصعب حينما اخبرته أن أباه ما زال حيا .. لم يمت كما قالت له من قبل . انها لا تعرف عنه شيئا منذ ثلاثين عاما .. منذ هجرته وهربت الى الاسكندرية . عليه ان يمضي في كبرياء والا يهتم بكلام الناس ،وان يلوي قبضته القوية التي يلوح بها « فتخرس الالسنة المتوثبة للنيل منه ومن امه » .. انها أشرف من امهاتهم جميعا « فهم مهرة في خداع الناس بمظاهرهم ، الوجيه فلان ، المدير فلان ، الخواجا فلان ، سيارات وملابس وسيجار ، كلمات حلوة، روائح زكية ، لكنني اعرفهم على حقيقتهم ... اعرفهم في حجرات النوم وهم مجردون من كل شيء الا العيوب والفضائح » .

وكانت نقطة الارتكاز بالنسبة لصابر هي الانفصال عن امه .. هذا الانفصال الذي فرضه الموت بوجهه الكالح . ليترك حياة الليل والدعة والفراغ والمال والصعلكة الى حياة المشقة والبحث . لكن الطريق الموحشة المعطرة تسلمه الى طرق موحشة مليئة بالاسرار والالغاز والاحلام واليأس . فحياته في « النبي دانيال » بالاسكندرية والبحر وبنات الليل والغرائز المشبوبة لم تنفصل عنه وهو تائه في القاهرة يبحث عن ابيه في اعلان الصحيفة اليومية او وجه الشحاذ العجوز الذي يقابله كلما نزل من الفندق كالقدر المكتوب ، او رنين التليفون الذي يوحي بالرجاء مجرد أيحاء .. او احلامه المزعجة عن أبيه التي ما تلبث أن تصدمه اليقظة بالواقع .. او وجه « الهام » الملائكي وجسد « كريمة » الذي يلسعه بالرغبه كل ليلة . اين حقيقته وسط هذه الدوامة ؟ اين صابر الانسان الطموح الى المستقبل ؟ اين صابر الادمي الذي يحس بالحياة الجديدة لكنها تفر من بين يديه كحسناء لعوب لا تمكنه من نفسها ؟ .. هل هو « سيزيف » القرن العشرين ؟ ام مجرد فرد مغمور .. رقم يعيش وسط ملايين الارقام المعلقة في لوحة خالدة ؟ . ربما لا يستطيع أن يجيب على هذه التساؤلات فهو موزع النفس بين الهام وكريمة .. هو مزدوج الشخصية الى أبعد حد . الهام بالنسبة اليه تمثل المستقبل ، حياة الاستقرار والحرية والكرامة والسلام .. وكريمة بالنسبة اليه تمثل الماضي البشع وحياة القلق والعدم والجنس والجريمة . في محل « ترتركوان » يتناول مع الهام شطائر الفطير واكواب العصير ويتكلم في الحب والاستقرار والمستقبل ، ويعيش في ضوء النهار . وفي حجرته بفندق القاهرة تتسلل اليه كريمة خلسة بعد ان ينام زوجها العجوز « عم خليل » صاحب الفندق فتشعل فيه الرغبة وتبعث بين جنبيه العنف ، وتملأ خياشيمه باللذة والعتمة والجريمة .

وفي سبيل الوصول الى الهام او كريمة يكاد ينسى هدفه الاول وغايته الكبرى .. يكاد ينسى أباه الضائع وعالمه المفقود . نعم فنحن تلهينا غاياتنا الصغيرة عن اهدافنا الكبيرة .. وتحولنا مسالك الطريق عن الوصول الى نهاية المطاف . أن المال المحدود الذي تبقى من ثمن شقته في الاسكندرية يكاد ينفد ولم يعثر صابر على ابيه .. لم يستطع ان يهديه اليه العراف ولا الاعلان في جريدة « ابي الهول » .. فلينفذ خطة « كريمة » . أن عم خليل العجوز ربما يعيش عشرين عاما ولديه المال والفندق والمرة البضة ولا شيء غير ذلك . لماذا لا يحتويه القبر الان بعد هذا العمر الطويل ؟ ماذا يريد بعد ذلك من الدنيا ؟ ليترك لغيره مكانه فهو اقدر على الانفاق واشباع رغبة الزوجة . أن لديه الامل والهدف بينما عم خليل لا امل له ولا هدف. فليضربه بالة حادة ويتزوج كريمة . وبالرغم من حب الهام له فلا أمل للزواج منها . هي مثقفة وموظفة في جريدة «ابي الهول » وهو جاهل وعاطل . لم يبق غير كريمة بنت الليل والانفوش والبحر .. وعم خليل ليس سوى عقبة صغيرة يسهل التخلص منها .. ويفتح ذات ليلة باب مخدع عم خليل . الليل والسكون لا يبددهما سوى صوت الشحاذ العجوز في الشارع . وتجحظ عينا عم خليل على ضوء اللمبة الجاز بينما تهوي الالة الحادة في يد صابر على جبهته بضربة قاضية .. وينفلت من الشباك ويهرول الى النيل ليخفي أداة الجريمة بينما كل شيء يشير اليه في احمرار بلون الدم .. السماء وصفحة النهر والشوارع الخالية وجسد الشحاذ العجوز ووجه ابيه الضائع المجهول . وفي الصباح تكتشف الجريمة ، ويدخل « علي سريقوس » خادم الفندق السجن تحت التحقيق .. هو الذي لم يرتكب جريمة ولم يفعل شيئا .. لكن هل تضيع معالم الجريمة بكل هذه السهولة ؟ . ان « محمد الساوي » يشير في صابر الى الغيرة والعنف .. لقد لاحظ العجوز نظرات صابر الجائعة نحو كريمة ، كذلك لاحظ من قبل تسلل زوجها السابق الى الفندق في حياة زوجها الاخر القتيل . لقد خانت كريمة زوجها كثيرا .. والقى بالحقيقة في وجه

صابر .. اشعل فيه الغيرة والعنف .. حتى ان يصبح زوجا لكريمة بعد ان ارتكب الجريمة اصبح املا ضائعا تماما مثل ابيه الضائع من ثلاثين عاما . « لكن الجنون كان يعصف به عصفا .. اجل كان الجنون يعصف به عصفا » ... « لن اسمح لقوة في الارض با تجعل مني ابلـــه . ستجدينني قريبا فوق رأسك ضربة قاضية .. اعطني ما تشائين .. خونني او تزوجي ، فان حبل المشنقة في يدي ، لا تتوهمي ان حياتي اغلى من كبريائي » .

لقد نسي صابر في هذه اللحظة قضيته الاولى واصبحت قضيته الثانية تستولي على كل اهتمامه .. لا بد ان يذهب الى الزيتون فربما كانت تضاجع الان رجلا آخر .. لا بد ان يواجهها بالحقيقة كما القى بها في وجهه محمد الساوي العجوز . وخرج قاصدا الزيتون مقتنعـا انه ضلل المخبر المرابط امام الفندق .. ويجد نفسه امامها وجهـا لوجه .. وتأتي النهاية :

- « صدقني .. انا احبك .. لم ادبر شيئا الا من اجلك .. صدقني
- حطمت حياتي بكذبة لتفوزي انت وعشيقك بالثروة والحياة .
- صدقني قبل فوات الاوان .. انت حبيبي .. ولا احد غيرك ..

خرج الرجل من حياتي من زمان

- دبرت قسمة جهنمية ، فلي الجريمة ، ولك الرجل والثروة .
- لا فائدة انتهينا ، اللعنة ، رأسك كالحجر ، كلمة أخيرة .. الا تريد ان تصدقني ؟
- كلا ..
- اذن ماذا تريد ؟!
- ان اقتلك ..
- ثم تشنق ؟!
- في الف داهية .

ودوى طرق على الباب كالقنابل ، وطوقت البيت أصوات مهددة ، واقدام ثقيلة ، وصرخت كريمة بيأس : جاء البوليس ، الم اقل لك . انقض عليها كالمجنون وقبض على عنقها بيدين عصبيتين ثم ضغط بكـل قواه على حين اهتز الجو من زلزلة دفع الباب » .

وهكذا يسقط صابر في منتصف الطريق .. دون ان يحسم قضيته الاساسية . لقد سقطت من قبل « بسيمة عمران » وخرجت من السجن لتعري الحقيقة كما عرت جسدها ثم تلفظ أنفاسها الاخيرة .. وضـاع سيد سيد الرحيمي منذ ثلاثين عاما واصبح لا يدل عليه سوى صـورة الزفاف .. وها هو صابر يواجه الموت وحبل المشنقة يداعب عينيـه ، وحان موعد الالتفاف حول عنقه . ان اسرة الرحيمي تقع في المـوت والضياع وهي تبحث عن الحياة والاستقرار .. الموت والحياة همـا وجها القضية ، وهما المحور الفلسفي لادب نجيب محفوظ الان كما كان محور ادب الروائيين الكبار في كل العصور منذ عصر الميثولوجيـا والميتافيزيقيا حتى عصر العلم والتجريد والقنبلة الذرية رغم اختلاف الرؤية والاسلوب والتكنيك . ان نجيب محفوظ يعري القرن العشرين تعرية تامة ، فلم نوفر لانفسنا الطمانينة بعد ، ولم يوفر قرننا العشرون السلام بعد ، ولم يوفر العيش الكريم والسعادة بعد ، ان الجدران مـا زالت امامنا : الحروب والكوارث .. الحقد والعنف .. القيم مهزوزة ولا بد من قيم جديدة .. التغير موجود لكنه لم يخف وجه الشحـاذ ولا قبضة البلطجي .. وسيد الرحيمي لا يستقر في مكان ابدا .. هـو موزع بين قارات العالم .. وجهه الجميل لا نعرفه الا من خلال صوت على ورق .. « خصاله هي خصالي ولكن بينما يلهو هو فوق الكرة انزوي انا في السجن منتظرا حبل المشنقة» . هكذا يؤكد صابر لمحاميه وهـو تأكيد مبعثه التناقض الواضح لكثير من زوايا حياتنا في عصرنا الراهن ..

- « صاحبك الضرير لا يعرف كل شيء .
- هو على اي حال مليونير .
- الاهم من ذلك ان قوانين الدولة لا تهدده .
- لكنك كنت تعلم انك فقير وخاضع لقوانين الدولة » .

ومع كل التناقض الموجود في العالم لا بد من النضال والبحث . فالطريق طويلة وشاقة ولا بد من السير حتى تدمى الاقدام او يواجهنـا المصير . ربما نجد فرصة للامل حتى ولو كنا نواجه الموت .. والانسانية ما زالت تسير بالرغم من كل شيء : الحرب .. والجلادون .. وارتفـاع الاسعار .. والضعفاء وعشاق الدعارة في الليل .. والشحاذون .. وربما يصدمنا الواقع بمرارته لكنه واقعنا على اية حال ولا بد مـن العيش فيه رغم القسوة والمرارة .. وهي دلالة خطيرة لعمل ادبي خطير .

ونختم هذه الدراسة الصغيرة المتواضعة بكلمة لويس عوض فـي الاهرام : « واليوم يقدم لنا نجيب محفوظ في قصته الكبيرة «الطريق» مرحلة جديدة ووجها جديدا في هذا الادب العظيم .. ادب بحث الانسان عن المجهول العظيم ، ان اخذناها مأخذ الواقع عشنا مأساة الانسـان في الواقع ، وان اخذناها مأخذ الرمز طاردنا معه اسرار المجهول حتـى حافة الاكمة » .

القاهرة **عبد العزيز عبد الفتاح محمود**



القى قطعة الخشب من يده ، ونهض ، قال :

ـ السماء تبول كالكلب .

ثم سار ناحية السيارة . رائحة البيرة ،تركني لرائحةالبيرةوالبنزين والارض . ترنح ، ثم وقف وقد استند على الباب المفتوح للسيارة . رأيت المرأة ، ضاحكة ، بيضاء . والرجل نجشأ ثم صعد اليها . ظل الباب مفتوحا . لم أشأ ان أرى . ولكن لم يكن ثمة ملجأ .

صاح من مكانه : اذا اردت ان تجلس في السيارة ، لا مانع .

وغطس في الصمت ، رفع رأسه . لماذا لا يتركني ؟

سمعته ، كان يهمس للمرأة التي تضيء بالضحك :

ـ جالس في المطر ، المخنث .

ونصحني : ستبلل نفسك . المطر قذر ، لن يكف . اشرب ، على الاقل .

رائحة البيرة ، لقد سكر ، وسكرت ، لا ، ليس من البيرة . والمرأة التي تعرت ، كان الباب مفتوحا ،بياض في عتمة ، وانا تحت الصنوبرة لان المطر كالسجن وليس من ملجأ ، والرجل يبدو كالزنجي في عتمة السيارة. بياض ، لست انظر ، بياض واضح واسفل المرأة واضح وهو لا يغلق الباب ، ويهطل المطر المدبب ، مطر خشن ، والبيرة تملأ نصف القنينة . اقترب ثقيلا ، والمرأة لم تنهض . في السيارة ، ظلت بيضاء : تدخن .

قال : لا تشرب؟ لا تدخن ؟ اذا ، لم جئت ؟

صحت : لم أرد ان آتي .

قال الرجل : ولكنك اتيت يا عزيزي .

فقلت بغضب : لم يسألني احد ان كنت اريد .

فضحك : انا ، قريبك الشاطر ، اردت ان تسعد قليلا . معي .

ضرب صدره . سكران،انا أيضا ، والمرأة ، رائحة البيرة والارض .

وقال : أشرب . واضطجع تحت الصنوبرة ، على مشمع السيارة المفروش فوق الارض . ورائحته ممزوجة بعطر المرأة ، وهي راقدة لم تزل .

ـ اذهب اليها .

وتجرع ، القى بالقنينة . قال بوجه مشمئز :

ـ لماذا لا تذهب ؟

قلت ضاحكا : لا اريد .

فصرخ : لا تضحك ايها الثور . لماذا جئت ؟

واعاد بضجر وحقد :هه،لماذا ؟

اردت ان اقول شيئا ، المرأة ، قلت الهوينا ء :

ـ المرأة . اغرتني،فجئت .

ـ اذا ، فانهض .

وانتظر .

الرائحة ، دوختني اشكال الرائحة التي تقف في فراغ انفي. نهضت ، تدحرجت عليه ، قلت صارخا : اكرهك ايها التافه .

فانفتل ، نهض،رفسني وامسك بي ، رفعني ، هزني من عنقي :

ـ اتخاف ؟ سأعلمك ، تكرهني ؟

وبدأ يصفعني . صراخه ، كانت البيرة تضحك في صراخه .والمرأة تلاحظ باسنان زجاجية في حمرة ملتاثة على دائرة فمها ، وانكفأت فجأة، تركني . جلس بعد برهة ، شرب واخرج الثقاب من جيبه ، قال بجرأة :

ـ نحن مخموران . لناكل.

واشعل الخشب ، فارتفع دخان اخضر . وهمس بشقاء :

ـ هذا البول لا يترك شيئا جافا .

واهدى الي قوله :

ـ الا تتسلى معها ؟

فهمست : اكرهك ، يا ابن عمي .

في وجهه المذعور الثقيل ، في بول السماء ، في الدخان ، ضحكت وتجشأت وانتظرت ان تسقط الصنوبرةالعارية وتدفن جثتي وجثته .

رفع صوته من المغطس الذي في بطنه ، قال :

ـ لانني شقي ، لانني شقي .

فهمست : ابنك مات البارحة ، لماذا جئت بالمرأة ؟

فواجهني بزجاجتين تحت جبينه ، قال بلطف :

ـ انت لا تفهم .

فصرخت : لا تحاول ان تتكلف .

القى الخشب والثقاب ،وقال لي متهربا :

ـ قد تستطيع ان تشعل النار.

قلت : ساشعلك ايها الخرقة .

ارتمى علي فجأة ، كأنما حملته الريح ، ثقيلا اجش الحنجرة :

ـ لا تزعجني ، ساقتلك ، لا تزعجني .

وصفعني ، فلم ابتعد، وكف . طار فجأة الى السيارة ، سمعت صراخ المرأة ، وجريت ، امسكت بذراعيه ودفعته على العشب الخريفي الرطب . واعطيته القنينة ، وقطعة خبز ، وبيضة . وشرب ثم اكل،وحول بؤبؤيه الى اعلى ، نصفاهما ظاهران .

ـ انني شقي .لماذا مات ، لماذا ؟

واخذت القنينة ، بيرة فاترة تزور امعائي . رائحة الارض والمطر ، وصاح :

ـ اي فصل هذا ؟

ـ خريف .

فاوضح : لا اعرف متى يتبدل كل شيء ، وكيف .

فقلت بهدوء : لماذا جئت بالمرأة ؟

قال : أن كل شيء زائغ .

وزمجر ، دار كالنمر بسرعة ، وانبثق امامي:

ـ الا تذهب اليها ؟

ورمقني ، لم يصل نظره الى ما تحت جلدي . انكفأ فجأة ، خار الى الارض واخفى وجهه .وقال:

ـ خريف ، خريف اخر .

وامتزج بالارض ، رائحة رجل ورائحة ارض . وقميصه اصبح جلدا اخر ، في المطر الفاتر ، ترطب وتشبث بجثته الطويلة ، تحت الصنوبرة، ونحن ننتظر ان تنكفيء في البول وتخفي كل شيء ، ورفع رأسه فجأة . ارهف اذنه ، مغمضا . كانت المرأة تغني ، وكان الفسق . قال : انها حنونة جدا .

واخذ يبكي .

كركوك ـ العراق

سركون بولص

التجربة الرومانسية

- تتمة المنشور على الصفحة ٣١ -

على التعبير الشعري نفسه بحيث يصبح هذا التعبير ذا ابعاد ودلالات تنسجم مع موقف الشاعر الفلسفي من التجربة ذاتها . ومن هذه البؤرة يمكن فهم المحتوى الداخلي للعمل الفني بصفة عامة .

ولعل من مظاهر التعبير الجيد استخدام الرمز والايماءات الصغيرة وغيرها من وسائل التعبير . ويجب ان يكون هناك نوع من الحذر عند التصدي لدراسة بعض النماذج الشعرية التي تستخدم التعبير الرمزي حتى لا نحمل النموذج الشعري الذي نقوم بدراسته الوانا معينة من التفسير فوق طاقته ، كما فعل الدكتور لويس عوض في بعض دراساته عن الشاعر صلاح عبد الصبور والاستاذ نجيب محفوظ لانه لا يمكن ان نحيل العمل الفني الى مجموعة من الرموز وعلى الدارس ان يفك طلاسمه ... ففي تصوري - خصوصا عندما نتعرض لدراسة الشعر - ان مهمة الناقد او الدارس هي القاء بعض الضوء على الرؤيا الخلفية للعمل الفني - ورؤية الشاعر من خلال هذا العمل - لجوهر العلاقة او القضية او الموضوع الذي يعبر عنه . على انه لا يجب ان يكون هذا الضوء مبهرا بحيث نحرم القارىء من تشوقه لاستنباط واستكشاف المحتوى الداخلي بنفسه . ومن ناحية اخرى فقد نشعر اننا قد قمنا بعملية تعرية غير مطلوبة - لكل جزئيات العمل الفني قد لا تكون بنفس الدرجة التي ارادها الشاعر لتجربته .. ومن ثم فاننا نستطيع ان نلقي اكثر من تفسير لنموذج فني واحد . وفي بعض الحالات نجد ان الشاعر نفسه ربما قصد الى ذلك..

وثمة كثير من القصائد استخدم فيها الفيتوري الرمز .. والرمز عند الفيتوري ليس رمزا في كل جزيئة من جزيئات العمل الفني ..انه يستخدم رمزا واحدا - في اكثر الاحيان - لتتكثف حوله جزيئات التجربة . كما فعل صلاح عبد الصبور في قصيدته التي تحدث فيها عن الحب واستخدم « الطفل » رمزا لحبه الاول ...

والفيتوري ايضا يستخدم الرمز في الكتابة عن افريقيا (افريقيا عند الشاعر مجموعة كبيرة من التجارب التي تتكثف داخلها رؤيته لقضايا الحرية والاستقلال وعذاب الانسان الافريقي) وهو يتحدث عنها كما يتحدث الى امرأة جميلة .. كما يتحدث عن فتاة ربط بها مصيره . يقول في قصيدته « عصر الميلاد » :

وتطلعت الى عينيك والشعر سلاحي
عاري الجبهه ، كالفجر مغطى بجراحي
اتلقى عنك اعداءك .. اعداء كفاحي
الذين اغتصبوا عرضك مره
حملوا عارك زهره

وفي قصيدة « ليلة السبت الحزين » يقول :

الليله .. الليله يا حبيبتي
كانت مع السحب عيوني
وانا خلف جداري جثة يسجنها جدار
اكبر مما تبصرين انت يا حزينة العينين
حالك الظلمه .. حالك النهار
يدفننا .. يحفر قبرنا في كل يوم مرتين
ونحن بعض جثتين
ليس على وجهيهما الا ابتسامة احتقار
وشهقة احتضار

الليلة الدموع .. الليلة الندم
مليون زهرة تسحقها قدم
وجه قتيل يبتسم
شمس نحيص دم

وفي قصيدة اخرى يقول :

تمنيت .. لو لم تقم بيننا كل هذي السدود
ولو كنت يا ابعد الناس عن مقلتيا
ويا اقرب الناس مني اليا
تمنيت .. لو كنت بين يديا

تمنيت يا اجمل الغانيات جمالا
اذا خجلت مقلتاك
او التهبت وجنتاك اشتعالا
ويا اعظم الفاتنات نقاء
وارفعهن سماء
وابعدهن منالا

تمنيت لو كنت انت معي الان
انت معي .. انت
انت بعينيك .. صوتك .. شعرك
هذا الدجى المخصب المبدع
امرغ في حقله الاستوائي
في موجة الشفقي الشقائي
امرغ في لحظة كبريائي
واشرب من ادمعي
وتجتاح روحي اجراس فجرك
فاسقط في موضعي
ويغمى علي
وتأخذني غفوة فوق صدرك

واستخدام المرأة كمعادل رمزي لقضية الشاعر - اذ ان المرأة بما تصف به من جمال وعذوبة وبما يمكن ان توصف به علاقتها بالرجل من مظاهر العمق - يصبح من اغزر وسائل التعبير . وانا اميل الى تفسير هذه القصائد تفسيرا يعتمد على هذا المفهوم - على عكس ما قد يفسرها البعض - حتى ولو كان الشاعر نفسه - وذلك لان الشاعر قد عبر عن تجربته بثورية وانفعال لا يتناسب مع ثورية التعبير عن التجارب التي تنبع من علاقة المرأة بالرجل . ثم ان تفسيرها على هذا النحو انما يثري ويعمق ابعادقضية الشاعر . وليس ثمة - عندما نتعرض لرصد موضوعي لكل هذه النماذج الشعرية ما يجعلنا نتراجع عن هذا التفسير .

ومن نفس هذا المنطلق التعبيري بدأ الشاعر يعبر عن تجاربه مازجا بين احساسه النفسي وبين العالم الخارجي .

واثناء سير الشاعر منطلقا عبر دروب رحلته الشعرية يشعر بالعجز - احيانا - عن صنع حاضره وحاضر قضيته بالكلمات .. وليس هذا دليلا على تخلي الشاعر عنها ولكنه الصدق الفني في التعبير وفي ابراز مشاعره الحبيسة :

واحس بشيء مصلوب
ينزع اطرافي المصلوبه
يا احزاني
اني احمل كل خطيئة عصري

وازاء احساس الشاعر المر بانه يحمل خطيئة عصره جميعهـا تتعثر الكلمات على شفتيه ولا يتفوه بها لان الله ـ رمز الحرية سجين على الارض :

لا شيء لكي اكتب كلمه
فالكلمة في شفة الله
والله على الارض سجين

وعندما يحمل الشاعر الخطيئة ويرى ان الحرية مصلوبة يحس باللامبالاة .. بالعذاب :

الدين عذاب
الفن عذاب
الصمت عذاب

واذا كان الدين والفن والصمت جذور العذاب والمأساة فان هـذا العذاب لم يصبح نغمة عند الشاعر .. لانه مجرد بلورة لاحساسه عندما تلتوي به الدروب . وربما يدفعنا هذا لان نقف قليلا مع ذات الشاعر ومع تجاربه الوجدانية .

لقد استطاع الفيتوري ان يكثف كل تجاربه الفنية في بعـض قصائده الوجدانية ... وربما تجتمع كل خطوط النجاح الفني في قصيدته الجيدة « الى عينين غريبتين » التي يقول فيها :

سيدتي
لو لامست عينيك هذي الكلمات العاشقات
صدفة .. لو عبرت خلال الشفتين
فاعتذري عني لعينيك
لانني اتكأت في ظلها ذات مساء
سرقت غفوه
داعبت في سكونها النجوم والقمر
نسجت زورقا خرافيا ، من ورق الزهر
وسدت روحا متعبا
سقيت شفة لاهثه ..

ثم يقول ...

لو التقينا فجأة ..
لو ابصرت عيناي تلكم العينين
الافقين الاخضرين الغارقين في الضباب والمطر
لو جمعتنا صدفة اخرى على الطريق
وكل صدفة قدر
فسوف الثم الطريق مرتين

في هذه القصيدة نحس بمدى صدق الشاعر في التعبير عن مشاعره .. من خلال الموسيقى الخافقة التي تنساب بين الكلمات في عذوبة ، ومن خلال الافكار التي تتسلل في سهولة وبلا افتعال . وهذا يجعلها في مطلع قصائد الفيتوري الوجدانية .

وللفيتوري نماذج اخرى في الشعر الوجداني لعل من اهم سماتها المزج بين التجارب الوجدانية والافكار الثورية . فالدارس لهذه النماذج يحس بنفس حرارة التعبير عندما يعبر الشاعر عن تجاربه الثورية .

تتبقى لنا بعد ذلك بعض الملاحظات العامة عن هذا الشاعر بعد ان استعرضنا بعض جوانب فنه الشعري .

فقد لاحظت تأثر الشاعر الواضح (بصلاح عبد الصبور) . لقد حاول التعبير عن نفس المعنى الذي اصبح نغمة كثير من الشعراء . وهو التعبير عن بساطة الشاعر وفقره وهروب السلطة من يديه فلا سلاح له سوى الكلمات . وفي نفس المعنى تقريبا كتب ايضا الشاعر احمد حجازي .

يقول الشاعر صلاح عبد الصبور :

... ما كنت ابا الطيب
ولم اوهب كهذا الفارس العملاق ان اقتنص المعنى
ولست انا الحكيم رهين محبسه بلا ارب
ولست انا الامير يعيش في قصر بحضن النيل

...

ولكني تعذبت لكي اعرف معنى الحرف ..

ويرى الدكتور لويس عوض (٧) ان صلاح عبد الصبور قد اقتبس هذا المعنى من قصيدة ت.س. اليوت (اغنية العاشق ج. الفريد بروك) .

اما الفيتوري فيقول في قصيدته « عاشق من افريقيا » :

صناعتي الكلام
سيفي قلمي
وكل ثروتي شعور ونغم
ولست واحدا من انبياء العصر
لست من فرسانه الذين يحملون رايات النضال

وفي نفس هذه القصيدة اقتبس الفيتوري من قصيدة اخرى لصلاح عبد الصبور . يقول الشاعر :

صناعتي الكلام
لا وسام .. لا وشاح .. لا ذهب
لا راية تظللني .. ولا لقب

ويقول صلاح عبد الصبور :

اتيتك لا كبير النفس لا تياه
ولا في الكم جوهره
ولا في الصدر وشحت
ولكني انسان فقير الجيب والفطنه

وثمة ملاحظة اخرى تتعلق بالنثرية التي تنساب في كثير من القصائد .

وبجانب هذه النثرية نلاحظ ان الشاعر حاول ـ في بعض القصائد ـ ان يتصنع الحكمة والفلسفة في الوقت الذي لم يكن قادرا فنيا على خلق هذه الحكمة .. لانها ليست مجرد كلمات مرصوصة في اتساق وتنظيم . انما يجب ان تنطلق اساسا من التجربة التي يمارسها الشاعر بلا انفعال او زيف لانها محصلة عدة تجارب وليست التجارب نتاج لها .

يا لومومبا
ان الخونة لا ينتصرون
لا يصبح بطلا من خان قضية شعبه
من اسقط رايته يوم نضاله
من سد عليه طريق الحريه
من قبل اقدام القتله
ابدا .. ابدا .. يا لومومبا
لن يصبح « موبوتو » بطلا
حتى لو وضع الاغلال بكفيك

هذا هو نموذج واحد على النثرية والسطحية في التعبير . وربما كان (لومومبا) موضوعا ناجحا لبعض الشعراء ولكن الفيتوري ولا شك قد احفق في الوصول الى ابعاد التجربة التي عاشها البطل الافريقي .

لقد لاحظت ان هذا المستوى في التعبير يحتضن جميع قصائد الشاعر التي تحدث فيها عن بعض المكافحين الافريقيين مثل قصيدة نكروما وقصيدة الى بن بيلا ورفاقه . وربما يدل هذا على ان الفيتوري لم ينفعل بهذه الموضوعات وانماكتبها كما يكتب شعر المناسبات .

وهناك نماذج اخرى على النثرية ورمي الامثال والحكم بطريقة ساذجة قد لا يتسع المجال هنا للحديث عنها ولكننا نكتفي بسرد بعض الامثلة فقط :

لا تضعف

---

(٧) الدكتور لويس عوض ـ دراسات في الادب والنقد ، ص ١٨٤ .

ان الضعف يميت القلب
لا تسقط ....
لا تلق سلاحك
احرق في الظلمات وشاحك
...

وثمة ملاحظة ثالثة تتعلق بتطور فهم الشاعر للحرية .. فلم يعد التعبير عنها مجرد كلمات حماس ولكنه اصبح اكثر عمقا .. وفي مجال التعبير عن الحرية ركز الفيتوري على اهمية حرية الكلمة .. وهذا المفهوم تردد في كثير من قصائد الشاعر :

الساعة منتصف الليل
وعلى الدروب تنام الظلمه
انثى .. ساقان وجمجمه
ما زالت تتآكل غلمه
وصراخ اخرس .. اسمعه
يتحدر من اعلى القمه
وضحايا تتعذب مثلي
في شوق .. من اجل الكلمه

والملاحظة الاخيرة هي ان الشاعر وان كان قد تطور فنيا منذ صدور ديوانه الاول الا أن هناك بعض القصائد في ديوانه الاول اكثر جودة من بعض قصائد ديوانه الثاني مثل هذه الكلمات الرائعة التي قالها في « اغاني افريقيا » :

غدا يمر موكب الجوع بدربنا القذر
فاخضوضري يا سنوات القحط
وانزل يا مطر
واغرق حقول الارز والقمح
واغرق النهر
وامسح بكفك الرمادية احزان الشجر .. الخ.

قلنا ان الفيتوري استطاع ان يعبر بصدق وحرارة وفهم عن قضايا افريقيا وان يدرك بعمق مشكلاتها وان يعبر عن هذه المشكلات وتلك القضايا تعبيرا فنيا وانسانيا . فافريقيا وطن الشاعر .. هي ماضيه وحاضره ومستقبله . وهي ايضا وسادته التي يتكىء عليها في لحظات القوة والضعف ... وافريقيا شعب وقارة تنحت مصيرها الانساني في اصرار عجيب . وافريقيا ايضا قضية قبل ان تكون شعب او قارة .. ولقد عمق الفيتوري ابعاد هذه القضية واثراها وجاس خلالها ببطولة فشاعرنا هو احد الذين التزموا بقضيتهم حتى النهاية . ومن اجل ذلك اصدر ديوانين شعريين عن افريقيا .. وهذا في حد ذاته عمل رائع ..

وربما يقودنا ذلك للاجابة على سؤالنا الذي سبق ان طرحناه للمناقشة في بداية هذه الدراسة بان نقول ان الفيتوري شاعر ذو قضية وان كانت هناك دروب لم يطأها الشاعر كان من الممكن ان تعمق رؤيته لواقع قضيته ، وان كانت هناك ايضا بعض الاصفاد التي ما تزال تعرقل خطاه الشابة نحو استكمال كل مقومات وعناصر نجاحه الفني ونموه الفكري . الا انه مع ذلك قد برهن على شاعريته واصالته والتزامه بقضية جوهرية لم يتخل يوما ما عن تعميق دروبها الكثيرة . فشاعرنا الذي تفجرت اغانيه تنشد الحرية والخلاص والذي احب افريقيا وعشقها ، استطاع اخيرا أن يرى ضوء الفجر الذي يلوح عن قرب فوق غاباتها الاستوائية الكثيفة وجبالها الشاهقة التي تتحدى الزمن :

اصبح الصبح .. لنا خلفك يا صبح الحصاد
الف صبح قد نسجناه باضواء العيون
ايها القادم محمولا على سمر الايادي
يا حصاد العرق الدامي .. وميراث الجهاد
ايها التاج على جبهة شعبي .. وبلادي
آه ما اروعك اليوم .. على هذا الجبين

القاهرة — انيس احمد البياع



هل تتعارض الثورية العربية والماركسية ؟

بقلم محمد عباس بكر

تحتل حركة التحرر العربية اليوم مكانا بارزا على مسرح التاريخ الحديث . وتعيش الامة العربية فترة حازمة من تاريخها يعتمد على نتائجها مصير اجيال عربية قادمة . لم يعد في عصرنا هذا - وكذلك لم يكن حتى في العصور القريبة الماضية - بالامكان السير بعيون مغمضة عما يجري حولنا في عالمنا الكبير ، والذي اصبح بفضل الجهود الانسانية متضافرة ، صغيرا ، بالنسبة للعلاقات بين الشعوب واضطلاعها بتقدمها وتبادلها للثقافة والعلوم . وكل عربي مخلص لامته وتاريخها وحريص على ان يبقى اسمها في مكانه اللائق بين الامم عليه واجب الحرص ان تسير الامة في الطريق التاريخي الصحيح وان تبتعد ثقافتها عن كل الافكار الضارة والمغلوطة . ولا شك ان افضل سبيل لذلك هو النقاش الاخوي الصحيح بين ابناء الامة من اجل اخذ الصالح الطيب وترك الخبيث المتعفن . لذا فانا لا اريد ان اناقش حرفيا ما جاء في مقال الاستاذ مطاع الصفدي ،ولكن اود ان اطرح بعض الافكار والتي اعتقد انها تساعد وستساعد كثيرا على توضيح موقفنا مما يجري حولنا . آملا ان تجد ذلك الاهتمام - ان استحقه - وان يعمل على وصولنا يدا بيد الى الاهداف المنشودة لامتنا الناهضة .

الثورية العربيه والماركسية :

لقد حدد الاستاذ مطاع صفدي كلمة الثورية العربية بانها « قوة جماهيرية واتجاه حضاري وفكر ايدلوجي » اي اتجاه وواقع حركة التحرر الوطني في الوطن العربي . واختار عنوان مقاله بحيث يصبح الموضوع هو معارضة الماركسية بالثورية العربية . واعتقد ان في ذلك شيئا من عدم الدقة ، وليس هناك ضرورة عند بحث قضية الثورية العربية ان تكون معارضة للماركسية ، بل يمكنها ان تكون معارضة لنظرية فلسفية (فكر ايديلوجي) واتجاه حضاري معين حسب تعبير المؤلف نفسه . ولتوضيح ذلك لا بد من التطرق لكلا « النظريتين » أو الموضوعين بالتحليل العلمي الواقعي .

فالماركسية هي منهج افكار كارل ماركس ومذهبه ، وهي تضم الموضوعات الثلاث ، وهي الفلسفة المادية والاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية . وانه وان كانت كل موضوعة من هذه الموضوعات الثلاث تعتمد على الاخرى وتكملها ، فانها تؤلف ايضا ثلاثيا متباينا . فامام اي من هذه الاجزاء المكونة تقف الثورية العربية ؟

يقول الاستاذ صفدي في مقاله « فالفكر والعمل ضمن الجماعية الجدلية لا يتحاوران » ثم ينبعها « فليس هناك في الاساس فكر بمعزل عن مادة او مادة بمعزل عن فكر ، وانما المعطى الاصلي هو هذه الجماعية totalité التي لا يمكن فصل احد القطبين فيها الا بتجريد ذهني خالص » .

حقا ان ذلك شيء جديد ، لم تأت به النظرية الفلسفة المادية التي تؤكد وجود المادة قبل الفكرة idée ، ولا النظرية الفلسفية المثالية والتي تؤكد العكس اي ان الفكرة وجدت قبل المادة . بل هو محاولة لوضع نظريتين متعارضتين ، بينهما صراع فلسفي يعود لالاف السنين ، في قالب واحد . فالقول أن « ليس هناك فكرة بمعزل عن مادة » هو تثبيت للفلسفة المادية والقول « ليس هناك مادة بمعزل عن فكر » تثبيت للفلسفة المثالية . اما وضعهما بمثل هذه البساطة في جملة واحدة فلم يسبق ان افره احد من انصار اي من الفلسفتين ، عدا ان ذلك لا يتفق مع ابسط المبادىء العلمية او الفلسفية . ولا يوجد في هذا المجال سوى سبيلين :فاما ان تكون المادة قد وجدت وتطورت تحت ظروف معينة الى شكل الحياة البدائي ، والتي اخذت بدورها تتطور حتى ظهر الفكر فالفكرة ، واما ان يكون الفكر ، فالفكرة قد وجدت وخلقت المادة واشكالها المختلفة . اما منشأهما معا وفي آن واحد فان ذلك ضرب من الخيال او هو « تجريد ذهني خالص » حسب تعبير الكاتب نفسه .

ان الصراع بين هذين المنهجين الفلسفيين - المثالية والمادية - يعود بشكل واضح الى قدماء اليونان ، ولم يكن نادرا ان برز هذا الصراع في نفسية الفيلسوف وانطبع في كتاباته وتحليله للاحداث او الظواهر . واستمر ذلك عبر التاريخ ، ولبعض الفلاسفة العرب اثر واضح في اغناء تراث الفلسفة المادية ، سواء عن طريق المحاورات الفلسفية او الدراسات التاريخية والعلمية نذكر منهم بفخر كبير واعتزاز الفيلسوفين العربيين ابن رشد وابن خلدون ، اللذين نلمس اثارهم واعمالهم عند المفكرين الاجانب (في اوروبا بشكل خاص) اكثر من المفكرين العرب .

اما موضوع تفوق الفلسفة المادية على الفلسفة المثالية فان اثره يظهر اكثر فاكثر مع تقدم العلوم ، والتي تعتمد بشكل كبير في تطورها على الاسس النظرية للفلسفة المادية .

اذن فقضية الفلسفة ليست قضية « قومية » او تخص احدا بعينه ، بل هي تراث انساني بكل ما في الكلمة من معنى . وفلسفة ماركس هي فلسفة مادية بل هي المادية بعينها والتي لا يمكن مناظرتها الا بقضايا فلسفية ، او بالفلسفة المثالية ، والتي اشك ان يقبل بها الاستاذ صفدي كفلسفة للثورية العربية .

***

ينتقل الاستاذ صفدي بعد ذلك الى طريق الممارسة الثورية العربية ، نحو الوعي الجدلي للواقع الثوري . وهنا يبدأ بحث نقطة جديدة ، وهي الطريق التي سارت وتسير عليه الحركة الثورية العربية. اني اوافق الاستاذ صفدي على ان الحركة الثورية العربية قد سلكت « طريقها الخاص بها » وانها تتبع اساليب في النضال والاصلاح ليست باي حال من الاحوال صورة او تقليدا لاي سابقة ثورية ، وليست هي بحاجة أن تكون تقليدا او نسخا لاي تغير جرى على وجه البسيطة ،لكن السنا نلاحظ بان هذا الطريق محدد المعالم والهدف ؟ اليس هو طريق النضال ضد الاستعمار لكسب الاستقلال الوطني ومن ثم العمل على الاصلاح في الداخل وتحسين معيشة الجماهير والمحافظة على الكرامة الوطنية ؟ نعم ... ان طريق الملايين من ابناء الشعوب هو طريق رحب يتسع لان يأخذ كل شعب فيه خط سيره دون تعارض او اصطدام . واذا كان ماركس قد قال بان سير التاريخ يحدده الصراع الدائر بين المستغلين والمستغلين وبالتالي فهو الصراع الطبقي داخل الامة بذاتها ، فقد اكد التاريخ العربي الحديث هذا التحليل ولم يعارضه . فطريق الثورية العربية هو التخلص من الاستغلال - الاستعمار اولا - ومن ثم السير في طريق ازالة الاستغلال في الداخل . واكثر من ذلك هو توطيد السلطة لقوى الشعب العاملة حتى تمنع اي محاولة لاستغلال الانسان للانسان . وليس الاصلاح الزراعي والتأميمات ، سواء لاملاك الاجانب ام البرجوازيين العرب ، والضمان الدستوري لاغلبية عمالية وفلاحية في المجالس التشريعية والتنظيمات السياسية ، وكذلك حق العمال بنصيب ثابت من الارباح وادارة المصانع ، سوى تعبير عن ذلك . نعم « فمن خلال صراع الاستعمار وقوى التخلف والجمود تكشف امام الثورية العربية وسائل الحلول الجذرية » بل لقد بدىء العمل بهذه الوسائل والتي لا تتعارض لا من قريب ولا من بعيد مع ما قالت الماركسية منذ اكثر من مئة عام .اللهم الا اذا كانت السفينة قد بلغت القارة الامريكية بعد وصول كولومبس قد اعادت اكتشافها من جديد ! وحتى لو اسلمنا ان الذين وضعوا اسس الاشتراكية العربية والقومية العربية ونظريتها

لا يعرفون شيئا عن الماركسية ونظريتها فانهم لا بد ملتقون معها في الخط العام ، ليس لانها فلسفة ماركسية ونظرية ماركسية ، بل لانها نظرية تامة الانسجام مع العلم وحركة التطور الموضوعية .

وهكذا يظهر ان وضع « الثورية العربية امام الماركسية » لا ينطبق مع واقع هذه الثورية ولا يخدم واقع هذه الثورية ولا يخدم القضية الثورية العربية ، بل من الممكن ان يفتح المجال امام بعض «المتحذلقين» لتشويه قضية الثورية العربية نفسها . ولا يسعني هنا الا ان اكرر كلمات الاستاذ صفدي بان « الاستيعاب العلمي المخلص للنظريات والفهم التحليلي الواقعي لخصائص التجارب التطبيقية للماركسية هما جهدان اساسيان يتضمنان جهدا ثالثا ، وربما هو الاهم . انه المقارنة الواعية ، ضمن منهج جدلي متماسك بين حصيلة هذين الجهدين وبين معطيات الثورية العربية ، كوقائع وكاتجاهات نظرية ، بحيث تنفتح امام الثورية العربية طريقا للوضوح الكامل » .

***

ورد في مقال الاستاذ صفدي تعبير يستحق الانتباه والمناقشة وهو « القومية العربية باعتبارها قومية بروليتارية » . فاذا كان المقصود بذلك ان الحركة القومية العربية ، هي حركة تلك الفئة من العمال والفلاحين التي لا تملك وسائل الانتاج وتضطر بالتالي لبيع قوة عملها ، وتكون حركتها ضد الاستغلال مهما كان مصدره وفي سبيل بناء حياة جديدة تتحقق فيها مطالب البروليتارية التاريخية ، فليس بين ذلك وبين الماركسية ادنى معارضة ، الا في اختيار التعبير . اما اذا كان القصد هو عملية خلط ورفع يافطة البروليتاريا امام جميع طبقات المجتمع فلا بد من قول كلمة بهذا المجال .

القومية هي تعبير عن الرابطة التي تربط بين جماعة من الناس من اصل واحد وتتكلم لغة واحدة ولها تاريخ مشترك وتركيب نفسي متشابه في العادات والتقاليد وتعيش على ارض واحدة ارتبطت بها تاريخيا . وضمن هذه القومية تتواجد عادة الطبقات ابتداء من البروليتاريا ، الطبقة العاملة التي لا تملك سوى قوة عملها ، انتهاء بالبرجوازية التي تملك وسائل الانتاج ورأس المال . اذن فوجود قومية بروليتارية لا يمكن ان يكون الا في ظروف سيطرة الطبقة العاملة على الحكم واسقاطها لسيطرة البرجوازية وتجريدها من وسائل الانتاج ، اي عندما تصبح وسائل الانتاج ملكا مشتركا لافراد القومية وتزول الفوارق الطبقية الموجودة . وهذا غير موجود سوى في البلدان التي انتصرت فيها العلاقات الاشتراكية ، وبها ايضا لا يوجد مثل هذا التعبير . وعلى اي حال سواء وجد هذا التعبير ام لم يوجد فان هذا المفهوم لا ينطبق باي حال من الاحوال على « الحركة القومية العربية » في مرحلة تطورها الحاضرة . وهذه التسمية بحد ذاتها ضرب من الخيال والتلاعب بالالفاظ . ولنأخذ الجزائر مثلا على ذلك .

لقد قامت الثورة الوطنية التحررية فيها بقيادة جبهة التحرير الوطني والتي تمثل مختلف طبقات الشعب ـ عدا البورجوازية العميلة ـ وكانت اولى مهام هذه الثورة التحرر من السيطرة الاستعمارية الفرنسية . وما كاد يتم ذلك حتى حاولت البرجوازية ، وهي طبقة قومية ايضا ، السيطرة على كل شيء وتغيير هوية المستغل من « الفرنسية » الى « العربية » لكن جماهير الشعب الكادحة التي تحملت اعباء الثورة الرئيسية رفضت ذلك رفضا باتا ، وبدأ صراع من نوع جديد ، لم يخففه ويشفع له كون الجميع ابناء « قومية واحدة » . بل ان التناقضات قد اشتدت داخل « القومية الواحدة » بين البروليتاريا وفقراء الفلاحين من جهة والبرجوازية الداخلية مستندة الى الاستعمار من جهة اخرى . ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لمصر ، فان هذا الصراع بين ابناء البلد الواحد قد وجد التعبير عنه بقوانين الاصلاح الزراعي والتأميم والتي بدأت بعد يوليو ١٩٥٢ ولم تنته بعد حتى يومنا هذا .

فالقضية اذن ليست قضية « قومية بروليتارية » بقدر ما هي من هو صاحب السيادة في هذه القومية : البرجوازية ام البروليتاريا ؟

***

بعد ان عرض الاستاذ صفدي افكاره بخصوص « الثورية العربية » من ناحية نظرية وفلسفية ـ انتقل الى نقطة جديدة وهي الماركسية ككل والماركسيين العرب ، والى مجال الاستفادة من النهج الماركسي في « الطريق الثورية العربية » . ففي الوقت الذي يعترف به الكاتب في مقاله بضرورة الاستفادة من النظرية الماركسية من حيث توضيح المشاكل الرئيسية وهي كما سماها كاتب المقال « المسألة الميتافيزيقية والمشكلة الانسانية والمسألة الاجتماعية » ، فانه يوجه كثيرا من الملاحظات او التهم للماركسيين العرب ويورد شيئا جديدا اسماه « الماركسية العربية » . وهذه التسمية كما اعتقد من « تأليف » الكاتب نفسه . فطبيعة الماركسية باجزائها المكونة الثلاثة لا يكن ان تكون المانية او عربية او صينية ، بل هي نظرية فلسفية ـ اقتصادية واجتماعية ، ذات محتوى اممي انساني تبحث تطور المجتمعات والعلوم بغض النظر عن هويتها القومية . بل ان نشأتها لم تتبع لخبرة او ثقافة امة معينة بل جسدت وطورت الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسي الانكليزي والاشتراكية الفرنسية ، في النصف الثاني من القرن الماضي ، وخلصت منها الى تحليل انساني .

اما ما ورد من « انقسام الماركسية الى ماركسيات » في يومنا هذا فان ذلك اما عدم المام كاف بالماركسية ومقوماتها واما محاولة للخلط ما بين النظرية الماركسية من جهة ، والتكتيك ـ الخطة في تطبيقها ـ من جهة اخرى . فالاختلاف في التطبيق او في بعض مظاهر التطبيق الذي نشاهده اليوم ، لا يغير او يعدل في الفلسفة المادية ولا في نظرية رأس المال والقيمة الزائدة ، ولا في اسس ومقومات علمية مبنية على تحليل مادي لظروف تطور تاريخية ملموسة . بل هو اختلاف او تباين في الوصول الى هدف ، ولم نسمع ان اختلف حول الهدف الثاني احد من الماركسيين وادى بالتالي الى وجود « ماركسيات » . والتكتيك يعترف بل ويحتم ان يأخذ كل شعب او امة بظروفها الخاصة والموضوعية بعين الاعتبار وان يسلك السبيل الذي يمثل امتدادا للحركة الوطنية التحررية امتدادا لتاريخ هذا الشعب ، بل امتدادا لعاداته وتقاليده ايضا .

اذن فكل خلاف او اختلاف في التطبيق لا يمس الماركسية او يغير من قيمتها النظرية او يضعها موضع التشكك . بل ولا يقسمها الى ماركسيات كما يقول كاتب المقال . ان النضال من اجل اتباع كل بلد لظروفه الخاصة في الوصول الى الغاء استغلال الانسان للانسان ، شيء ناضل من اجله كبار الماركسيين في العالم ، ولينين كاكبر مفكر ماركسي لعصرنا ، والذي طبق الماركسية وطور الاستراتيجية والتكتيك للماركسية في عصر الامبريالية ، قد خاض نضالا نظريا ـ فلسفيا واقتصاديا ـ وعمليا ضد كل محاولة لصبغ الماركسية بالصيغة الجامدة وتجريدها من ديناميكيتها . واثبت عدم ضرورة قيام ثورة عالمية في آن واحد . ونادى بضرورة مناصرة اي حركة ثورية ، تهدف الى تحرير الشعوب من الاستعمار والاستغلال الرأسمالي . لقد ايد بحزم حركات التحرر الوطني لشعوب الشرق في ايران ومصر وشمال افريقيا وغيرها ، وقال ان على هذه الشعوب ان تسلك طرقها الخاصة بها في تحقيق اهدافها . وهكذا دخلت اللينينية كعنصر مكمل للماركسية ابعد عنها كل محاولة لتحويلها الى « رموز » و « كليشهات » او «حذلقة وغرور» .

فقول الاستاذ صفدي « فبعد ان استطاعت القومية العربية ، بمنطلقاتها الفكرية الاولى ، وادواتها الثورية المعهودة ، ان تحقق ذروات حقيقية في تجربتها الثورية الخاصة ، يحاول (البعض) ان يحشروها حشرا تحت عنوان اصطلاحي ، ليفسرها بمختصراته الايديولوجية ، هي الماركسية . وبدلا من ان ننظر الى انتصارات تجربة القومية العربية ، ونتخذها دليلا على صحة طريقها الخاص الى الاشتراكية فان هذا (البعض) يعكس الاية تماما ، ويجد ان هذه الانتصارات لا تعللها الا نظرية اخرى ، تعجز دونها نظرية القومية العربية » . انه قول يحتاج لبعض المناقشة لان ما ورد في المقال حتى الان هو رد على كثير من النقاط الواردة هنا وهذه الفقرة بالذات هي المحاولة لمعارضة الماركسية بنظرية القومية العربية .

اما المنطلقات الفكرية الاولى ـ اي الشق الفلسفي فقد اظهرنا انه اما ان يكون ماديا او يكون مثاليا ـ واعتقد هنا ان الفلسفة المثالية اعجز من ان تعطي مقتضيات الثورية العربية . ومن السهولة الوصول الى ذلك او التدليل عليه لكل مطلع . اما الادوات المعهودة ، فلا ندري ا كانت غير التخلص من السيطرة والاستغلال سواء كان استعماريا ام « قوميا » وذلك عن طريق نضال الطبقات الكادحة ـ البروليتاريا والفلاحين والمثقفين ـ وذروات التجربة الثورية الحقيقية هي التي تحققت على ذرى الاوراس في الجزائر وذرى الاهرام في مصر . فهل في هذين البلدين ـ كما ذكرنا ـ غير التحرر من السيطرة الاستعمارية اولا ومن ثم القضاء على الاستغلال وتوطيد السلطة لفئات الشعب العاملة ـ من بروليتاريا وفلاحين فقراء ، وضرب البرجوازية والرأسمالية والغائها كطبقة ونظام اجتماعي ، واكثر من ذلك تطبيق مبدأ التضامن الاممي مع الشعوب المضطهدة بغض النظر عن هويتها القومية ، وكذلك اقامة احسن العلاقات مع البروليتاريا المظفرة في الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ؟ اذن فحشر التفسير بالمختصرات الايديولوجية تحت عناوين اصطلاحية ليس هو الماركسية وحتى لو قام بذلك بعض«البعض».

فاين التعارض مع الماركسية هنا ؟ على كل حال ان وجد فهو في رؤوس البعض الاخر ، وليس في الطريق الذي تسير به الحركة الثورية العربية في زحفها المظفر .

واود هنا أن اكرر « بانه ان وجد خلاف او تباين في السبيل من قبل جماعات مختلفة في بلدان مختلفة او بلد واحد ، وتحت ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة ، وحتى وان وجد خطأ كبر ام صغر في مجال التطبيق والخطة ـ التكتيك ـ فان ذلك يجب ان لا يترك لنا العنان للخلط بينه وبين النظرية ، لان ذلك لا يخدم الفكر العربي الذي اغنى طيلة تاريخه الفكر العالمي واغتنى ويجب ان يغتني به » .

وفي القسم الاخير من المقال يتطرق الكاتب الى قضية تحول المجتمعات ، سواء في الدول النامية المتحررة حديثا ، ام في الدول الرأسمالية الصناعية . وبعد مقدمة قصيرة ينتقل الكاتب وبسرعة كبيرة الى قضية جديدة في نظرية النضال الطبقي اذ يقول « وان الانفجار الداخلي للمجتمع الرأسمالي ، سوف يبقى معطلا مؤجلا الى امد بعيد ، ما دامت البروليتاريا في هذا المجتمع ، تؤلف هي نفسها طبقة مستغلة، وجزءا من المجتمع المستغل ككل بالنسبة للمجتمعات النامية الاخر . وهذا ما يجعل استراتيجية المعركة بين الرأسمالية والبروليتاريا،تتحول من النطاق الاجتماعي الداخلي الى صراع قومي بين دول استعمارية وشعوب جديدة ناهضة » ثم يتبعها بعد اسطر ثلاثة بالاستنتاج التالي « وهكذا انتقلت المعركة الطبقية داخل المجتمع الواحد ، الى صراع عالمي بين قوميات رأسمالية استعمارية ، وقوميات شعبية مناضلة ، يمكن وصفها بانها (قوميات بروليتارية) » .

اما كون « البروليتاريا في المجتمع الرأسمالي تؤلف هي نفسها طبقة مستغلة » فهذا ليس نوعا من السطحية بل نوع من الجهل المطبق في قضية التحليل الطبقي . واما كونها جزءا من المجتمع المستغل ككل بالنسبة للمجتمعات النامية الاخرى ، فهذا يحتاج الى نقاش . صحيح انها جزء من المجتمع الرأسمالي وهي الجزء المستغل (بفتح الغين) . وما تتقاضاه من اجر هو اقل بكثير مما تنتج ، وما تستطيع شراءه بدل بيعها قوة عملها ، هو بحد ذاته نهب لها . فصفة الاستغلال اذن لا يمكن نشرها ذات اليمين وذات اليسار. بل هي ان يتقاضى الانسان العامل اكثر مما انتج او عمل . وهذه الصفة هي ابعد ما تكون عن الطبقة البروليتارية داخل المجتمع الرأسمالي ـ والا بماذا نفسر الاضرابات التي يشترك بها عشرات الملايين من العمال في العالم الرأسمالي نفسه كل عام؟ انها بالضبط للحصول على نصيب كبير مما تنتج او وضع حد لنهب اتعابها من قبل الرأسمالية . والاجدى هو البحث عما ينهب من الشعوب المستعمرة ، ليس في حساب البروليتاريا الهزيل في الدول الرأسمالية ـ الهزيل نسبيا لما تنتج ـ ، بل في كروش وجيوب اصحاب المصانع الرأسماليين ، في الملايين التي تنفق لتحضير الحروب واثارتها والتي تكون البروليتاريا في الدول الرأسمالية وقودها .

ويكفي دراسة ميزانية اي دولة رأسمالية استعمارية ونظام اجورها وسياسة الاسعار فيها ، لنرى باي بشاعة وسفالة تستغل الرأسمالية ابناء قوميتها وابناء القوميات الاخرى . وقد اثبت التاريخ ان البروليتاريا تعيش احسن بما لا يقاس ، عندما تنتهي سيطرة امت « ـها » على الامم الاخرى وتأخذ مقاليدها بيدها وتستغل خيرات بلدها لشعبها.انها البروليتاريا الروسية ، والتي كانت جزءا من المجتمع المستغل (بكسر الغين) لشعوب اسيا الوسطى ، هي بعينها التي تضع يدها بيد هذه الشعوب طارقة ابواب المجد ، فاتحة مرحلة جديدة من مراحل التاريخ : مرحلة التآخي بين الشعوب والقوميات ، متجسدة في انذارها المشهور للمعتدين على سيادة العرب في مصر ، في بناء السد العالي ، في ذخيرة مناضلي الجزائر ، مدافع وبنادق في حربهم التحررية البطولية ومختبرات ومصانع في فترة البناء ، ليس للعرب فحسب بل لشعوب العالم الناهضة قاطبة .

وفيما يخص البروليتاريا في البلدان الرأسمالية الامبريالية حاليا ـ الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا ، المانيا الغربية ، البرتغال ، اليابان ، وغيرها ـ فهل تحولت البروليتاريا فيها فعلا الى بروليتاريا « مستغلة للشعوب » ؟ هل الغت او اوقفت نضالها الطبقي في الداخل وتوجهت مع « قوميتها الاستعمارية » للصراع ضد « القوميات الشعبية البروليتارية المناضلة » ؟

الجواب لا ولا يمكن ان يكون غير ذلك لان طبيعة النضال بين البروليتاريا والبرجوازية لا تحدده الرغبات او حسن النية وسوءها ، بل هو نضال موضوعي يعمل لحل التناقض بين العمل ورأس المال . فلا مجال اذن لوقفه او الغائه ، وتبقى القضية قائمة الى ان يحل التناقض داخل هذه المجتمعات ، ولن يحل الا بانتصار العمل على رأس المال ، كما اوضح مؤسسا الاشتراكية العلمية كارل ماركس وفريدرك انجلز وكما يثبت سير التاريخ الحديث ابتداء من كومونة باريس حتى اختيار شعوب كثيرة لطريق التطور الغير رأس مالي في بناء اقتصادها ، اي بناء الصناعة والزراعة على اسس اشتراكية والغاء استثمار الانسان للانسان بجميع اشكاله .

فالصراع الطبقي هو نضال غير محدد القومية ، هو سير للتاريخ تتضامن فيه البروليتاريا العالمية بشكل موضوعي تحدده طبيعة المعركة الدائرة . وهذه المعركة ـ كاي معركة ـ بها انتصارات وهزائم لكن اتجاهها محتوم ، انه انتصار البروليتاريا على الرأسمالية .

ادركت البرجوازية خلال المعارك الكثيرة بان وحدة البروليتاريا ـ سواء في بلد واحد ام على نطاق عالمي ـ هو الخطر الاكبر الذي يتهددها . ومحاولة منها للحفاظ على وجودها واطالة لعمر الرأسمالية ، عمدت البرجوازية الى اتباع اساليب عديدة ، كلها وبدون استثناء ، موجهة لفك وحدة الحركة البروليتارية على التطاقين الوطني والعالمي . ولتحقيق ذلك تتصرف البرجوازية ـ بصفتها الطبقة المالكة لوسائل الانتاج ـ بجهاز ضخم للدعاية ، جيش من الصحفيين والنظريين والكتاب ، دور للاذاعة والنشر . بالملايين من وحدات النقد تصرفها لشراء ذوي النفوس الضعيفة من ابناء الطبقة العاملة ، نضعهم في قيادة النقابات والتنظيمات العمالية الاخرى لحرف العمال عن اعدائهم الحقيقيين وتوجيههم ضد مصالحهم ذاتها . واخيرا وليس اخرا بجهاز قمع ضخم مسلح باحدث الاسلحة ـ البوليس والجيش ـ يتحرك وفق مشيئتها لقمع اي حركة تهدد مصالح هذه البرجوازية سواء في الداخل ضد ابناء قوميتها او في الخارج ضد ابناء القوميات الاخرى . فهذه طبيعة المعركة . وهذه القوى كلها تقف امام البروليتاريا وحلفائها .. فلا عجب هنا ان لم يتحقق بعد انتصار البروليتاريا على الرأسمالية في العالم اجمع .

الا ان اخطر الاسلحة التي تستخدمها البرجوازية في هذا المجال ، هو سلاح استغلال المشاعر القومية ، وايهام الطبقة العاملة بان الدفاع عن المصالح البرجوازية هو دفاع عن « المصالح القومية » . لم تستطع

البرجوازية في يوم من الايام دفع البروليتاريا للحرب العدوانية الا بعد تفكيك وحدتها وزرع الاوهام بين صفوفها والقضاء على طليعتها الواعية بالحديد والنار . لكن رغم عدم تكافؤ المعركة في البداية فقد حققت البروليتاريا انتصارات هائلة على الصعيدين الوطني والعالمي . فالقضية اذن ليست قضية تحول البروليتاريا الى طبقة مستغلة (بكسر الغين) ، بقدر ما هي انهزام وقتي للبروليتاريا من الناحية التنظيمية والسياسية في بعض البلدان الرأسمالية . وظواهر الهدوء النسبي الموجودة في بعض البلدان الرأسمالية تهزها اضرابات العشرات من ملايين العمال في كل عام ويكشف قبحها ملايين العاطلين عن العمل .

اذن فاين نقف عندما نقبل القول بان القضية هي قضية قومية وبانا « قومية بروليتارية » نناضل ضد « القومية الرأسمالية » ؟

عندئذ نقف في صف غلاة الرجعية البرجوازية التي دأبت طيلة تاريخها على تحقيق مصالحها الانانية في استعباد الشعوب الاخرى على حساب الجماهير الكادحة ، وذلك عن طريق ايهامها بانها تقاتل دفاعا عن مصالح الامة بكاملها . واكثر من ذلك تضع بيدها السلاح الذي تستخدمه لمحاولة اقناع الجماهير ، بان القضية ليست صراع شعوب مستعبدة مع مستغليها ـ الاستعمار ـ بل هو صراع قومي ، اذا لم تخضه الطبقة الكادحة فمعنى ذلك « نهاية الامة » . والاخطر من ذلك هو تبنينا بل نشرنا لنظرية حتمية الحروب بين الشعوب ، ما دمنا نؤمن بحتمية الصراع بين الطبقات ، وعندما نراقب الشعوب كشعوب « رأسمالية » وشعوب « بروليتارية » .

اما الحرب الدفاعية المقدسة التي تخوضها الشعوب فهي لا تعني اطلاقا القتال ضد الامة الاخرى ، بل ضد رأسماليتها ـ كطبقة واستعمار، ضد العدوان ـ . ومصلحتنا كشعب مناضل ليست استثارة عداء قومي ، بل عداء طبقي يمكننا عن طريقه كسب فئات واسعة من ابناء « القومية » المعتدية ، الى جانب قضيتنا .

ولو اخذنا الثورة العربية الجزائرية كمثال ـ حتى توقيع معاهدة ايفيان على اقل تقدير ـ فنستطيع القول ان البروليتاريا الفرنسية لم تقف في يوم من الايام ككل مع البرجوازية الفرنسية ، وان وقفت قطاعات منها موقف المتفرج لبعض الوقت ، فان بطولة الشعب الجزائري وعدم وضعه القضية « ضد كل ما هو فرنسي » ، ادى بالتدريج السريع ليس لكسب البروليتاريا الفرنسية لجانبه فحسب ، بل وقطاعات كبيرة وهامة من الفئة المثقفة الفرنسية ـ نذكر منها جان بول سارتر كمثال لالاف المثقفين الفرنسيين الذين دافعوا ، مع البروليتاريا الفرنسية ، عن احقية الشعب الجزائري بالحرية وتقرير المصير ، بالفعل وبالكلمة الشريفة ضد « حرب الجزائر القذرة » .

ولا اعتقد ان احدا يشك بان موقف الشرفاء من الفرنسيين قد ساعد على وقف الحرب في الجزائر ، كما حملت هذه الفئة عبئها في شل نشاطات الفاشيست الفرنسيين والتي تجسدت في منظمة الجيش السرية (OAS) ، والتي كانت مدعومة من غلاة الرجعية البرجوازية وكان شعارها الدفاع عن « مصالح فرنسا ! » بل وان اكبر مظاهرة شهدتها باريس في تاريخها الحديث ، كانت تظاهرة الشعب الفرنسي مع حرية الشعب الجزائري . وفي الوقت نفسه كان البعض من « الجزائريين » يتآمرون على مصير الثورة المظفرة .

فكيف لنا اذن ان نفهم او نقبل نظرية « القومية الرأسمالية والقومية البروليتارية » ؟!

من الناحية التاريخية فان هذه المحاولة « النظرية » ليست بجديدة على الاطلاق ، فهي خطيئة معظم زعماء ونظريي الاممية الثانية وبعض زعماء الاشتراكية الديمقراطية في ، عصرنا الحالي ، في محاولة تبرير تخليهم عن اهداف البروليتاريا بل وخيانتها بحرفها عن عدوها الطبقي .

انها نظرية غريبة ومستوردة تتناقض تناقضا صارخا مع مجرى وطبيعة التطور الجاري في وطننا العربي . هدفها ذر الرماد في العيون وتحويل الانظار عن الرجعية الداخلية اثناء حبكها المؤامرات مع الرجعية الاستعمارية العالمية ، لنسف مكتسباتنا الحالية مكتسبات قوى الشعب العاملة ، في محاولة لوقف عجلة التاريخ .

(لايبزج) **محمد عباس بكر**

كلمة الى البصير

بقلم ناجي علوش

عندما قرأت ما كتبه عبد الرزاق البصير حول قصيدة خالد ابو خالد « على الصليب » وجدت نفسي مضطرا للرد للاسباب التالية :

اولا : لقد عشت مع خالد ابو خالد خلال الفترة التي ولدت بها القصيدة وقرأتها قبل ان تصل الىشكلها النهائي وبعد ان ظلت معي مدة ارسلتها بنفسي لمجلة الاداب (وليس فاروق شوشة كما تدعي صحيفة محلية) .

ثانيا : ثبت لي بشكل قاطع ان الاستاذ عبد الرزاق البصير لم يفهم القصيدة وانه تجنى على خالد ابو خالد نتيجة لذلك .

ثالثا : آلمني جدا أن يلجأ عبد الرزاق البصير الى اسلوب«مباحثي» يستهدف ايقاع الضرر بالشاعر خالد ابو خالد .

ولنبدأ القصة من اولها .

منذ مدة طويلة ، اخبرني خالد ابو خالد انه كتب قصيدة،وقرأت انا مسودة القصيدة واقترحت عليه أن ترسل لمجلة الاداب . ولم تكن القصيدة حينذاك معنونة ولا مهداة . واعطاني خالد القصيدة وظلت عندي . وبعد مدة نشرها في مجلة محلية ـ دون اهداء ـ لاني تأخرت في ارسالها للاداب .وقدارسلت انا القصيدة في اوائل ايلول ونشرت في عدد تشرين الاول (اكتوبر) وفوجئت بعد نشرها بالاستاذ عبد الرزاق البصير يكتب تعليقا في صحيفة محلية بعنوان « لقد ظلمت بلدي يا خالد اشد الظلم » . وهذا التعليق هو عين التعليق الذي نشر بالاداب . وكانت النتيجة ان خالد ابو خالد ـ بسبب اتهام عبدالرزاق البصير وسوء فهمه للقصيدة ـ تعرض لموقف حرج واستدعي لمقابلة وكيل وزارة الارشاد والانباء للتحقيق في الامر ، وهاجمته احدى الصحف مهاجمة شديدة وما زالت تهاجمه وتطالب بابعاده من الكويت .

لقد فهم عبد الرزاق البصير القصيدة على النحو التالي : انفاروق شوشة غادر الكويت برغبته وان خالدا لعن الكويت نتيجة لذلك . وهذا بالطبع تفسير عشوائي لا يمت للقصيدة بصلة .

ويعرف عبد الرزاق البصير ان خالدا ليس من هذا الطراز الذي يلعن قطرا عربيا لان موظفا خرج منه . كما يعرف أن خالدا بالذات لا يدين بالولاء لفرد ولا يناقض مبادئه القومية من اجل علاقة شخصية . هذا بالاضافة الى ان خالدا يعرف قبل غيره ان فاروق شوشة غادر الكويت برغبته . فلقد قال بعد ايام من وصوله بانه لن يبقى اكثر من عام في الكويت .

والعجيب الغريب أن يربط مضمون القصيدة بسفر فاروق شوشة . فهي قصيدة كتبت قبل ان يترك فاروق الكويت بمدة طويلةكما ذكرت وهي من حيث المحتوى ليستوداعا وليست خطبة وداع . انها تعبير عن لحظة شعرية غنية ، غير مرتبطة بحدث معين ، لانها بنت تجربة وتاريخ هما تجربة خالد ابو خالد وتاريخه ، وهما يرتبطان بوعي تتخطى جذوره وفروعه حدود الكويت والوطن العربي الى العالم . وهذا ما لا يستطيع أن يفهمه عبد الرزاق البصير ، لانه ببساطة رفض ما عرفه عن تجربة خالد هذه ، ولانهببساطةايضا ليس شاعرا ، وليس اديبا ، وليس ناقدا اديبا .

اما لماذا رفض ما يعرفهعنتجربة خالد الواعية الواسعة ، فهذا

بالطبع سهل تفسيره ، اذا عرفنا ان عبد الرزاق البصير يريد الان ان يلفت النظر الى نفسه ، مدافعا عن الكويت في سبيل منافع ومصالح سعى اليها طويلا فلم تتحقق ولكنها اخذت تتحقق عندما اختارته وزارة الارشاد والانباء عضوا في المجلس الاعلى لشؤون الاذاعة والتلفزيون ، بعد ان كان من صغار الموظفين .

وعبد الرزاق البصير ليس شاعرا ، ولا اديبا ولا ناقدا اديبا ، لانه لم يسبق له ان قدم للقارىء العربي شعرا او ادبا او دراسات نقدية . وكل ما اعرفه له – على الرغم من ان معرفتي له عمرها اكثر من ثماني سنوات – لايتعدى التعليقات التي لا تزيد في مادتها عن تعليقه الاخير الذي نشرته مجلة الاداب وهي تعليقات مضطربة كثيرة الحشو . وثلاثة ابيات من شعر المدح صدرت في نشرة رسمية .

ومشكلة قصيدة خالد ابو خالد انها ليست من الشعر التقليدي الذي يسهل تفسيره ويستطيع هواة الادب ان يعلقوا عليه تعليقاتهم المألوفة مثل التشبيه لطيف مبتكر والوزن مستقيم ، والكلمات مستأنسة الخ. فهي من الشعر الحديث حقا الذي يحتاج الى وعي نقدي عال ، لا يتوفر للاستاذ البصير مع الاسف ولو القليل منه .

وكنا نود لو ان عبد الرزاق البصير اتصل بخالد ابو خالد وحاول ان يفهم منه ما يعنيه من القصيدة ، او لو طالب بايضاح ما غمض عليه من القصيدة ولكنه قرر ان يفتح معركة ، وان يتابعها ، متابعة استعدائية عشوائية .

ونحن اذ نعرب عن المنا لمثل هذا الموقف ، الذي يحول النقد الادبي عن وظيفته ، ويجعله مجرد استعداء ، نعرب ايضا عن استنكارنا للموقف العدائي الذي وقفته جريدة « صوت الخليج » من خالد ابو خالد .

ناجي علوش — الكويت

حول قصيدة «على الصليب»

بقلم خالد ابو خالد

الهجوم المنشور في عدد مجلة الاداب الماضي على قصيدتي « على الصليب » سبق وان نشره صاحبه في صحيفة « الهدف » المحلية ، وقد رددت عليه في نفس الصحيفة وقبل التحدي ، وبعث بهجومه الى الاداب.

وحسنا فعل ، ففي الاداب من الادباء من هو كفيل بالرد عليه ، دفاعا عن الكلمة التي صلبها ، وا غتالها واثار حولها من الشبهات ما يهدد شرفها ، وقدسيتها .. ولتعذرني الاداب .. وقراؤها وكتابها .. اذ انشر نفس الرد الذي سبق ونشرته صحيفة الهدف . وهذا هو الرد مع بعض الزيادات التي نتجت عن ردود الاستاذ البصير على الذين دافعوا عن شرف الكلمة في صحف الكويت .

واود قبل ان اورد ردي .. ان اؤكد قبل كل شيء للاديب العربي هنا على صفحات الاداب .. انني لم ، ولن اتخلى عن محتوى القصيدة مهما كانت النتائج والاحتمالات .. وهذا هو الرد مع التأكيد على ايماني المطلق بعروبة الكويت .

« تعرفني اكثر من غيرك ، وكانت لي بك علاقة عمرها الان اربع سنوات ، تحدثنا خلالها في اكثر من موضوع ، وبالذات في موضوع عروبة هذا البلد ، والقوى المعادية التي تهدده . وكان لي موقف العربي المؤمن بوحدة امته من المحيط الى الخليج ، بوحدة شعبها وارضها من هذا البحر الى ذاك . ورغم ذلك حاولت ان تسلخني عن عروبتي ، عن حتمية انتمائي لهذه الامة ، قلت انني احقر هذا البلد ، وشعب هذا البلد ، وقلت :« ظلمت بلدي يا خالد اشد الظلم » .

انه ليس بلدك وحدك انه بلد مئة مليون من البشر ، انه بلدي انا ايضا ، على هذه الارض اكتشفت حقيقة وجودي كعربي ، ولن تجردني انت من هذه الحقيقة ، لقد جئت الى هذه الارض فتى ، وفوق رمالها بلغت سن الرشد ، وتفتح وعيي على كل حبة رمل فيها . ومن اجل هذه الارض ، وشعب هذه الارض ، وعروبة هذه الارض ، على استعداد للصلب فعلا ، للذبح ، للشنق ، للسحل ، بنفس القدر الذي انا على استعداد فيه لكل هذه المصائر في سبيل تحرير ارضي المحتلة . انت تعرف ذلك .

اني اتهمك بمحاولة اسقاط « ذاتي عروبتي » عني .. واني اطلب منك باسم الكلمة ، ان ترد لي اعتباري امام مواطني ابناء الوطن العربي في الكويت وخارج الكويت .. اني اطلب اليك ذلك كعربي اسندت اليه تهمة تفتقر الى كل برهان . والذي يهمني فعلا هو انك تعرف ان تأكيد الطابع العربي لهذا البلد كان ملموسا في سلوكي تجاهك ، وتجاه مواطني الاخرين من ابناء الكويت وغير الكويت .

ومعارفي من ابناء الكويت هم من تعرف ، وانت تعرف انني لست شعوبيا ولكنني عربي . ولا اذكر ولا تذكر انت ولا يذكر احد انني اسأت لعروبة هذا البلد يوما ، سواء من خلال برامجي ، او من خلال ما اكتب او اقول . فما هو الرصيد في اسناد التهمة ؟

كان من الممكن بل من الواجب ان تسالني تفسيرا للقصيدة قبل ان تكتب ما كتبت . لانك على صلة بي او لاني على اتصال بك . كان من الممكن ان اوضح لك ما غمض عليك ، او ما فسرته على غير ما هو عليه ، وامتدحته عندما نشر في « اضواء المدينة » قبل اشهر ..

امتدحته وكل من يعرفك يعرف رفضك لتجربة الشعر الحديث ، ويعرف تقريرك في اكثر من موقف بان هذا الشعر ليس شعرا ، وانه يرفض الخضوع لمقاييس الشعر التقليدية .. فكيف فسرت شعرا ترفضه من اساسه ، وتطبق عليه مقاييس الشعر التقليدية هذه المقاييس التي لا يخضع لها الشعر الحديث فعلا ، ثم ما معنى قولك في معرض

ردك على الاستاذ الياس عبود ، والاستاذ علي السيار في صحيفة الـراي العام المحلية « اما سبب تفسيري لقصيدة الاستاذ خالد ابو خالـــد على النحو الذي بينته فيما سبق فانه يرجع الى امر واحد فقط هــو اني اكره الغموض والايهام واني اميل بطبعي الى الصورة التي ترسمهـا القصيدة » هل معنى هذا ان تفسر القصيدة علـى النحو الوارد بسبب غموضها ؟

ثم ما معنى « والشيء الذي احب ان اؤكد عليه هو اني لم اقصد ايذاء الاستاذ خالد »وهو ما ورد في نفس الرد .. لقد قصـــدت ان تؤذيني وقد آذيتني فعلا .. هل ازعجك اهداء قصيدة لصديق ؟ انعلاقة فاروق شوشة بالقصيدة لا تتعدى كونها مهداة لـــه .. وهـي ليست رشوة لفاروق شوشة ولكنها هدية ، وهدية صديق لصديق ليســت جريمة « لا يجب السكوت عليها بحال من الاحوال » . ثم ان عبـارة الى الصديق فاروق شوشةليست موزونة ، ولا تدخل في صلب القصيدة كجزء منها ، فلو حذفناها لما تغير موضوع القصيدة اطلاقا فهي ليست حجرا في بنائها ولا هيكلا تقوم عليه . امــا قولك فـي جريدة « صوت الخليج » المحلية فيمعرض ردك على الاستاذ علي السيار بان القصيـدة التي نشرت في « اضواء المدينة » هي غير القصيدة التي نشرت فــي الاداب فهو قول مردود ..ذلك ان محتوى القصيدة لم يتغير .. وانمـا اعدت النظر فيها قبل ارسالها للاداب فحذفت منها بعض المقاطع واضفت اليها اخرى .. واعتقد ان هذا من حقي .. كما احب ان ازيدك علمــا بانني بدأت كتابة هذه القصيدة بعد مجيء فاروق شوشة الى الكويـت بايام وقبل أن تتحدد علاقتي به كصديق . وفاروق شوشة يعرف ذلك ، وكثير من الزملاء والاصدقاء يعرفون ذلك ايضا .

واحب ان اذكرك بان مؤتمر الادباء العرب سيعقد قريبا بعد اسابيع في بغداد ، واطلب اليك أن تدفع بالقصيدة وتفسيرك لها الى منصتـه على لسانك او لسان غيرك وانا اقبل حكم ادباء العرب في هذه القضية.

ثم ماذا ؟ انت الانتطلب مني تفسيرا للقصيدة .. وما كان يجب ان افسر ، لان الشاعر هو اخر من يطلب اليه تفسير ما يكتب ، فالتفسير مهمة الناقد ، الناقدالذي يفهم رموز القصيدة ، ودلالاتها ، ومدىتجاوزها للزمان والمكان على اسس نقدية سليمة وفهم واع لنفسية الشاعـــر وقضيته . ولكن .. وقبل ان افسر القصيدة ساضع بين يدي القـارىء بعض الملاحظات الهامة .

اولا : تعتمد حركة الشعر الحديث على الرمز ، والرمز في الشعـر الحديث لا يقوم مقام التشبيه فيالشعر التقليدي . ان له وظيفة ابعد اثرا واكثر اهمية ،ذلك انه يكسب الشعر نوعا من العمق والشمـول ، ولذلك لا يجوز تفسير الرموز تفسيرا حرفيا . فكلمة « المحار » الواردة في القصيدة رمز لاي هدف لا يمكن الوصول اليه دون تعب ، وحين نقول « بحيرة من قار » نقصد مكانا لا يمكن الحياة فيه وحين نقول « الجراد واليهود ، نقصدالقوى المخربة الغازية ، وهكذا فالمعنى العقلي للرمـــز « الجراد » هو انه ياتي دائما من الخارج ليمتص الخير من الارض التي قدم اليها .. والرمز قديستقى من بيئة معينة ، ولكنه لا يرتبط بهذه البيئة عندما يدخل صلب القصيدة . الرمز في القصيدة جزء منهــا هي تفسره اما هو فلا يفسرها . وكذلك الحال بالنسبة الى كلمة«هنا»في القصيدة.. فموضوع القصيدة هو الذي يفسر اين الهنا فيها ومـــا تعنيـــه .

ثانيا : التصور الشعري ينبثق من نفس الشاعر في لحظة ولكنــه يجمع شحنات من تاريخ طويل من المعاناة .. وهو لا يستمد مقوماتـــه من جهة واحدة ، بلد او قرية ، انه نتاج تجاوب الشاعر مع العصـــر وقضاياه ، لم يعدالشاعر ـ يستثنى من ذلك ادعياء الشعر والنظامون ـ الذي تتحدد رؤيته بحدود بلد او مكان معين ، ان الشاعر اليوم يسمع للعالم ويتحدث مع العالم .

ثالثا : تسيطر على الشعراء المحدثين منذ نشوء المدرســـة الرومانسية حتى اليوم روح التغرب والوحشة ، وهي روح ترفض كل جدب وعبث بطرق مختلفة ، وميزة هذه الروح انها تبحث عـن الحريـة للانسان وتفضح دائما العوامل السلبية في الكون .

رابعا : هذا النوع من الشعر لا يفهمه الا من يملك اسسه النقدية، فكيف يفسره الاستاذ البصير وهوالذي يرفضه كشعر من جذوره ، ولا يعترف بالمدرسة النقدية التي ينتمي اليها .. بالاضافة الى ان الاستاذ البصير لم يورد اية عبارة نقدية واحدةيقيس بها محتوى القصيدة .

خامسا : نشر شاعر من الكويت هو علي السبتي على صفحـات « اضواء المدينة » المحلية قصيدة « عودة الى الارض الخراب » قال فيها:

عدت من جنة احلامي الى الارض الخراب
عدت للدار التي تصفعني بابا فباب
عدت يا قبر الشباب
مرغما يسحقني القيد يدمي معصمي .. الخ..

ونشر احمد عبد المعطي حجازي ديوانا اسماه « مدينة بلا قلب » وكان موجودا في القاهرة . ونشر الشاعر رفيق خوري ديوانا اسمـاه « غابة الحجارة » وهو في بيروت، والديوان يحمل أهداء لبيروت ، ومـن قصائده :

حبلت ارضي
حبلت فترينات الشارع
بالزيف باشجار البغض .. الخ ..

كما نشر الشاعر خليل حاوي في ديوانه « نهر الرماد » قولهفي قصيدة تحت عنوان « ليالي بيروت » :

في ليالي الضيق والحرمان
والريح المدوي في متاهات الدروب
من يقوينا على حمل الصليب ..
ما الذي ابقت عليه النار من بيتي واتعابي
ومن تاريخ عمري ..

ولقد نشر الشاعر عبد الرحيمعمر في ديوانه « اغنيات للصمت »:

« تفر واين المفر
وفي كل صوت صليب واسر »

وفي قصيدة اخرى :

ايا جدار الصمت يا جدار
حتام يا جدار
تلفنا دوامة الفناء والبوار

ويقول الشاعر الكبير بدر شاكر السياب في ديوانه «انشودة المطر»:

مدينتنا تؤرق ليلها نار بلا لهب
تحم دروبها والدور ثم تزول حماها
ويصبغها الغروب بكل ما حملته من سحب
فتوشك ان تطير شرارة ويهب موتاها .. الخ..

الى ان يقول ..

كأن نخيلنا الجرداء انصاب اقمناها
لنذبل تحتها ونموت .

وتقول الشاعرة نازك الملائكة في ديوانها « شظايا ورماد » :

سكن الليل
اصغ الى وقع الانات
في عمق الظلمة تحت الصمت على الاموات ..
صرخات تعلو تضطرب
حزن يتدفق يلتهب .

وهذا شاعر اخر من الكويت : انه احمد العدواني .. وهذا قوله:

نحن هنا نغير الثياب والجلود
ونغسل الجماجم

الى ان يقول :

يا غدنا الاخضر
ما بيننا وبينك الصحراء
ترابها اصفر
وارضها خواء ..

والامثلة كثيرة والاستغراق فيها لا يتسع له المجال .. والسؤال الذي يجب طرحه الان هو ..

لماذا لم يحاسب على السبتي ، والعدواني ، وحجازي ، وحاوي ، والسياب ، ونازك ، وعبد الرحيم عمر وخليل خوري ، والاهم من ذلك لماذا لم يحاسب الشاعر البريطاني ت.س. اليوت لانه كتب قصيدته « الارض الخراب » وهو في قلب لندن ؟

لماذا احاسب انا ولا يحاسب كل هؤلاء ؟

السبب هو ان قصائدهم لم تفسر تفسيرا وظائفيا ..

وبعد هذا كله .. لا بد من ايضاح القصيدة ..

القصيدة على لسان العربي في الارض المحتلة يخاطب قادما ، وهذا القادم هو الانسان العربي الذي يولد ويعيش في ظروف قاتلة « بحيرة القار » ويحاول صوت الشاعر صوت اليقظة ، صوت الجيل ان يقول لهذا الانسان .. قف لا تنخدع ، انت ضائع . ظروفك قاتلة، لقد فشلت في تحرير هذه الارض« لا محار في بحار القار » انا هنا قبلك مصلوب ، وكان مصيرك مثلي تحذر كل قادم من القوى المخربة التي رمز لها « بآكلي الانسان والجراد واليهود » وبعد هذا يتوهم انسان الارض المحتلة انه تحرر من صليبه وسجنه وعذابه .. وان الانسان العربي، وهو في القصيدة ليس فردا وانما هو رمز للامة العربية تحرر من صليبه ايضا ، ويدعوه ان يقف قبل الافتراق ليقول له « غدا وما غد لبعيد » ان لحظة الخلاص قد حانت والصمت اجدى اثناء المعركة .

وتتشابك الرموز في القصيدة حتى ليكاد القارىء يظن بان المخاطب شخص مع انه ليس كذلك ، والقصيدة مهداة الى صديق ولكنها تخاطب الفدائي الانسان العربي الجديد .. وعلى كل فالشعر الرمزي يقرأ ولا يفسر لان اي تفسير له يفسره كشعره ..

اقول هذه الكلمات لا دفاعا عن نفسي ، فانا لم افعل ما يوجب الدفاع عن النفس ، بل ايضاحا لقضية شاء الاستاذ البصير ان يلبسها غير ثوبها فكانت النتيجة تهمة لا تستند الى برهان . والكلمة غالية ، اغلى من ان تسجن في قوالب ومفاهيم غير سليمة ، والتهمة مردودة ، ورد الاعتبار واجب والقراء ينتظرون .

وكلمة لا بد منها ، فقد يقول قائل ان « الارض المحتلة » لم ترد في القصيدة ، والردهو ان الشعر الرمزي لا يعتمد التعبير المباشر ،ولكنه يستخدم الرمز والايحاء ، والايحاء ارقى انواع الشعر على الاطلاق .. اما ما قاله الاستاذ البصير في معرض رده على من كتب يرد على هجومه « اما ان يصفني البعض باني استعدي السلطة - بالطبع علي - او انني اقوم بعملية التشويه - للكلمة بالطبع - فهو امر يجعلني لا التفت اليهم ولا الى غيرهم اي التفات ».

هذا القول اترك الرد عليه لقراء وكتاب الاداب الذين لا شك قرأوا هجوم الاستاذ جيدا ، وفهموا فحواه .. والقضية الان ليست قضية خالد ابو خالد .. ولكنها قضية الكلمة ..

الكويت — **خالد ابو خالد**

«سيرتي الذاتية»

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

ولم تلبث اسرة الطفل ان انتقلت في عام ١٩١١ لتقيم في شارع «لوغوف» بباريس حيث افتتح جده معهدا لتعليم اللغات الحية حتى يتمكن من اعالة اسرته .. وفي باريس بدأ وعي الطفل ابن السادسة يتفتح وسط مكتبة جده التي لم يكن التراب ينفض من فوق كتبها الا مرة كل عام .. ومع ان الطفللم يكن في ذلك الوقت يعرف القراءة الا انه كان يشعر برغبته في انتكون له «كتبه» الخاصة ، مما جعل جده «يقصد ناشره النذل ويجلب من عنده «حكايات» الشاعر موريس بشور ، وهي حكايات مقتبسة من الفولكلور ومكتوبة للاولاد بقلم رجل يقول انه ظل محتفظا بعيني طفل» ..

وكان على امه ان تقوم له بدور القارىء لهذه الحكايات التي كانت تجذب انتباهه حتى يغيب فيها ، ولكنه بمضي الوقت سئم الجلوس الى امه والاكتفاء بمجرد الاستماع اليها وعزم على ان يسلبها دورها .. واستولى على كتاب «مصائب صيني في الصين» حيث كان افراد اسرته يفاجئونه كثيرا وهو يحاول قراءته مرة بعد اخرى حتى اقتنعوا اخيرا بان الوقت قد حان لتعليمه الابجدية .. «وتحمست كطالب العماد ، بل ذهبت حتى الى اعطاء نفسي دروسا خاصة : كنت اتسلق سريري القفصي ومعي «بلا اسرة» لهكتور مالو ، الذي كنت احفظه عن ظهر قلب ، فاقرأ مرة ظاهرا ، ومرة محاولا ان احل الالغاز ، حتى تصفحت جميع الصفحات ، الواحدة تلو الاخرى : وحين قلبت الصفحة الاخيرة ، كنت اعرف القراءة ..» .

ومنذ اللحظة التي اصبح فيها بمقدور الطفل ان يقرأ ، بدأ رحلاته الطويلة عبر مؤلفات «فونتنيل ، وارسطوفان ، ورابليه»وغيرها من الكتب الكلاسيكية الفرنسية والالمانية التي كانت تزخر بها مكتبة جده العجوز .. وكان اكثر ما يتعشقه سلسلة «هيتزل» المسرحية التي يقول عنها «انا مدين لهــــذه العلب السحرية ـ لا لعبارات شاتوبريان المتأرجحة ـ بلقاءاتي الاولى مع الجمال» .. ولقد تعرف الطفل على العالم المحيط به من خلال «الافكار» التي تضمنتها الكتب قبل ان يلتحم به التحاما واقعيا ، حيث كان يلتقي في صفحاتها بالكون «متمثلا ، مصنفا ، مدفوعا ، مفكرا به ، مخيفا بعد ، ولقد خلطت اضطراب تجاربي الكتبيةبالمجري الاتفاقي للاحداث الواقعية . من هنا مصدر تلك المثالية التي انفقت ثلاثين عاما للتخلص منها ..» .

على ان تلك الكتب لم تكن هي وحدها في الحقيقة المسئولة عن التكوين الفكري المثالي للطفل ، وانما كان شارل شوايتزر ، الجد العجوز ابن الكاهن الكاثوليكي السابق ، مسئولا ايضا عن تلك المثالية بما كان يفرضه على حفيده ـ الذي يعيش طفولته فيما بين الثورة الروسية الاولى واول حرب عالمية ـ من افكار ترجع الى عهد لويس فيليب ..

وفي ذلك الوقت عزم الجد على الحاق حفيده بالمدرسة،فاصطحبه ذات صباح الى «ليسيه مونتاني» حيث قابل المدير واخذ يمتدح له مزايا الطفل الذي لم يكن يعيبه شيء على الاطلاق سوى ان عقله يتقدم على سنه «اكثر مما ينبغي» .. وادخل الطفل الى الصف الثامن ، الا انه بعد المسابقة الاولى في الاملاء ، استدعي جده لمقابلة المدير الذي افهمه ان الطفل مكانه في الصف العاشر ، ولكن العجوز اغضبه ذلك فتخاصم مع المدير وسحب حفيده من المدرسة في اليوم التالي ، بعد ان عنفه واتهمه بسوء النية ..

ومرة اخرى قامت امه في الخريف التالي بالحاقه في «معهد بربون» ، ولكنها عادت وسحبته منه بعد ستة اشهر بحجة ان الاطفال لم يكونوا يستفيدون منه شيئا ، وقبلت «ماري لويز» احدى مدرسات المعهد ان تعطي للطفل دروسا خاصة في البيت .. وبرغم انه كان يشعر بالحب نحو هذه الفتاة العانس ويأنس اليها ، فانها لم تستطع ان تستمر في عملها ، حيث كان جده يعتقد انها حاملة شؤم ومصائب . «ووجد لي شارل شوايتزر اساتذة اكثر حشمة . اساتذة من شدة الحشمة حتى اني نسيتهم جميعا . والى العاشرة من عمري، بقيت وحيدا بين عجوز وامرأتين ..» .

وفي السابعة من عمره لم يكن «سارتر» الطفل يحس بوحدته فقط ، وانما كان يحس بالفزع والرعب ويشعر كما لو كان يلتقي«الموت» في كل مكان .. كان يشعر بلا جدواه العميقة ، وبانه زائد علىاللزوم.. مجرد طفل «اعجوبة» ينتمي الى ميت مضى منذ زمان بعيد ولسوف يتبعه هو ايضا عندما ينتهي دوره في تلك المهزلة العائلية التي يشارك في تمثيلها .. كان حفيد الكاهن السابق يرى شغف الجميع به ،ويرى في الوقت نفسه انهم جميعا يردونه حيث لا ملجأ له الا في داخل ذاته التي لم تكن قد وجدت بعد.. فلا احد يريده او يطالب به حقيقة .. وهو يشعر بانه مجرد تفتح تافه في حالة تلاش دائم .. قلق حائر لا يعرف مكانه ولا يعرف ما الذي يريده وسط تلك الاسرة التي تعيش حياة مزيفة تختلف في ظاهرها عما يجري عليه واقعها الحقيقي .. حتى الايمان الذي كان جده يتظاهر به لم يكن الا زيفا تكشف عنه السخرية التي كان يتحدث بها خفية عن القساوسة ورجال الدين .. ولعل ذلك كان مصدر الاسف العميق الذي يبديه سارتر لانه تربى وسط ذلك الجو الديني المزيف الذي ادى به الى الالحاد .. «لقد كنت بحاجة الى الله ، فاعطوني اياه ، وتلقيته من غير ان افهم انني كنت ابحث عنه . ولانهلم يأخذ جذرا له في قلبي ، فقد نبت في بغموض فترة من الزمن ثم مات . وحين يحدثونني عنه اليوم ، اقول بلهجة تسلية غير اسفة شبيهة بتلك التي يستعملها كهل جميل يلتقي جميلة قديمة : منذ خمسين عاما ، لولا سوء التفاهم ذاك ، ولولا تلك الغلطة ، ولولا الحادث الذي فصل بيننا، لكان بالامكان ان يكون بيننا شيء ما»..

وفي ذلك الوقت ، حوالي عام ١٩١٢ او ١٩١٣ ، قرأ ذلك الطفل الحائر القلق اللامنتمي ، رواية «ميشيل ستروجوف» ثم صاح وهو يبكي فرحا «اية حياة نموذجية ! ان ذلك الضابط لم يكن بحاجة لكي يظهر قيمته ، ان ينتظر رغبة اللصوص : ذلك ان امرا من عل كان قد انتزعه من الظل ،فكان يعيش ليطيعه ، ويموت انتصارا له ..»

ولكنه عندما اعاد قراءتها مرة اخرى بعد ثلاثة شهور ، لم يشعر بحبه ولا باعجابه الاول لذلك البطل المثالي الذي بهرته حياته النموذجية .. صحيح انه كان يحسده على قدره ، وكان يعبد فيه «المسيحي» المقنع الذي كان هو قد حرم ان يكونه ، ولكنه في الوقت نفسه كان يرى فيه «مختارا» وهو يكره المختارين ، وينفر من القداسة ، ولو لم تكن قداسة «ميشيل ستروجوف» قد اتخذت مظهر البطولة الخارجية لما اثارت في نفسه اي اعجاب بها ..

وليس حديث سارتر عن تلك الفترة من حياته قاصرا على مجرد الكيفية التي تعلم بها القراءة ، او عن الكتب التي اعجبته والكتب التي اعتبرها «سما» بالنسبة اليه ، وانما هو يحدثنا كذلك عن انطباعاته «الطفلية» حول السينما الصامتة والمسرح ، حيث كان يرى فيالسينما مجرد صالات مظلمة يجتمع فيها الناس من عامة الشعب دون تمييز بينهم ليشاهدوا ابطالا صامتين يتحركون امامهم على الشاشة المضيئة ، بينما كان المسرح هو المكان الملائم للنخبة من «المثقفين» ، وهو المكان الذي يحترم مستويات المشاهدين فيخصص لكل فئة منهم مكانا يتناسب ومستواها وثقافتها ..

وثمة اشياء اخرى في تلك الفترة كانت تثير في نفسه قلقا ، وتعمق من احساسه بالعزلة .. فحين كان يرى الاطفال الذين في مثل سنه يلعبون ويمرحون في حدائق اللكسمبورج ، بينما يجلس هو قريبا منهم يتحرق شوقا لمشاركتهم دون ان يفكر احدهم في دعوته ، كانت امه تحس بما يعانيه بصبر نافذ «ما الذي تنتظره ايها الساذج الكبير !

اسألهم هل يريدون ان يلعبوا معك ؟ » ولكنه كان يهز راسه بالنفي محافظة منه على كبريائه ..

لقد كانت أعماقه تتمزق بين رغبته في الاندماج معهم ومشاركتهم ، وبين احساسه المنضخم بذاته الذي يمنعه من المبادرة لتحقيق رغبته .. وكان ذلك يؤدي به لان يصيح في مرارة « كنت اعيش حيايتن كلتاهما كاذبتان . كنت أمام العموم كذابا : الحفيد العظيم لشارل شوايتزر الشهير ، ووحيدا ، ادوم في عبوس وحرد خياليين » ..

✶

تلك كانت قصة « القراءة » التي كان على الطفل الاعجوبة ان يقطع اليها شوطا طويلا حتى يتعلمها .. ولقد آن الاوان لان يتعلم « الكتابة » ويحاولها ..

وقد حدث ذلك فعلا وهو يخطو في عامه السابع ...

كانت الاسرة تنتقل كل صيف الى « اركاشون » بينما يبقى الجد في باريس ، يكتب الى حفيده رسائل شعرية كل اسبوع ، وكان عليه ان يرد عليها برسائل اخرى من الشعر .. ولقد ساعدته امه في ذلك ، بينما اهداه جده معجما للقوافي .. ولكنه لم يكن موهوبا في الشعر ، وانما كان يكتبه تقليدا للكبار ، ويكتبه بصفة خاصة لانه حفيد شارل شوايتزر !! .. فقد انتهى عهده بكتابة الشعر سريعا عندما عزم على ان يعيد كتابة خرافات لافونتين حسب قواعد الشعر الاسكندري « وكان المشروع يتجاوز قواي ، وحسبت اني الاحظ انه كان يثير الابتسام : وكان ذلك اخر تجربة شعرية لي » ..

الا ان الطفل كان قد انطلق ولم يستطع ان يكف عن الكتابة، فانتقل من الشعر الى النثر .. واحضرت له اسرته زجاجة من الحبر البنفسجي ودفترا كتب على غلافه « دفتر الروايات » ثم بدأ في كتابة روايته الاولى « من اجل فراشة » .. تلك الرواية التي سرق احداثها واشخاصها وحتى عنوانها من رواية اخرى ظهرت في تلك الفترة ..

وكان ذلك بداية لاهتمام الاخرين به ، فقد بذلت له امه تشجيعا كبيرا ، واهداه خاله الة كاتبة صغيرة لم يستعملها ! واغدق عليه اصدقاء اسرته تمتمات اعجاب لا حد لها ، وقامت امه بكتابة روايته الثانية « بائع الموز » على ورق لماع بحيث يمكن ان تتداولها الايدي .. بينما كان جده يبدي فتورا فيمايتعلق بمحاولاته في الكتابة ، فحين كانت امه تقدم اليه دفتر الروايات معجبة ، كان يزيحه بيده او يلقي عليه نظرة لمجرد تسجيل ما به من اخطاء املائية ..

الا ان هذا الموقف من جانب جده ، لم يمنعه من الاستمرار ، وان كان في هذه المرة اقل سرقة من ذي قبل .. فقد اخذت رواياته تتعقد وتدخل فيها احداث متنوعة .. كان يريد ان يوصل رواية المغامرات ، فيدأ يضيف اليها مزيدا من الشطحات الخيالية التي تتركز كلها حول البطولة الفردية الخارقة ، حول البطل الاسطوري الذي يستطيع وحده ان يهزم جيشا برمته « واحد ضد الجميع : كانت هذه قاعدتي، فليبحث عن مصدر هذا الحلم الكئيب العظيم في الفردية البرجوازية الطهرية التي كانت شائعة في وسطي .. » .

ولم يكن سارتر في ذلك غريبا ولا شاذا عن المناخ الادبي المحيط به، وانما كان ما كتبه في تلك الفترة نتاجا طبيعيا منعكسا عن واقع الازمة التي كانت تعانيها الروح الاوروبية ، فقد كان الغرب يموت اختناقا في ذلك العهد .. « كانت البرجوازية ، لعدم وجود اعداء مرئيين ، تلتذ بان تخيف نفسها من شبحها ،وكانت تستبدل بسامها قلقا موجها. كان الحديث يجري عن استحضار الارواح والتنويم المغناطيسي ... وكانت الموضة الشائعة هي موضة الحكايات الخيالية الغريبة .. » .

ولقد كتب سارتر عددا من هذا النوع الاسود من روايات المغامرات الفردية الهمجية ، بعضها كان مكتملا ، وبعضها ناقصا ،والبعض الاخر كان يعيد كتابته تحت عناوين اخرى .. ولكنها فقدت كلها «واقول لنفسي احيانا ان هذا مؤسف : فلو كنت قد تنبهت الى وضعها تحت القفل والمفتاح ، لكشفت لي طفولتي » ..

ورغم تفاهة الاعمال التي كان ينتجها سارتر في ذلك الوقت،ورغم ادراكه انه لم يكن سوى « نشاط بلا محتوى » ، فانه من خلال ذلك النشاط كان قد نما اكتشاف نفسه ، وكان هذا في الحقيقة كافيا ، فلم تكن هناك حاجة الى اكثر من هذا ..

الا ان اسرته انتزعته فجاة من وسط هذا النشاط .. كان قد بلغ السن التي ينبغي فيها على الاطفال البرجوازيين ان يحددوا موقفهم ويكشفوا عن ميولهم واتجاهاتهم ، وكان من المقرر سابقا ان يكون ابناء آل شوايتزر مهندسين مثل ابائهم .. ولكن السيدة « بلانش بيكار » صديقة الاسرة استطاعت ان تقرأ في جبين الطفل علائم اخرى حين هتفت « ان هذا الصغير سيكتب !! » ..

وانزعجت جدته لهذه العبارة ، بينما تأملته امه بحسرة ، خشية ان تتعقد الامور اذا ما عرف جده بذلك وان كانت لم تستطع ان تخفي فرحها لان رجلها الصغير سوف يكتب .. اما الجد العجوز فقد اكتفى بهز رأسه ، واستمر يتظاهر بتجاهل « الخربشات » التي كان يكتبها سارتر بينما كان يهمس لطلابه احيانا في الخفاء « انه يملك قابلية للادب » ..

كان الجد يرى ان الاشتغال بالادب لا يوفر الغذاء .. فقد كان هناك كتاب عظام ماتوا جوعا ، واخرون باعوا انفسهم لكي يأكلوا ..ولكن ذلك كله لم يثن عزم الطفل عن مواصلة الطريق الشاق .. وكما انه سار من قبل في طريق الالحاد من حيث ارادت له اسرته ان يمضي في الايمان والتدين : فقدحدث ذلك ايضا بالنسبة للكتابة « فقد قذفني في الادب من جراء العناية التي بذلها ليصدفني عنه » ..

صحيح انهم كانوا يقولون انه ليس موهوبا للكتابة ، وكل من يحيطون به قد عاملوه على انه طالب مجتهد اكثر مما هو ذكي ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يغذونه بوهم كبير .. كانوا يرددون انه هبة من « السماء » لا غنى عنه لاحد .. وبذلك تضخم هذا الوهم في نفسه بحيث كان يتمنى ان يكون مبنا او يكون (مطلوبا) من العالم كله .. الا انه يشعر في اعماقه بانه مطلوب .. وا ن الناس ينتظرون انتاجه الذي لن يظهر الجزء الاول منه الا في عام ١٩٣٥ حسب تقديره .. « وحوالي عام ١٩٣٠ سيبدأ الناس بفقدان صبرهم ، وسيقولون فيما بينهم ان صاحبنا يتباطأ : ها قد انقضى خمسة وعشرون عاما ونحن نغذيه دون ان يفعل شيئا ! اترانا سنموت قبل أن يتاح لنا ان نقرأه ؟.. وكنت اجيبهم بصوتي ، صوت عام ١٩١٣ : هيه ! دعوا لي الوقت لكي اعمل ! » ..

واذن فلم يكن الطفل هو الذي « اختار » نزعته ، وانما كانت قد فرضت عليه من قبل الاخرين ..ولكنه مع ذلك كان مقتنعا بما حدث « كان الاشخاص الكبار القائمون في روحي يومئون باصبعهم الى نجمي، ولم اكن اراه ، ولكني كنت ارى الاصبع ، كنت أؤمن بالاشخاص الكبار الذين كانوا يدعون انهم يؤمنون بي » ..

ووسط الحيرة الشديدة التي كان يعانيها في تلك الفترة وهو يختار موضوعات كتاباته .. وهو يتلفت حوله بحثا عن حقيقة الناس والاحداث .. وهو يواجه « قدره » ويناضل من اجل ان « يختار » طريقه بنفسه لا أن يكون «مختارا» من قبل الاخرين .. وسط ذلك كله ، وبعد ما كاد ان يصبح مجنونا ، وقع له حادثان كان لهما اثر كبير في حياته ..

اولهما كان في تموز ١٩١٤ عندما أشتعلت نار الحرب العالمية الاولى .. ولم تكن هذه الحرب في بدايتها تثير في نفسه بغضا، كانت مجرد ازعاج بسيط .. ولكنه بدأ يحسها وينفر منها ويبغضها عندما بدأت تهدم مطالعاته ، فقد اختفت كتبه ومجلاته المفضلة ، وهجر « ارنولد غالدبين ، وجوفال ، وجان دولاهير » كتابة روايات المغامرات السابقة ، وتخلوا عن ابطالهم الفرديين الاسطوريين ، واخذوا يكتبون عن الحرب وعن البطولات الجماعية لجنود الجيش الجدد الذين يتم كل شيء خارجا عنهم ..

وكره سارتر ذلك اللون الجديد من البطولات ، فقد كان يتعرف ذاته في نماذج الابطال السابقين .. وفي تشرين الاول عام ١٩١٤ ، ولم تكن الاسرة قد غادرت « اركاشون » ، امسك بقلمه وعزم على ان يعطي لاولئك الكتاب درسا في كتابة الرواية .. وبـدأ يكتب قصة الجندي « بيران » الذي يخطف « القيصر » ويعود به موقتا ، ثم يدعوه بحضور الفرقة المتجمعة الى مبارزة علنية ، حيث يفرض عليه ، والسيف فوق رقبته ، ان يوقع صلحا مهينا .. وبذلك خالف سارتر القواعد التي كانت ثابتة ودقيقة في كتابة الرواية ، عندما صور القيصر منهزما مغلوبا على امره ، ولكنه كان في الحقيقة يعبر عن تمنياته الذاتية .. كان يتمنى - في خياله بالطبع - ان يامر القيصر المهزوم - الذي رسمه بقلمه - بوقف اطلاق النار، فتنتهي الحرب ويعود السلام. ولكنه اكتشف انه كان مخدوعا ، فكل من حوله ، الصحف والاشخاص الكبار يرددون صباح مساء ان الحرب مستمرة وستستمر طويلا ..

« وللمرة الاولى في حياتي ، قرأت ثانية ما كتبت ، والاحمرار يصبغ وجنتي ، لقد كنت انا ، انا الذي التذذت بتلك الشطحات الصبيانية ! ولولا قليل ، لعدلت عن امتهان الادب . واخيرا ، حملت دفتري الى الشاطىء ودفنته في الرمل .. » .

ولم يستطع سارتر بعد ذلك أن يغفر للكاتبين الانتهازيين « ارنولد غالدبين وجان دولاهير » انهما قد انتصرا عليه من حيث اراد هو ان يلقنهما درسا ..

اما الحدث الثاني فقد وقع في عام ١٩١٥ حين كان في الحادية عشرة من عمره .. فقد الحقه جده طالبا منتسبا في « ليسيه هنري الرابع » ، وفي المسابقة الاولى التي اشترك فيها كان ترتيبه الاخير.. كان تفوقه الذي يتوهمه يتعرض في ذلك الوقت لمقارنات مستمرة ، فيكتشف ان هناك باستمرار من يجيب افضل واسرع منه « كنت الاول الذي لا يضاهى ، في جزيرتي الهوائية ، وسقطت في الصف الاخير حين اخضعوني للقواعد المشتركة .. » . وكان ذلك يغيظ جده ويحنقه عليه ، مما أضطر امه الى أن تطلب مقابلة استاذه الاساسي بالمعهد .. واخذت الام تشرح لاستاذه الاعزب مزايا ولدها الذي تعلم القراءة وحده، والذي كان يكتب الروايات ، واهم من ذلك كله ، الذي ولد وعمره عشرة اشهر !! .. ولكن الاستاذ كان قد تأثر بجاذبية الام ولهجتها الفنية اكثر مما تأثر بمزايا الصبي ، فوعد بان يتابعه .. ونتيجة لذلك اصبح سارتر ، بلا جهد ، تلميذا جيدا بما فيه الكفاية ! ..

وعلى الرغم من ان الاعمال المدرسية قد منعته من الكتابة ، فان « المدرسة » قد اتاحت له صداقات جديدة انسته حتى رغبته في الكتابة .. « لقد كان لي اخيرا رفاق : فمنذ اليوم الاول ، وبصورة اكثر ما تكون طبيعية ، تبنوني ، انا مطرود الحدائق العامة » ..

وكان ذلك امرا رائعا .. فقد مضت ايامه السابقة متشابهة تماما الى درجة انه كان يتساءل عما اذا كان محكوما عليه ان يتقبل هذا التكرار السرمدي لايامه ، بينما كان يشعر في اعماقه بعكس ذلك .. كان يحب المفاجآت ويرحب بها ، ويجتهد في ان يحول النزعة التطورية الهادئة التي زرعها المجتمع البرجوازي في نفسه الى نزعة كوارثية ثائرة ومتقطعة ، « ولقد نبهوني منذ اعوام الى ان شخصيات مسرحياتي ورواياتي يتخذون قراراتهم بصورة مفاجئة ، وفي الازمة ، وانه كانت تكفي لحظة مثلا لكي ينجز « اورست » تحوله ، عجبا : ذلك اني صنعتهم جميعا على صورتي ، لا كما انا ، بلا شك ، بل كما احببت ان اكون » .

*

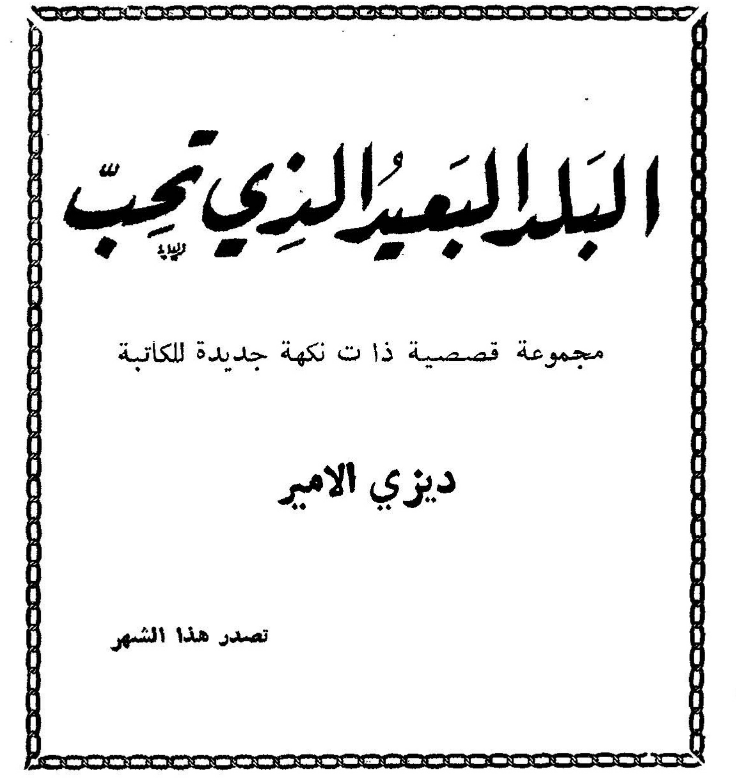
تلك كانت بداية الطريق الطويل في حياة الطفل الذي عرفه عالم الفكر والادب فيما بعد باسم « جان بول سارتر » .. لقد اصبح الطفل مرة اخرى ، كما كان في السابعة ، المسافر الذي لا يحمل تذكرة.. ولكن المراقب في هذه المرة نظر اليه نظرة اقل قسوة من ذي قبل ، ولم يطلب منه شيئا ، وانما كان يريد فقط ان يتركه ينهي رحلته في سلام ..

واذا كان « المسافر » قد ظل بدون تذكرة ، وبدون مال يمكنه من دفع اجرة التذكرة ، فان شيئا ما لا بد قد حدث خلال الطريق .. شيئا نستطيع ان نلمحه ليس في كلمات سارتر « الطفل » وانما في كلمات سارتر « الشيخ » ، الفيلسوف الاديب المجرب الذي يقترب من نهاية عقده السادس .. « لقد تغيرت . وسأروي فيما بعد اية حوامض قرضت الشفافيات المشوهة التي كانت تسربلني ، ومتى وكيف قمت بتعلم العنف ، واكتشاف قبحي الذي كان لمدة طويلة مبدئي السلبي ، وحجر الكلس الذي ذوب فيه الطفل المدهش نفسه - وما هو السبب الذي دفعني لافكر بصورة نظامية ضد نفسي ، الى درجة ان اقيس بدهية فكرة ما بالاستياء الذي كانت تحدثه لي .

« لقد تفتت الوهم المتعلق بالماضي ، فالاستشهاد ، والخلاص ، والخلود ، كلها تتعطل ، ويسقط البناء منهدما ، والرب الذي كان مختبئا فيه قد حشرته في الاقبية وطردته ، ان الالحاد مشروع قاس وذو نفس طويل : واحسب أني دفعته حتى الذروة . انني أرى بوضوح، وقد زالت الغشاوة عن عيني ، وانا اعرف مهماتي واستحق بالتأكيد جائزة في الغيرة الوطنية ، انني منذ عشر سنوات تقريبا انسان يستيقظ ، انسان قد شفي من جنون طويل ، مر ، عذب ، وهو لا يصدق ذلك ، ولا يستطيع ان يتذكر - من غير ان يضحك - ضلاله وتشرده القديم ، ولا يدري بعد ماذا يفعل بحياته .. » .

واذا كنا نستطيع هنا ان نعرف او نحدد ما هو التغير الذي طرأ في حياة سارتر والذي سيرويه لنا فيما بعد ، فان صفحات الكتاب الذي بين ايدينا بمقدورها ان ترسم لنا - على الاقل - الخلفية التي يصدر عنها هذا التغير .. ومن هنا يصبح « الكلمات » كتابا هاما ورائعا في آن واحد ، هو هام في محتواه بقدر ما هو رائع في شكله وفي صياغته فعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية التي يتناولها من عمر الكاتب فان صفحاته مع ذلك تلقي كثيرا من الضوء على المكونات الاولية لافكار سارتر وفلسفته ونظرته الى الحياة ، وهذا ما يعطيه اهمية خاصة بالنسبة لمن تستهويهم دراسة الوجودية الفرنسية التي يحمل الكاتب لواءها .

القاهرة — كمال عطية



لماذا رفض سارتر الجائزة ؟

ـ تتمة المنشر على الصفحة ١٥ ـ

السياسية على لسانه فلا بد من الحذر من المبالغة في هذا الجانب . والجوهر النظري الذي تقوم عليه اشتراكية سارتر هي لون مغاير لما تقوم عليه الاشتراكيات السوفييتية .

ولا شك ان ذهنية سارتر الشديدة لم تكن ايضا من ناحية ثانية سببا في رفضه للجائزة . انه لم يعمد بعقله الى دراسة الامر على مستوىعقلي بحت . فهذا المستوى العقلي البحت قد يؤثر فيه لارتباط فكرهبواقعه ارتباطا كليا . ان هناك وحدة حقيقية بين افكاره وافعاله. هناك ترابط كلي بين ما يعتقده وبين ما يؤديه في الحياةمن تصرفات . ولكن الطابع العقلي ليس هنا صاحب الفاعلية الاولى والاخيرة في الاجراء الذي اتخذه .

لذلك علينا من ناحية ثالثة ان نكتشف سر رفض سارتر للجائزة في دائرة ما تمليه فلسفته الوجودية من حيث هي فلسفة مواقف يبزغ فيها السلوك تلقائيا .

والوجودية كما نعرف هي فلسفة المواقف . واذا شئنا ان نفطن الى حقيقة الامر فمن الضروري ان نربط رفض سارتر الجائزة بالموقف الذي عاش فيه هذه الايام الاخيرة . وسارتر يرفض في موقفه هذا ان تحدد ايسلطة من السلطات شرعية تفكيره . يرفض سارتر ان يجعل تقويم فنه وفلسفته راجعا الى اي هيئة . فهو نفسه التبرير الاكبر لكل مؤديات فكره . ولا يمكن ان يقبل سارتر ان تسبغ اية هيئة من الهيئات نوعا من الشرعية على انتاجه .

لهذا رفض سارتر الجائزة . رفضها لانه يريدان يقول للناس ان ما اكتبه يحمل في ذاته شرعيته . ويمكن ان نفهم هذا اذا قارنا بين سارتر وبين نابليون والعقاد . فنابليون اخذ تاج الامبراطورية من يد البابا ليضعه بنفسه فوق رأسه . والعقاد تسلم جائزة الدولة التقديرية في الادب باسم الامة العربية وباسم الشعب العربي فقال : والفريضة الاخرى بل الاولى ـ فريضة الشكر على النعمة الكبرى واليد الطولى : نعمة الوعي القومي الذي وعاناه فوعيناه ورعانا فرعيناه . فالحمد لله على ما الهم هذهالامة من وعي يقوم القيم في موازين الادب ، ومن رأي عاميجتهد بالرأي دائبا فيسمع له فيما اجتهد ودأب .

هكذا كان رفض سارتر نوعا من الاستناد الى نفسه بنفسه في تقييم فنونه وتقدير اعماله .

القاهرة — **عبد الفتاح الديدي**



لبنان

الفائزون بجوائز اصدقاء الكتاب

***

اعلنت جمعية اصدقاء الكتاب بيانا باسماء الفائزين بجوائزها لعام ١٩٦٤ في جلسات قانونية في ١١ و ١٣ و ١٨ كما يلي :

اولا : جائزة فخامةرئيس الجمهورية : وقيمتها خمسة الاف ليرة لبنانية ، تقدمها وزارة التربية الوطنية ، وهي جائزة تقديرية تمنح لمجموعة اثار مؤلف لبناني تميزت بالجودة وصدرت باللغة العربية ـ قررت الجمعية اسنادها هذا العام الى مؤرخ ومنحها للدكتور اسد رستم.

ثانيا : جائزة الدراسات اللبنانية : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية، تقدمها وزارة الانباء والارشاد والسياحة ، وتمنح لافضل دراسة علمية في الفنون الشعبية اللبنانية ، الفها لبناني ونشرت في لبنان ـ قررت الجمعية منحها لكتاب « الحرف الشعبية في لبنان » للسيدة ادفيك جريديني شيبوب .

ثالثا : جائزة الكويت : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية تقدمها وزارة الارشاد والانباء في الكويت وتمنح لافضل دراسة تعالج جانبا من التاريخ العربي او الحضارة العربية منذ العهد العثماني ، الفها مؤلف من البلاد العربية ونشرت في اي بلد عربي ـ قررت الجمعية عدم منح الجائزة هذا العام .

رابعا : جائزة المملكة العربية السعودية : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، تمنح لافضل تحقيق علمي لاثر من اثار التراث العربي ، قام به مؤلف من البلاد العربية ونشر في أي بلد عربي ـ قررت الجمعية منحها لتحقيق الدكتور شكري فيصل الجزء الثالث من كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الاصفهاني .

خامسا : جائزة مدينة بيروت : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، يقدمها مجلس بيروت البلدي وتمنح لافضل دراسة في تنظيم المدن،الفها مؤلف من البلاد العربية ونشرت في لبنان ـ قررت الجمعية منحها لكتاب « العلم وتنظيم المدن العربية » للدكتور سابا جورج شبر .

سادسا : جائزة مدينة صيدا : وقيمتها اربعة الاف ليرة لبنانية ، يقدمها مجلس صيدا البلدي ، وتمنح لافضل دراسة في تاريخ صيدا منذ القدم الى الان تبرز النواحي الحضارية والاجتماعية في كل عصر من عصور صيدا التاريخية ، وخاصة في العصر العربي ، الفها مؤلف لبناني ونشرت في لبنان . لم يتقدم لها اي كتاب ، فارجىء منحها الى العام المقبل .

سابعا : جائزة لبنان في العالم : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، قدمها بنك انترا ، وتمنح لمجموعة اثار مؤلف لبناني تميزت بالجودة وصدرت بلغة اجنبية ـ خصتها الجمعية هذا العام باللغة الاسبانية او البرتغالية وقررت منحها للاستاذ الفريدو بو زيد .

ثامنا : جائزة فلسطين : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، قدمها السيد فؤاد السعيد ، وتمنح لافضل دراسة او مجموعة وثائق عن جانب من جوانب القضية الفلسطينية ، الفها مؤلف من البلاد العربية دون تحديد للغة او لمكان النشر ـ قررت الجمعية منحها لكتاب Palestine -- Loss of a Heritage للاستاذ سامي هداوي .

تاسعا : جائزة الشعر : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، قدمتها جمعية اصدقاء الكتاب ، وتمنح لافضل مجموعة شعرية الفها لبناني ونشرت في لبنان ـ قررت الجمعية منحها مناصفة بين مجموعتي « الابواب المغلقة » للاستاذ يوسف غصوب (عن قصائده الجديدة فيها) و « جرار الصيف » للاستاذ رضوان الشهال .

عاشرا : جائزة العلم : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، وتمنح لافضل بحث (او ابحاث) في العلوم الرياضية او الكيميائية او الفيزيائية ظهر في المجلات العلمية العالمية ، وضعه لبناني ، باية لغة ـ قررت الجمعية عدم منح الجائزة هذا العام .

احد عشر : جائزة الكتاب اللبناني : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية، قدمتها السيدة شفيقة دياب ، وتمنح لكتاب متميز في موضوعه تختاره جمعية اصدقاء الكتاب من الكتب التي الفها لبنانيون ونشرت في لبنان خلال العامين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ ، قررت الجمعية منحها مناصفة بين كتابي « الوسيط في القانون الدستوري العام » للدكتور ادمون رباط ، وكتاب « الحمل والولادة » للدكتور مصطفى خالدي .

الجمهورية العربية المتحدة

الجماهير ... والثقافة السياسية

رسالة القاهرة . من : رجاء النقاش

***

كان افتتاح الدورة الثانية لمجلس الامة يوم الخميس ١٢ نوفمبر بداية للعام السياسي الجديد . ومع هذه البداية يدب النشاط في جوانب الحياة العامة في شتى انحاء الجمهورية . وقد بدأ هذا العام السياسي الجديد بخطاب هام القاه جمال عبد الناصر تحدث فيه حديثا مباشرا صريحا صادقا الى نواب الشعب . والحقيقة ان بداية العام السياسي الجديد تفتح الباب واسعا امام بعض الامال الفكرية التي نرجو الا ينتهي هذا العام الا وتكون قد تحققت جميعها حتى تساهم في تحقيق الاهداف الكبرى التي تؤمن بها الثورة ويؤمن بها الشعب .

ما هي هذه الامال الفكرية التي يمكن ان تتحقق في العام السياسي الجديد ؟ ... سنتحدث هنا عن اهم امل من هذه الامال الكبيرة وهو : تعميق الثقافة السياسية للجماهير . ان هناك مهمة اساسية كبرى تحملها الثورة على عاتقها هي مهمة « التثقيف السياسي » للشعب . لقد كانت الحكومات القديمة قبل الثورة تحارب انتشار هذا النوع من الثقافة حربا لا هوادة فيها . بل كانت هذه الحكومات على العكس تسعى الى خلق امية سياسية واسعة بين صفوف

الشعب . فالشعب الجاهل من الصعب ان يثور . والشعب الجاهل سياسيا على وجه الخصوص هو اعصى الشعوب على الثورة الناضجة السليمة . لقد كان من مصلحة النظام الاجتماعي المصري قبل الثورة الا يكون هناك اي نوع من الوعي السياسي الشعبي . فلقد كان الوعي السياسي كفيلا بهدم الكثير من اسس هذا النظام القديم . فالنظام كله كان يتحرك في نطاق الاقطاعيين والرأسماليين . وحتى حزب الوفد الذي كان يحتل اكبر مكانة سياسية بين جماهير الشعب ... كان هذا الحزب يعتمد بالدرجة الاولى على الاقطاعيين والرأسماليين في اختيار عناصره القيادية . واذكر ان النائب الوفدي الذي كان يمثل منطقتنا التي تقيم فيها اسرتي وهي احدى مناطق المنصورة ... هذا النائب الوفدي كان اقطاعيا كبيرا ، وقد ورث مركزه النيابي في حزب الوفد عن والده الذي كان هو الاخر اقطاعيا كبيرا . وكان غاية ما يمكن ان يقدمه هذا النائب من خدمات « اسطورية » الى الشعب هو ان يساعد - بنفوذه - في توظيف بعض ابناء القرية وما الى ذلك من الخدمات الصغيرة . وكانت هذه الخدمات المحدودة تجد ما يشبه جهاز الدعاية المنظم الذي يجعل منها فضائل تفوق التصور . رغم ان هذه الخدمات في حقيقتها ليست الا نوعا من الاخلاق الاقطاعية الرديئة ، فهي التي كانت ترسخ في عقول الشعب ان « المعرفة » و « القرابة » و « العلاقات الشخصية » و « الوساطات » وما الى ذلك هي السبيل الى حل المشاكل التي يواجهها الانسان في الحياة الاجتماعية . ولذلك فقد كان الانسان بحاجة الى اي لون من هذه « الوساطات » لكي يعلم ابناءه ، ولكي يعالج نفسه ، ولكي يجد العمل الذي يقتات منه هو واسرته . لقد كان ثابتا في اذهان الجميع أن هذه الوساطات المختلفة هي الطريقة الوحيدة والمشروعة للحياة . اما فكرة تكافؤ الفرصة ، وفكرة حق المواطن في الخبز والثقافة ، وفكرة ان المواطن المنتج ودافع الضرائب هو صاحب حق اساسي في كل الخدمات التي يقدمها المجتمع ... كل هذه الافكار كانت بعيدة عن الجو الذهني للجماهير بحكم الطقس السياسي الذي كانت تعيش فيه . وبالطبع كان هناك كثيرون من النواب واصحاب السلطة السياسية عموما يستغلون هذا الاسلوب الشائع والمعترف به من الجميع في تحقيق مطالب المواطنين ، كان هؤلاء النواب يفتحون مكاتب لتحقيق حاجات المواطنين المختلفة مقابل اتاوات معينة . وقد كان المعروف ان النائب في البرلمان القديم يتقاضى اربعين جنيها كمكافأة شهرية ، بينما كان هؤلاء النواب يعيشون حياة مترفة الى اقصى حد . اننا اليوم في الجمهورية العربية نجد كثيرين جدا من النواب لا يملكون عربات خاصة ، وهم ايضا يسكنون في شقق بسيطة عادية ، وبعضهم يلبس بلا ادنى حرج الزي الشعبي المعروف للفلاحين والفلاحات . ولكن النائب القديم لم يكن كذلك على الاطلاق . كان لا بد ان يظهر بالمظهر اللائق لمن هم امثاله من اصحاب السلطة السياسية ، فلا بد ان يملك العربة والبيت الكبير والملبس الفخم . ولذلك فقد لجأ الكثيرون من النواب القدماء الى المتاجرة الصريحة بحاجات الجماهير مستغلين شيوع اسلوب الوساطات في اجهزة الدولة .

ومثل هذه المواقف العملية والفكرية ، كان من المستحيل ان توجد في مجتمع تتمتع جماهيره بثقافة سياسية عالية . فهذه الثقافة هي التي ستكشف ان العيوب الرئيسية في المجتمع هي الاقطاع والرأسمالية وان الخدمات الصغيرة التي يقدمها النواب للجماهير ليست الا محاولة لستر العدوان الرئيسي من جانب هؤلاء النواب على جماهير الشعب .

ولم تحاول الاحزاب القديمة على الاطلاق ان تنمي في داخلها اجهزة للتثقيف السياسي . لانها كانت في حقيقتها تكره هذه الثقافة السياسية وتنفر منها . ولنأخذ حزب الوفد - مرة اخرى - على سبيل المثال . لقد كان المفروض في هذا الحزب بالذات ان يعنى بثقافة الجماهير السياسية ، فهو - في التركيب السياسي القديم - حزب الشعب الاول ... الحزب الذي كانت الجماهير تلتف حوله وتؤيده دائما . ومع ذلك فقد ظل هذا الحزب طيلة وجوده حزبا فارغا من الناحية الفكرية . وعندما انضم اليه بعض المثقفين اليساريين المخلصين حاولوا ان يملأوا هذا الفراغ الفكري . وقد حدثني استاذنا الدكتور محمد مندور ، الذي كان من المع العناصر اليسارية المثقفة في حزب الوفد عن محاولاته العنيفة هو وعدد من الشبان الواعين لكي يخلقوا في هذا الحزب تيارا فكريا له قيمته . لقد لقي الدكتور مندور ومجموعته حربا لا هوادة فيها من جهاز الحزب الرئيسي الذي كان يتزعمه الاقطاعي المعروف فؤاد سراج الدين . لقد كان هذا الجهاز يريد أن يبقى الحزب على اساسه القائم وهو الولاء الشخصي لبعض القادة ، وترديد شعارات غامضة عامة لا ترقى ابدا الى مستوى المنهج الثقافي المحدد . وقد كافح الدكتور مندور حتى اقنع الحزب بضرورة رفع شعار اكثر وضوحا ودقة واستطاع اخيرا ان ينجح في الحصول على موافقة الحزب على شعاره الثلاثي المعروف « الديموقراطية السياسية - العدالة الاجتماعية - وحدة وادي النيل » ، حيث كان هذا الشعار يمثل الخطوط العامة للامال الشعبية في ذلك الوقت . وكان هذا اقصى ما وصل اليه هذا الجناح اليساري الشاب في حزب الوفد . ومن الواضح ان هؤلاء المثقفين اليساريين الشبان في حزب الوفد قد فشلوا في تعميق الاتجاه الفكري للحزب وفي دفعه الى أن يلعب دورا في التثقيف السياسي للجماهير . ومن المعروف ان هذا الحزب عندما وصل الى الحكم في وزارته الاخيرة سنة ١٩٥٢ ، بدأ يعمل عن طريق فؤاد سراج ايضا - وهو الشخصية الرئيسية القوية في داخل الحزب - على الوقوف في وجه الصحافة ، ومحاولة سن تشريعات مختلفة للحد من حرية الصحافة حتى لا تقوم بدورها الكبير في التثقيف السياسي للجماهير . فقد شعر هذا الحزب ان زيادة وعي الجماهير تعني زيادة معرفتها بالتناقضات الرئيسية في داخل المجتمع وتعني زيادة مطالبها وتعني في النهاية انها سوف تصبح جماهير ثورية لها تأثيرها وخطورتها الكبيرة .

هذه الامثلة كلها تكشف عن الحرب الضارية التي كانت الاحزاب القديمة تشنها ضد التثقيف السياسي للجماهير ، حتى حزب الشعب

ايضاح

سبق وان نشر لي حديث ادبي في مجلتنا « الحرية » الغراء في العدد ٢٤٣ المؤرخ في ٢٦ تشرين اول ١٩٦٤ . وقد جاء في حديثي ذكر صديقنا الشاعر خليل حاوي ، واود هنا أن اضيف الى رأيي السابق ، فأقول : انني اعتز بشاعرية خليل حاوي واعتبره من شعراء الطليعة العربية ، وان اشعاره اضافة جديدة الى شعرنا العربي ، ولعل اهم ما تمتاز به اشعاره هو انها طوعت القالب العربي لمتطلبات العصر وان افكارا متسلسلة متماسكة تنتظم سلكها وانه استطاع ان يضيف لونا جديدا كنا نفتقده في شعرنا .

وانني لم اقصد في حديثي المشار اليه اي مساس بموقفه الطيب من القضية العربية

القاهرة ١٢ - ١١ - ١٩٦٤

عبد الوهاب البياتي

نفسه كان بعيدا عن أن يكون ـ كما ينبغي ـ جامعة تتعلم فيها الجماهير ، لان هذا الحزب لم يطور نفسه ، ولانه وقع بالتدريج منذ نشأته تحت سيطرة كبار الاقطاعيين . وقد ساعد الاستعمار الانجليزي النظام القديم على ان يحارب الثقافة السياسية للجماهير حربا عنيفة . فقد وضع الانجليز منذ احتلالهم لمصر هدفا اساسيا لهم هو منع الثقافة عن الشعب . وعندما احتاج الانجليز الى جهاز من صغار الموظفين الاداريين ، وعندما عجزوا ـ في نفس الوقت ـ عن مقاومة التطور العلمي الذي اصبح املا للجماهير الشعبية ، ... في هذه المرحلة،وضع الانجليز سياسة محددة للتعليم في مصر ، وذلك عن طريق مستشارهم الشهير ((دنلوب)) ، وكانت سياسة دنلوب هي نشر التعليم ومنع الثقافة. فلا باس ان تفتح الجامعات والمدارس ابوابها على شرط ان تخرج في نهاية الامر موظفين يعرفون القراءة والكتابة وبعض العلوم العملية ، فامثال هؤلاء الموظفين ((الافندية)) لا خطر منهم ، بل هم على العكس خدمة للنظام القديم وعامل ومساعد على استقراره ، وقد نجحت هذه السياسة التعليمية الى حد بعيد ، وظلت المدارس والجامعات تقدم الى المجتمع كل عام جماعات من الافندية المتعلمين ، غير المثقفين ، كانوا يملاون الوظائف المختلفة ، حتى كونوا الاساس الراسخ للنظام البيروقراطي في مصر ، وهو النظام الذي ما زلنا نعاني منه معاناةشديدة مريرة ، حيث يبدو الموظف اكثر ولاء لوظيفته الشكلية منه لوطنه وضميره وواجبه الانساني .

ومع ذلك فقد كانت هناك شرارة من الثقافة السياسية تسللت الى الجامعات والمعاهد والمدارس . وقد تسللت هذه الشرارة من ضغط الاحداث الداخلية والخارجية على الوجدان الشعبي ، وقد كانت هذه الشرارة سببا في الازعاج المستمر الذي كان الطلاب يمثلونه بالنسبة للنظام القديم في مصر ... لقد كان الطلاب عموما قوة مؤثرة على مجرى الاحداث عن طريق المظاهرات العنيفة ، والاضرابات المختلفة.هذه امثلة مختلفة من الجهود المعقدة المستمرة لاضعاف ثقافة الشعب السياسية ، ولحرمان الشعب من هذا السلاح الخطير ، سلاح الوعي السياسي . وقد قامت ثورة ٢٣ يوليو من اجل تحقيق الاهداف الشعبية الحقيقية ، ولكنها اضطرت الى ان تخوض معارك عديدة عنيفة لم تتح لها ان تواجه مشكلة الثقافة السياسية للشعب مواجهة كاملة .واعتمدت الثورة في تثقيف الشعب على عدة وسائل : منها خطابات جمال عبد الناصر ، فان التجاوب بين عبد الناصر وبين الشعب ، وقدرة عبد الناصر على مخاطبة الجماهير بعمق وبساطة معاه وحرص عبد الناصر على ان ينقل للشعب خلاصة تجاربه الفكرية والعملية الواسعة ... كل هذا جعل من خطاباته وسيلة اساسية من وسائل التثقيف السياسي للشعب. ومن هذه الوسائل ايضا اجهزة الاعلام : مثل الاذاعة والتلفزيون والصحف . فقد اصبحت هذه الاجهزة قوية الى اقصى درجة ،واصبح نفوذها على الجماهير كبيرا واسعا . ولكن هذه الاجهزة في النهاية ما تزال تعتمد على سياسة التعبئة اكثر من اعتمادها على سياسة التوعية الهادئة الدقيقة البعيدة المدى . وهذه الاجهزة معذورة الى حد بعيد في هذا الموقف ، وخاصة الاذاعة والتلفزيون ، فطبيعة هذه الاجهزة ، ومخاطبتها المباشرة للجماهير تجعل من الصعب عليها ان تقوم بدور ابعد من دور التعبئة .

هناك جيل جديد من الكتاب السياسيين نشا مع الثورة ،وارتبط باساليبها العميقة الجديدة في النظر الى الامور ، واستطاع هذا الجيل ان يجعل من كتاباته مدرسة للشعب ، وان كانت مدرسة تقف بتاثيرها عند حدود المثقفين . ولكنها معذلك تلعب دورا كبيرا في ميدان الثقافة السياسية للجماهير . ولكن الحقيقة التي نلمسها بوضوح مع ذلك كله، هو ان الثقافة السياسية للجماهير ما تزال ضعيفة محدودة الى درجة بعيدة . انها ثقافة لا تتناسب ابدا مع المسئولية الكبرى الملقاة على عاتق الشعب في هذه المرحلة الثورية .

ولكي ندرك خطورة هذا الوضع يمكننا ان نشير الى بعض المشاكل التي أثيرت اخيرا ، وكان باستطاعة الوعي الشعبي عن طريق الثقافة السياسية ـ ان يحلها حلا نهائيا.

فمثلا لم تدرك جماهير الشعب ـ بشكل حاسم ـ مغزى المؤتمرات الكبرى التي عقدت في القاهرة هذا العام . لقد فهم الجميع بسهولة ويسر مغزى مؤتمر القمة العربي ولكن الكثيرين ارتبكوا فكريا امام مؤتمر القمة الافريقي ، ومؤتمر عدم الانحياز . لقد اثيرت اسئلة كثيرة مثل : لماذا هذه المؤتمرات ؟ اليست هذه المؤتمرات اسرافا في اسراف ؟ اليست نوعا من الضغط الاقتصادي الذي لا مبرر له على الشعب ؟ ...

واعتقد ان مثل هذه الاسئلة ليست عيبا ولا خطأ . ان من الواجب ان تثار . والشعب الذي يسأل هو شعب حي يريد ان يتحمل مسئوليته عن فهم ووعي . ولكن الخطأ الحقيقي هو انه لم توجد الاجهزة السياسية الكافية للاجابة العميقة على هذه الاسئلة . لقد كان من المفروض ان يكون شعبنا على فهم واسع الى اقصى حد للحرب التي تشنها اسرائيل ضدنا في افريقيا ، حيث تحاول اسرائيل ان تعزلنا عن هذه القارة، وان تقيم لنفسها حولنا قواعد اقتصادية أرسخ الف مرة من القواعد العسكرية . ولو نجحت اسرائيل في هذا الحصار فانها ولا شك سوف تحرم الشعب في مصر من رغيف الخبز ، لانها سوف تخلق في داخل المجتمع كسادا نهائيا ، فلن نستطيع ان نجد في العالم الجديد (عالم افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية) من يتاجر معنا ونتاجر معه ، من يتعاون معنا ونتعاون معه . وعلينا ان نتصور ان كل افريقيا اصبحت مثل الكونغو ليوبولدفيل مثلا ... اننا في هذه الحالة لن نستطيع ان نتحرك خطوة الى الامام ، وتستطيع اسرائيل على العكس ان تفعل ما تشاء عسكريا واقتصاديا .

كل هذا يجب ان يقال بتفصيل وشرح كاملين ، يجب ان يتسلح الشعب بهذه المعرفة السياسية الناضجة ، وهو في هذه الحالة لن يستسلم للاسئلة الخاطئة ... لانه يعرف الرد ، ويعرف الدليل الحاسم على خطأ الاعتراض على مثل هذه الاسئلة .

هناك مثال اخر ، هو الفهم السائد بين صفوف الجماهير من ان الاشتراكية تعني الرخاء اليسير السهل ، والمتعة القريبة العاجلة ، والحقيقة طبعا شيء غير هذا تماما . فالاشتراكية جهاد ونضال ومصاعب ومتاعب ، وجنة الاشتراكية لن تتحقق الا بعد جهود مضنية . ومن

المؤسف ان نجد في صفوف الجماهير مثلا من يجد ان اختفاء سلعة من السوق هو دليل ضد الاشتراكية ،او ان ضعف صناعة حديثة في مصر الى جانب مثيلتها الاجنبية هو طعن في الاشتراكية . نحن لن نجد طعما للتقشف والحرمان ، ولن نجد معنى حقيقيا لملابسنا المصنوعة في بلادنا مهما كانت هذه الاقمشة متوسطة الجودة ... لن يحدث من هذا كله الا اذا انتشر الوعي السياسي العميق بين الجماهير .

هناك نموذج ثالث ، وهو وجود افراد منهارين اخلاقيا في المؤسسات الاشتراكية مثلا : ما اكتشفناه اخيرا من سرقات في الجمعيا تالاستهلاكية التي قامت اساسا لتيسير مطالب الشعب ... هذه السرقات التي تحقق فيها الدولة بشدة وحزم ليست ناتجة فقط عن الطبيعة البشرية العادية التي لا يمكن انكارها ، وهي انه في كل مجتمع انساني لا بد أن يوجد الاشرار ، لا مفر من ذلك على الاطلاق... ولكننا بالتأكيد يمكن انقضي على الكثير من جوانب الشر في مجتمعنا عن طريق الثقافة السياسية العميقة . لان هناك بعض الاشرار يقوم شرهم ببساطة على عدم الفهم وعدم الاحساس بالمسئولية . ان تربية هذه العناصر تربية صحيحة وانتزاع بذور الشر من اعماقها ... كل هذا هو الطريق الصحيح لجعل هذه العناصر في خدمة الاشتراكية بدلا من ان تكون عبئا عليها .

واخيرا ،يمكنني اناقول ان الثقافة السياسية السليمة ، سوف تقضي شيئا فشيئا على سيكولوجية المجتمع الاقطاعي الرأسمالي ، فهناك مثلا الخوف بل الذعر من الغد ... ان هذا الاحساس يتمكن من الانسان في المجتمع الرأسمالي الاقطاعي ، لان التأمينات المختلفة غير موجودة ، فالعامل يخاف ان يطرد من مصنعه ، والفلاح يخاف ان يطرد من ارضه ، والموظف يخافان يفقد عمله ، والكل يخافون من الموت، لان الموت ليس قوة تخطف الحياةمن الفرد فقط ، ولكنه قوة تعطلوظيفته الاجتماعية والعائلة ، فاذا مات الاب جاع الابناء ، لان المجتمع الرأسمالي والاقطاعي لا يحمي اطفال الصغار اليتامى ابدا . ولعل هذا الخوف كله هو الذي يجعل الاحساس الديني ملتهبا حادا اكثر مما يتطلبه الدين نفسه وذلك في المجتمعات الريفية التي يسودها ، فالانسان في مثل هذه المجتمعات يضرع الى الله في كل لحظة ان ينقذه من البلاء المتوقع ضده وضد عائلته . ومثل هذا الخوف نفسه هو سر الكثير من الامراض التي تعتري في المجتمع الاقطاعي والرأسمالي . هناك مرض اخر هو مرض التنافس المدمر بين الناس ، لان كل انسان يخاف على نفسه ومستقبله ويعتقد ان الحصول على فرصته في الحياة ليس امرا سهلا ، وان الاخرين ينافسونه على مكانته . كل هذه المشاعر هي وليدة الاسس التييقوم عليها مجتمع الاقطاع والرأسمالية . وما تزال هذه الامراض منتشرة في مجتمعنا لان التصور القديم للحياة ما زال قائما . وذلك يعود بدون شك الى نقص الثقافةالسياسية بين الجماهير . لان الثقافة السياسية العميقة سوف توضح الى اقصى مدى الاسس الجديدة التي يقوم عليها المجتمع الاشتراكي . مما يساعد الانسان على ان تكونحياته ايسر واسهل واقل امتلاء بالمخاوف والهموم والخوف من الاخرين . ومثل هذه المشاعر الصحية الجديدة تجعل الانسان ولا شك اقدر على الانتاج والعطاء والاضافة الى الحياة .

هذه هي اهمية التثقيف السياسي بالنسبة للجماهير ، ولست بحاجة بعد ذلك الى مزيد من الشرح والتفسير لكي أؤكد ما قصدتاليه منذ بداية هذا المقال دون ان افصح عنه وهو ان الاتحاد الاشتراكي يجب ان يقوم بدور اوسع واعمقوان يتحرك حركة واسعة شاملة في سبيل تحقيق الثقافة السياسية الاشتراكية على ارقى صورة واعمق صورة بين صفوف الجماهير العربية المصرية في ظل ثورتها العظيمة ... وذلك هو املنا الاكبر في العام السياسي الجديد .

سارتر بين الوجودية والماركسية

– تتمة المنشور على الصفحة ٦ –

والخلق ، عندما نقرأها في نصوصها الاصلية عند كل من الفيلسوفين ، على عكس ما اساء اليها التعميم اليومي .والحالة الثانية اللامشروعة ، وهي تنازل الانسان عن حريته وامكانياته ، وقبول الشخصية الاجتماعية الشائعة ، والدخول في دهاليز مختلف القيم البورجوازية المعروفة .

والحقيقة ، ان سارتر منذ ان التصق بتلك الموضوعة الاولية : الوجود – في – العالم ، فانهانفتح على فكرة الالتزام من اساسها الميتافيزيقي الشامل اولا .

ولقد حاول في كتابه الفلسفي الاول « الوجود والعدم » ، ان يحلل تجربته الفردية ، كما اعطاها بشكل روائي اعتبارا ، من رواية «الغثيان» الى ثلاثية « دروب الحرية » ، الى مختلف مسرحياته في تلك الحقبة ما بين اواسط الحرب ،والفترة اللاحقة بها فيما بعد . وكانت النغمة التي لا يفتأ سارتر يكررها دائما ، هي التي تطالب بالالتزام للوضع الانساني ضمن شروطه المتحررة من كلقناع اجتماعي او تواضعيمختلق. ولقد كان همه الاول ، ينحصر في تحرير الفرد من مختلف الاوهامالثقافية والحضارية . ويجعله ينفتح بعقل بريء على رؤية العالم من جديد ، في حال من النقاء الكامل ، لا تشوبه اية عادة او عقيدة فكرية او قيمة سابقة ، على هذهالرؤية بالذات .

ولعل المعنى الاول والمباشر ،المتحصل عن موضوعة : الوجود – في – العالم ، هو التزام هذه البنية ، في افضل شروط الطهر الفكري والوجداني والعملي .

ومن اجل هذا الوجود البريء ، والفعال ايضا ، سعى سارتر الى ان يكون مؤثرا في عصره ، ثقافة عصره وسياسة عصره وجيل عصره .

ولذلك لجأ الى الفكر والادب والمسرح والسياسة . وكان التقاؤه بالسياسة قديما ، منذ بدأ يكتب عن بعض الروايات الاميركية التي تكشف عن اوضاع أنسانية مهينة في اميركا .

ولقد اصطدم منذ البدء بالحزب الشيوعي . وظهرت دعوته الى التزام ، وكأنها علو حتى فوق الالتزام الشيوعي . وسلط سارتر اسلحته النقدية في التعرية النظرية والادبية والسياسية ، على التناقضات الشيوعية .

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان قلق سارتر الاكبر هو : كيف يمكنه ان يعمل يساريا دون ان ينتظم في حزب اليسار الاول : الشيوعية ؟

لقد كان التزام سارتر اذن ينطلق من مبدأ الوجود المشروع للانسان في العالم . وقد وجد أن مختلف سوالب هذا الوجود انما تأتي ، من العالم ذاته . وبدلا من ان تظل هذه السوالب ذات صيغ تجريدية ، فلقد كشفها سارتر في مختلف الاوضاع اللاانسانية ، التي تقتل حرية الانسان .

وفي الوقت الذي كان يبدو فيه سارتر من خلال رواية «الغثيان» انه فارس من اجل اعادة البراءة المطلقة للانسان الفرد ، فان ثلاثيته « دروب الحرية » ، تثبت ان حرية الفرد الحقيقية انما هي مرتبطة بحرية الوضع الانساني كله .

وان تغيير صيغة الوجود – في – العالم ، من حال الزيف ، الى حال الوجود المشروع ، لا يمكنان‌يتم عن طريق التحليل الفكري ، وانما بارادة انسانية جماعية .

ومع ذلك ، فقد حرص سارتر دائما أن يجعله التزامه السياسي نتيجة لا مقدمة ، نتيجة لتحليلالوضع الانساني ككل . ومن هنا كان صراعه الدائم مع اليسار الشيوعي ،كلما كشف عن انحرافات في طبيعة الالتزام الفكري والسياسي الذي يحمله هذا اليسار .

وكانت مشكلته مع الماركسية كفكر ، هو ضياع الرؤية الانسانية منها ، بالرغم من انها تتجه نحو تغيير اوضاع الانسان نفسه ، من كائن يرسف تحت مختلف انواع القيود الفكرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، الى كائن يملك مصيره بيده . لقد كان سارتر يملك دائما احتجاجات على تناقضات العمل الشيوعي ، باسم الالتزام الاعمق . وكان يملك انتقادات اساسية على الماركسية ، على اعتبار ان نقصها الاكبر يرجع الى حاجتها ، من اجل تاكيد الجدلية التاريخية ، فانها تربطها بجدلية مادية في الطبيعة .. مزعومة ، لا يقبلها سارتر . وكذلك من اجل تاكيد جماعية العمل الثوري ، فقد اضاعت زوايا كثيرة للكشف عن أصول الثورة في الفرد نفسه . وعمدت الى علم اجتماعي اقتصادي تبسيطي ، يغفل مختلف التشكيلات الانسانية ضمن الدائرة الاجتماعية الواسعة .

من هنا ، كان سارتر يرفض العمل مباشرة مع الاحزاب الشيوعية ، ويؤثر عليها التزامه الشخصي من خلال شهاداته المتوالية ، التي استطاعت في الواقع ان تخلق حزبا كاملا من خلال بضعة اقلام معه ، دون حزب . ومن هنا ،كان شعور سارتر بضرورة اعادة النظر في الفكر الماركسي ، على ضوء مختلف النتائج الفكرية والعملية التي فرزها الوضع الانساني الجديد . ولذلك سعى سارتر الى اخراج كتابه الكبير الثاني « نقد العقل الديالكتي » . ان هذا الكتاب ليس ماركسيا ، الا بنوع من التعميم السريع. ولكنه كتاب جديد تما ما ، بفكر جديد .

انه يقيم نوعا من علم الاجتماع الفلسفي ، الذي يتوجه الى اكبر حقيقة تضمها علاقة الوجود – في – العالم ، وهي حقيقة الجماعة الانسانية ، وهي تعاني من مختلف ضروب التغيير الداخلية .

فبدلا من التحليل الشاقولي للعقلية الماركسية الذي يبسط الحقائق ، ويقسم المجتمع الى طبقتين ، فان التحليل الافقي ، الذي يكشف مختلف انواع التجمعات حول مختلف اشكال من العلاقات،وضمن سياق تبادل التغيير الفعال ، هو الذي يكشف عن الخاصية الجدلية للجماعيات ، دونما تقيد باي منهج قبلي ، حتى ولو كان منهج الجدلية التاريخية المادية نفسه .

ودون أن ندعي الان تلخيص كل الافكار الفنية ، التي يضمها ، اضخم كتاب في الفلسفات الاجتماعية المعاصرة « نقد العقل الديالكتي » (١) ، فاننا نريد أن نكتفي بالهدف ، الذي كتب من اجله هذا المقال .

ان سارتر لم ينتقل من فلسفة نقيضة ، الى فلسفة نقيضة اخرى. وانما كانت تجربته من بدئها ، الى تطوراتها المختلفة ، حتى كتاب « نقد العقل الديالكتي » ، تسير ضمن تفتح خصيب لبذرة واحدة اصيلة .

فمن التزام ميتافيزيقي لوجود الانسان ، وتعرية لمختلف ضروب الانتقاص والتشويه التي تلحقه عن طريق فكره ومجتمعه وظروف وضعه، الى التزام لمبدأ التغيير الجذري ، ضمن العلاقة الاولى : الوجود – في – العالم ، الى هذا التطويرالفكري والادبي للماركسية ، ضمن صورتها الفعالة ، من خلال الظروف المستجدة ، والمحيطة بقضايا الصراع العالمي الحالي ، فان رحلة سارتر بين عمالقة الفكر العالمي ، وبين تجاربالالتزام الفردي والحزبي ، تقوم كاقوى نموذج عن تجربة اخلاص انسان لدرجة العبقرية ، للصدق في الفهم ، للصدق في العمل ، للصدق فيالشهادة الكاملة .

ويكفي ان نذكر مدى التاثير الذي تباشره سلطة فكره على التيارات الماركسية الحرة في اوروبا ، على سياسة بلاده تجاه معضلات الحرية ، على مشكلة الجزائر – بالنسبة لنا كعرب – يكفي ان نذكر ذلك ، حتى نعتبره كما اعتبره مواطنوه ، بمثابة حزب قائم بذاته ، بفكر لا يقبل الخضوع لاية سلطة فوققناعاته الذاتية ، وبمواقف لا تتبع اية استراتيجية مرتبطة بمصالح الحزب من خلال مصالح الامة ، والمجتمع الانساني .

مطاع صفدي

(١) هذا له موضوع اخر ، وربما سنعمد الى معالجته في اعداد قادمة.

الفهرس العام للسنة الثانية عشرة من « الآداب » ١٩٦٤

١ – فهرست الموضوعات

راجع بريد الآداب تحت مادة « بريد » . والقصائد تحت مادة « شعر » . والقصص تحت مادة « قصة » . والنتاج الجديد تحت مادة « كتاب » . والمناقشات تحت مادة « مناقشة » والنشاط الثقافي تحت مادة « نشاط » .

٢ ـ فهرست الكتـاب